المنهج الصوفي والحياة العصرية

فوزي محمد الوزير

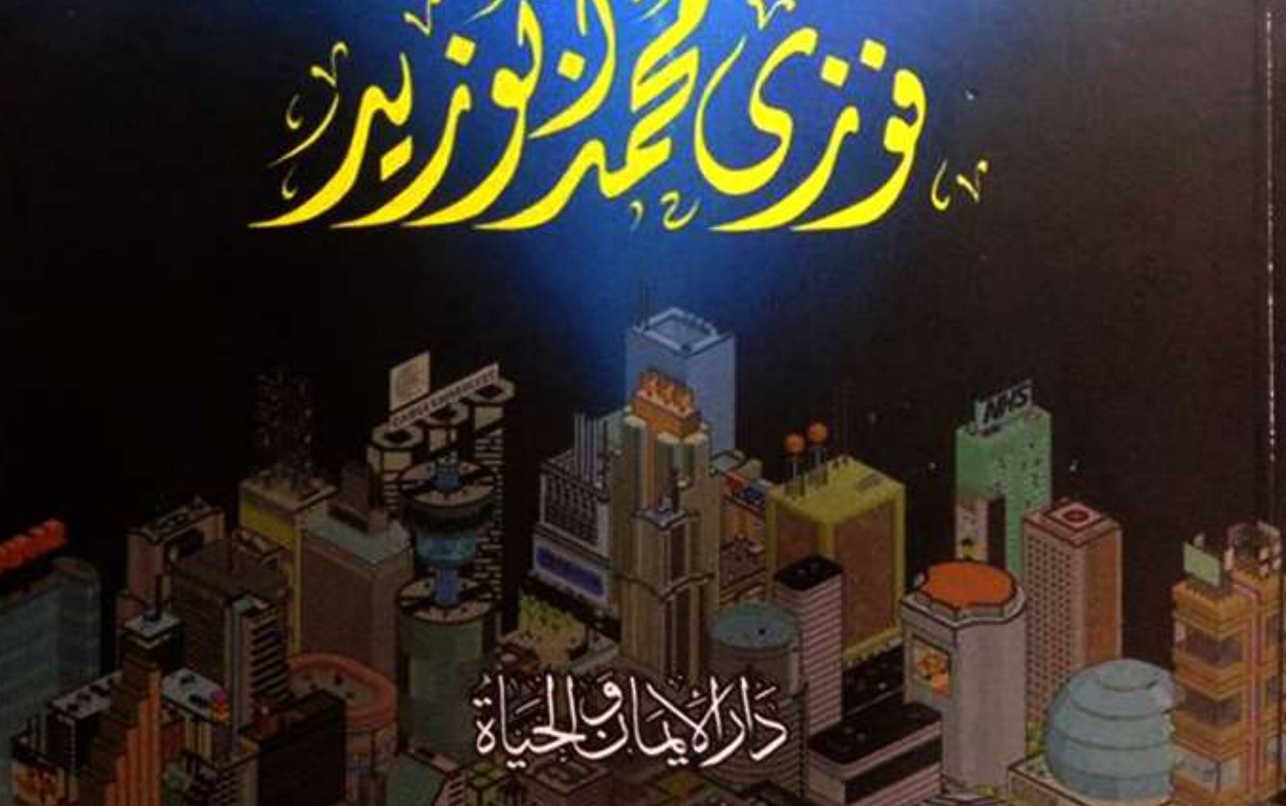

دار الإيمان والحياة

المنهج الصوفي والحياة العصرية

فوزى محمد أبوزيد

دار الإيمان والحياة

١١٤ شارع ١٠٥ ، حدائق المعادى، القاهرة ، ت ٥٢٥٢١٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

رقم الإيداع المحلى : ٢٠٠٦/٢٧٤٤

الترقيم الدولي I.S.B.N. : 977-17-4317-1

طبع في : دار نوبار للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله الذي يمنّ بسوابغ الآلاء، ويتفضل بجزيل الفضل والعطاء على عباده السعداء، الذين ألهمهم ذكره، ووفقهم إلى شكره، وحفظهم من عصيانه ومخالفة أمره والصلاة والسلام على مسك الختام، وبدر التمام، ومصباح الظلام سيدنا مُحَمَّد وآله وورثته، نجوم الهداية، وكواكب العناية وكل من دعا إلى هديهم، أو تمسك بأوامرهم أو سعى إلى رحابهم إلى يوم الدين. آمين.

لقد كثر في هذه الأيام الهجوم على التصوف الإسلامي سواء من أصحاب المذهب العلماني والذين يعتقدون أن الحياة مادة فحسب، وأن المجتمع في إمكانه أن ينطلق دون أن يكون للنواحي الروحية حساب كبير أو صغير في انطلاقه، ولقد اعتقدوا إلى جانب ذلك أن التصوف يدعو إلى السلبية والخمول والكسل. في حين أن رسالة التصوف الإسلامي كما أشارت إليها مشيخة الطرق الصوفية :

((إن الصفات الخلقية والنفسية هي رأس مال الشعوب، وهي المدخرات العظمى التي تصنع الأمم، وتدفع بالركب البشري إلى غايته، ولقد كان التصوف الإسلامي أبداً هو صانع هذه المعجزات، والانتفاضات في التاريخ الإسلامي فالتصوف هو أعلى صور الإيمان في العقيدة الإسلامية، لأنه يرتكز على الشوق والمحبة ويطلق في قلوب أبنائه الشعلة المتوهجة المتطلعة دائماً إلى الله)).

فالتصوف يربِّي الفرد تربية أخلاقية مثالية، وعن طريق تربية الأفراد نصل إلى مجتمع متكامل متكافل.

والصوفية لا يهتمون بكلام هؤلاء الماديين العلمانيين لأنهم في إنجرافهم في تيار المادية المعاصر لم يهاجموا الصوفية فقط، بل تعدوا ذلك إلى كثير من مبادئ الإسلام، حيث أنهم في انسياقهم في تيار المادية ابتعدوا تدريجياً عن روح الإسلام، حتى صاروا غرباء عن الإسلام، أو صار الإسلام غريباً عنهم.

فتمسك الصوفية بهذه الآداب إنما هو تمسك بروح الدين وجوهر العقيدة، وما على الصوفية من بأس أن يكونوا غرباء عن الناس الذين جفوا دينهم، ونظروا إلى الحياة بمنظار مادي خالص.

والصوفية على يقين من أنه لن يخرج الناس من شقائهم الذي هم فيه الآن، إلا بعودتهم إلى معين الروح ونقاء السريرة، وصفاء القلب وغيرها من القيم والمثل التي حرص الصوفية على تربية أبنائهم عليها، وطبعهم بها.

وقد أشار إلى ذلك الدكتور سعد الدين السيد صالح في كتابه : ((مشكلات التصوف المعاصر)) حيث يقول :

((نحن في حاجة إلى التصوف الإسلامي النابع من كتاب الله وسنة رسوله وخصوصاً في هذا العصر المادي الذي يستلزم منا أن نواجهه بفكر مضاد تتغلب فيه مطالب الروح على مطالب البدن.

ونستطيع أن نوجز حاجتنا إلى التصوف فيما يلي:

١- تغلب الفكر المادي والطابع المادي على حياة الإنسان، وهذه الحالة لا يمكن الخروج منها إلا إذا قابلناها بفكر مكافئ نعطي من خلاله للروح والرقي النفسي والسمو القلبي والضبط السلوكي، والتحكم في الشهوات الأهمية القصوى. وهذا هو طريق التصوف الذي يستطيع الإنسان من خلاله أن يتحكم في شهواته وأهوائه ويطوعها لمطالب دينه.

٢- إن التصوف يعمل على تصفية النفس وتطهيرها من الرذائل، ويدفع الفرد إلى التحلي بمكارم الأخلاق ومجاهدة النفس.

٣- إن تسعين بالمائة من الأمة الإسلامية خلال قرون متعددة لهم صلة بالتصوف وأهله بشكل من الأشكال، إما بالإشتغال فيه، أو بالتلمذة على أهله أو بالصلة بهم أو بالثقة فيهم أو بالانتساب الإسمي لهم أو لمن تتلمذ عليهم، ولا زال التصوف وأهله حتى الآن هم الذين يصلون إلى بيئات ومناطق لا يصل إليها غيرهم.

٤- إن التربية الإسلامية مطلوبة في هذا العصر وتُنادي بها كثير من الاتجاهات الإسلامية، ولاشك أن الصوفية هم أصحاب الخبرة في التربية، كما أن التصوف هو القادر على إيجاد الانسان في كمالاته كلها)) انتهى

وقد أشار أيضاً إلى الدور الهام للتصوف في وجه المادية العصرية الأستاذ سعيد حوي في كتابه ((تربيتنا الروحية)) صـ ١٨ حيث يقول:

((إن عصرنا عصر الشهوة وعصر النزوة وعصر المادية، ولابد أن نقابل هذه الأشياء فيه بما يكافئها ويقابلها ولذلك فأقول: إن التربية الصوفية وحدها هي التي تقابل ذلك، فالشهوة لا يحل مشكلتها المقال وحده، بل لابد من الحال، ولابد من البيئة والتربية، والمادية لا تكافئها الكلمة وحدها، بل لابد من الشعور والذوق والاحساسات الإيمانية مع المقال، والتمرد لا يعالج بالكلمة وحدها؛ بل يعالج بالاخبات لله والتقوى والورع والأدب .... وهذه طريقها العملي هو التصوف)) انتهى.

والكتاب الذى بين يديك أخى الكريم ، يتكون من جزئين :

الجزء الأول بعنوان: " ملامح المنهج الصوفى "، والثانى: " الشيخ المربِّى " .

وقد ذكرنا في الجزء الأول منه ، صوراً من نشاط الصوفية في النواحي الاجتماعية كنشر المحبة والمودة واقتلاع جذور الأحقاد والبغضاء والشحناء والاحن من النفوس، وتأليف القلوب على الله، والسعي للاصلاح بين المتخاصمين، ونشر التكافل الاجتماعي، وإحياء القيم الإسلامية، ومقاومة التيارات المادية وغيرها.

هذا بالإضافة إلى دورهم الأعظم في نشر الإسلام بين ربوع العالم بالقدوة الطيبة والأخلاق الكريمة، ومواجهة الحكام بأخطاءهم وتبصيرهم بواجباتهم، وغيرها من ألوان جهادهم التي تدل على أن التصوف عمل وجهاد، ونود من وراء ذلك أن تكون الأخلاق الصوفية هي الرباط الذي يربط بين الناس جميعاً، فتقوي العلاقات بينهم ويشعرون بالصفاء والمودة والأخاء.

ويحدثنا المستشرق أبو بكر سراج الدين واسمه السابق ((الدكتور مارتن لينجز)) البريطاني عن هذه الحقيقة فيقول :

((لقد جذبني التصوف إلى الإسلام بما فيه من مُثل إنسانية وآداب ذوقية، وفهم صحيح واضح للإنسان والله والعلاقة بينهما، كما استهواني ذلك المجتمع الطاهر الفاضل بعلاقاته الإنسانية والروحية، والمجتمع الذي يصوغه المنهج الصوفي ويقيمه على أخوة عالمية ربانية تطبع كل شئ في الكون بطابعها ولونها، والحق أنني لم أجد في المسيحية ولا في غيرها ما يقارن بالتصوف الإسلامي، وأرى أن هدف الرهبنة وهدف الطريق الصوفي مختلفة جداً سلوكاً ومعرفة وتذوقاً وذوقاً)).

وقد رأينا نشر هذه الحقائق التي درسناها دراسة موضوعية بعيدة عن الهوى والتعصب، وأخضعناها للمنهج العلمي الدقيق؛ طلباً لمرضاة الله أولاً، وإحقاقاً للحق ثانياً ، والله من وراء القصد، وبه بلوغ المراد .عز وجل

أما الجزء الثاني من هذا الكتاب وهو بعنوان الشيخ المربى :

فقد تحدثنا فيه عن الدعاة إلى الله عز وجل ، ويطلق عليهم (المرشدون أو الشيوخ) – فبيّنا أوصافهم، ووضّحنا منهاجهم، وذكرنا الآداب التي يجب أن يتحلوا بها في أنفسهم، والآداب التي تنبغي للمريدين معهم، وكشفنا أحوال الأدعياء، حتى لا ينخدع بهم الصادقون من المريدين، وذلك على هدى من كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وأحوال السلف الصالح.

وهدفنا من وراء ذلك، بيان الحق وأهله، وإظهار الصادقين من الأدعياء والمبطلين، ومجابهة المغرضين الذين ينكرون الحق – مع شدة ظهوره – وقوله ﷺ :
{ لا يزالُ طائفةٌ من أُمَّتِي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أمرُ الله وهُمْ كذلكَ }. رواه مسلم عن ثَوْبَانَ ﷺ.

كما لايفوتنا فى هذه المقدمة:

أن نبين أننا قد أشرنا إلى كثير من المعانى الواردة فى كتابنا هذا الذى بين يديك ، وذلك بكتب سابقة لنا : " أبواب القرب ومنازل التقريب " – أكتوبر ١٩٩٦ – و " الصفاء و الأصفياء " – أكتوبر ١٩٩٦ – ، و " الصوفية والحياة المعاصرة " أغسطس – ١٩٩٦ –، ولكن لما كانت هذه الكتب قد نفذت طبعتها الأولى وطلب الكثيرون إعادة طباعتها ، فقد أرتأينا أنه ولكبير فائدتها وتفردها فى بابها ؛ أن نجمع هذه المعانى معا فى كتاب واحد، ونضيف إليها ما قدَّر الله لنا من بعض ماأكرمنا به فى هذا الباب ، ونعيد تبويبها وتنسيقها بما يناسب الوقت ليخرج لك هذا الكتاب دراسة متكاملة فى بيان المنهج الصوفى والحياة العصرية .

فإذا أضفت إلى ذلك أخى القارئ الكريم ، كتبنا الأخرى فى هذا الشأن وهى :

١. " كيف يحبك الله " : طباعة أبريل ٢٠٠٦ ، وقد بنينا هذا الكتاب على توضيح الصفات والأخلاق التى مَنْ تجمّل بها أحبَّه الله ، وكذلك الأعمال والأفعال التى من قام بها نال محبَّة الله ، هذا بالإضافة إلى السنن والنوافل التى داوم عليها حبيب الله ومصطفاه وكان عليها الصالحون من عباد الله
٢. " مراقى الصالحين " :طباعة يناير ٢٠٠٦ : وفيه نتحدث عن المجاهدات التى بتمكن العبد فيها تصير له مقامات فى القرب من الله يترقى فيها من مقام إلى مقام حتى يصل إلى مقام العبودية الكاملة لله ﷻ ، فينال الوراثة الكلية

للحبيب الأعظم ﷺ

٣. "رسالة الصالحين" :طباعة أكتوبر ٢٠٠٥ : وفيه بيان تفصيلى عن رسالة الصالحين والعارفين والعلماء العاملين فى هذه الحياة وواجباتهم و أدوارهم التى كلفهم الله بها وشرفهم بها رسوله ﷺ ، وكيف أن أجلها وأعظمها هى رسالة الأنبياء والرسل ألا وهى دعوة الخلق إلى الحق جل وعلا بالحكمة و الموعظة الحسنة والقدوة الطيبة والخلق الكريم ..

٤. "علامات التوفيق لأهل التحقيق" : طباعة أغسطس ٢٠٠٥ : وفيه نتحدث عن العلامات والدلالات التى استنبطها أهل التحقيق والعلماء العاملون من أهل الطريق والتى إما أن يراها السالك فى نفسه أو العارف فى وصله فيعلم صحة قصده وجميل صنعه فيما يتقرب به إلى ربه ،أو يزنوا بها أنفسهم ويقيسوا أحوالهم حتى تثبت على الطريق أقدامهم ويستبشرون بفضل ربهم ورحمته ، وهى موازين قرآنية وأحوال سنية بسطناها بعون الله وتوفيقه من كتابه تعالى وسنة رسوله وأحواله المفردة ﷺ وأحوال أصحابه والتابعين .

٥. "الصوفية فى القرآن والسنة " ، طباعة يونيو ٢٠٠٥ والذى أصَّلنا فيه قواعد الصوفية ، وأقوالهم ، وأفعالهم ، وأحوالهم ... على ما ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والأحوال التى كان عليها المصطفى ﷺ وأصحابه الكرام

٦. ." المجاهدة للصفاء والمشاهدة " طبع فبراير ٢٠٠٥ ، والذى تناولنا فيه الوسائل والأساليب التى يتم بها جهاد النفس وصفاء القلب حتى يصل العبد إلى مقامات القرب والأنس بالله عَزَّ وَجَلَّ وبرسوله ﷺ .

٧. " طريق المحبوبين وأذواقهم " : طباعة يناير ٢٠٠١ : وفيه وفقنا الله تعالى لتسليط الضوء على بعض منحه سبحانه وتعالى للعارفين ، وإلهاماته للواصلين ، وفيوضاته عزَّ شأنه على الصادقين

٨. ."أذكار الأبرار" :طباعة مايو ٢٠٠٠، وفيه تناولنا بالتفصيل باب " الذكر " ، وأوردنا فيه جملة من الأذكار النبوية التى يحتاج إليها المؤمن فى كل أدوار حياته .

٩. "طريق الصديقين إلى رضوان ربِّ العالمين" : طباعة مارس ١٩٩٥ ، وهو يحتوى مجموعة من الدروس الروحانية التى أكرمنا الله بتناولها فى سياحاتنا مع إخوان الصفاء و المحبين وهى تتحدث فى مجموعها عن السير والسلوك إلى الله عز وجل للراغبين فى مزيد فضل الله والطالبين لمراتب الكمال .

عندها ؛ .... تصبح هذه الكتب العشرة – بإذن الله تعالى وحسن توفيقه – مرجعا كاملا متكاملا وافياً عن الصوفية الحقة ، ينتفع بها من قرأها ، ومن قرأها وعمل بها ، ومن استعان بها فى معرفة القوم و أحوالهم ....

وحتى تصبح هذه الموسوعة العلمية عن الصوفية الحقة أكثر شمولا وإحاطة فى هذا الباب وتكاملا ؛ لابد أن نلحق بها أمثلة للشيوخ الصادقين والحكماء الربانيين من السلف الصالح والمعاصرين ، مع التركيز على حرصهم على اتباع الشرع الشريف والمتابعة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودورهم فى تربية الرجال إلى مراتب الكمال ، وذلك بعد تنقية هذه السير مما شابها من مغالاة بعض المحبين فى التحدث بالكرامات وانتقاد المغرضين على غير أساس من المنهج العلمى السليم.

وقد أصدرنا فى هذا المقام كتاب " الإمام أبو العزائم المجدد الصوفى " ، طبع ١٩٩٢، وكتاب " الشيخ مُحَمَّد على سلامة سيرة وسريرة"، طبع ١٩٩٣، ولنا تحت الطبع كتاب " المربى الربانى السيد أحمد البدوى ".

ونحن إذ نعلم شدة حاجة المكتبة الصوفية لهذا اللون من الخطاب الصوفى العلمى والمنهجى فى تناول هذه السير الذكية والنماذج العطرة ؛ نسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بعميم عونه وفيوض إلهامه حتى نستكمل قدرا منها بما يساهم بتواضع فى بيان ...." **الصُّوفية الحقَّة** ".........

وهذا جهد المقلّ ...

فما كان فيه من توفيق فمن الله عز وجل وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وما كان فيه من سهو أو نسيان أو تقصير ؛ فمن سهوى وعجلتى ونفسى .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مساء الأثنين ٢١ شوال ١٤٢٧هـ الموافق ١٣ نوفمبر ٢٠٠٦م

فوزي محمد أبوزيد

: الجميزة ـ محافظة الغربية . : ٥٣٤٠٥١٩-٤٠-٢٠-٠٠٢٠

: ٥٣٤٤٤٦٠-٤٠-٢٠-٠٠٢٠

: الموقع على شبكة الإنترنت :

WWW.Fawzyabuzeid.com

💻 البريد الإليكتروني E-mail:

fawzy@Fawzyabuzeid.com
fawzyabuzeid@hotmail.com ,
fawzyabuzeid@yahoo.com

الجزء الأول

ملامح المنهج الصوفي

قال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله :

{ التصوف علمٌ تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية }

الْبَابُ الأَوْل
الْبِدَايَةُ الصُّوفِيَّة

١- تعريف التَّصُوُّف.

٢- نشأة علم التَّصُوُّف.

٣- أهمية التَّصُوف.

٤- الصُّحبة الصَّالحة

- أهميتها وفائدتها وآثارها.
- الدليل على أهمية الصحبة من كتاب الله.
- الدليل على أهمية الصحبة من الأحاديث الشريفة.
- أقوال الفقهاء والمحدثين في أهمية الصحبة وآدابها.
- أقوال العارفين بالله من رجال التَّصوُّف في فـــائدة الصحبة وآدابها

٥- السالك وقراءة كتب التَّصُوُّف.

٦- مؤلفات الصُّوفيَّة..

أحدث صورة علمية ثلاثيَّـة
الأبعاد للجنين في رحم
أمِّـه! .. من هنا البداية ...
أفَلا يَتَفَكَّرُون!

البِدَايةُ الصُّوفِيَّة

تَعْرِيفُ التَّصَوُّف

قال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى:

((التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية))

وقال ابن عجيبة رحمه الله:

((التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرزائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة)) ، فعماد التصوف تصفية القلب من أوحال المادة، وقوامه صلة الإنسان بالخالق العظيم، فالصوفي من صفا قلبه لله وصفت معاملته، فصفت له من الله تعالى كرامته.

ونحن إذ ندعو إلى التصوف إنما نقصد به تزكية النفوس وصفاء القلوب، وإصلاح الأخلاق، والوصول إلى مرتبة الإحسان، نحن نسمي ذلك تصوفا. وإن شئت فسمه الجانب الروحي في الإسلام، أو الجانب الإحساني، أو الجانب الأخلاقي، أو سمه ما شئت مما يتفق مع حقيقته وجوهره.

نشأة علم التَّصَوُّف

فالصحابة والتابعون – وإن لم يتسموا باسم المتصوفين – كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات،

وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات.(راجع تفصيل نشأة التصوف بكتابنا الصوفية فى القرآن والسنة).

أهمِّيةُ التَّصوُّف

إن التكاليف الشرعية التي أمر بها الإنسان في خاصة نفسه ترجع إلى قسمين:

أحكام تتعلق بالأحكام الظاهرة، وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة، أو بعبارة أخرى: أحكام تتعلق ببدن الإنسان وجسمه، وأعمال تتعلق بقلبه ، فالأعمال الجسمية نوعان: أوامر ونواه، فالأوامر الإلهية هي: كالصلاة والزكاة والحج ..وأما النواهي فهي: كالقتل والزنى والسرقة وشرب الخمر ...، وأما الأعمال القلبية فهي أيضاً: أوامر ونواهي، أما الأوامر: فكالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ... وكالإخلاص والرضا والصدق والخشوع والتوكل ، وأما النواهي: فالكفر والنفاق والكبر والعجب والرياء والغرور والحقد والحسد.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوجه اهتمام الصحابة لإصلاح قلوبهم، ويبين لهم أن صلاح الإنسان متوقف على إصلاح قلبه وشفائه من الأمراض الخفية والعلل الكامنة، وهو الذي يقول:

{، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً : إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ " } [1]

كما كان عليه الصلاة والسلام يعلمهم أن محل نظر الله لعباده إنما هو القلب:

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ } [2]

[1] رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن البشير عَنْ عَامِرٍ

فما دام صلاح الإنسان مربوطا بصلاح قلبه الذي هو مصدر أعماله الظاهرة، تعين عليه العمل على إصلاحه بتخليته من الصفات المذمومة التي نهانا الله عنها، وتحليته بالصفات الحسنة التي أمرنا الله بها.

قال الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله :((وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها، فقال الغزالي: إنها فرض عين)) ، فتنقية القلب، وتهذيب النفس، من أهم الفرائض العينية وأوجب الأوامر الإلهية، بدليل ما ورد في الكتاب والسنة وأقوال العلماء.

١- فمن الكتاب:قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ٣٣ الأعراف

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ١٥١الأنعام

والفواحش الباطنة كما قال المفسرون هي : الحقد والرياء والحسد والنفاق.

٢- ومن السنة: كل الأحاديث التي وردت في النهي عن الحقد والكبر والرياء والحسد، وأيضاً الأحاديث الآمرة بالتحلي بالأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة.

٣- وأما أقوال العلماء: لقد عد العلماء الأمراض القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة

يقول الفقيه الكبير العلامة ابن عابدين في حاشيته الشهيرة:

[٢] رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وتمامه " التَّقْوَى هَا هُنَا ، وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ "*

((إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين، ومثلها غيرها من آفات النفوس، كالكبر والشح والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمداهنة، والإستكبار عن الحق والمخادعة والقسوة وطول الأمل، ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات من "الإحياء" . قال فيه : ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجا إليه ، وإزالتها فرض عين، ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه))

ويقول صاحب "مراقي الفلاح" : ((لا تنفع الطهارة الظاهرة إلا مع الطهارة الباطنة، بالإخلاص، والنزاهة عن الغل والغش والحقد والحسد، وتطهير القلب عما سوى الله من الكونين، فيعبده لذاته لا لعلة، مفتقراً إليه، وهو يتفضل بالمنِّ بقضاء حوائجه المضطر إليها عطفاً عليه، فتكون عبداً فرداً للمالك الأحد الفرد، لا يسترقك شيء من الأشياء سواه، ولا يستملك هواك عن خدمتك إياه.))

قال الحسن البصري رحمه الله:

ربَّ مستور سبته شهوته   قد عرى من ستره وانهتكا
صاحب الشهوة عبداً فإذا   ملك الشهوة أضحى ملكا

فإذا أخلص لله، وبما كلَّفه به وارتضاه، قام فأداه، حفَّته العناية حيثما توجَّه ويَمَّم، وعلَّمه ما لم يكن يعلم .

فكما لا يحسن بالمرء أن يظهر أمام الناس بثياب ملطخة بالأقذار والأدران لا يليق به أن يترك قلبه مريضاً بالعلل الخفية، وهي محل نظر الله سبحانه وتعالى:

تطبِّب جسمك الفاني ليبقى   وتترك قلبك الباقي مريضاً

لأن الأمراض القلبية سبب بعد العبد عن الله تعالى، وبعده عن جنته الخالدة ، وقد تخفى على الإنسان بعض عيوب نفسه، وتدق عليه علل قلبه، فيعتقد في نفسه الكمال، وهو أبعد ما يكون عنه...!!

فما السبيل إلى اكتشاف أمراضه، والتعرف على دقائق علل قلبه ؟ ، وما الطريق العملي إلى معالجة هذه الأمراض ؟، والتخلص منها ؟

إن التصوف هو الذي اختص بمعالجة الأمراض القلبية، وتزكية النفس والتخلص من صفاتها الناقصة.

فالتصوف هو الذي اهتم بهذا الجانب القلبي بالإضافة إلى ما يقابله من العبادات البدنية والمالية، ورسم الطريق العملي الذي يوصل المسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخلقي.

وليس التصوف -كما يظن بعض الناس- قراءة اوراد وحلق أذكار فحسب.

فلقد غاب عن أذهان الكثيرين، أن التصوف منهج عملي كامل، يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة، وذلك من الناحية الإيمانية السليمة، والعبادة الخالصة، والمعاملة الصحيحة الحسنة، والأخلاق الفاضلة ، قال حجة الإسلام الإمام الغزالي بعد أن اختبر طريق التصوف، ولمس نتائجه، وذاق ثمرته: ((الدخول في الصوفية فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام))

وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

((من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر)).

وسبيل الصوفية إلى ذلك يتم أولاً عن طريق الصحبة الصالحة .

الصحبة الصالحة

١-أهميتها وفائدتها وآثارها

إن للصحبة أثراً عميقاً في شخصية المرء وأخلاقه وسلوكه، والصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر الروحي والإقتداء العملي، وما نال الصحابة رضوان الله عليهم هذا المقام السامي والدرجة الرفيعة بعد ان كانوا في ظلمات الجاهلية إلا بمصاحبتهم لرسول الله ﷺ ومجالستهم له، وما أحرز التابعون هذا الشرف العظيم إلا باجتماعهم بأصحاب رسول الله ﷺ.

إن لرسول الله ﷺ وراثاً من العلماء العارفين بالله تعالى، ورثوا عن نبيهم العلم والخلق والإيمان والتقوى، فكانوا خلفاء عنه في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الله، يقتبسون من نوره ليضيئوا للإنسانية طريق الحق والرشاد، فمن جالسهم سرى إليه من حالهم الذي اقتبسوه من رسول الله ﷺ ومن نصرهم فقد نصر الدين، ومن ربط حبله بحبالهم فقد اتصل برسول الله ﷺ ، ومن استقي من هدايتهم وإرشادهم فقد استقي من نبع رسول الله ﷺ.

وهؤلاء الوراث المرشدون، مرافقتهم هي العلاج العملي الفعَّال لإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، وغرس العقيدة، ورسوخ الإيمان، لأن هذه أمور لا تنال بقراءة الكتب، ومطالعة الكراريس، إنما هي خصال عملية وجدانية، تقتبس بالإقتداء، وتنال بالاستقاء القلبي والتأثر الروحي.

ومن ناحية أخرى فكل إنسان لا يخلو من أمراض قلبية، وعلل خفية لا يدركها بنفسه، كالرياء والنفاق والغرور والحسد، والأنانية وحب الشهرة والظهور، والعجب والكبر والبخل، فكما أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية، تكشف له عن حقيقة حاله، فكذلك لا بد للمؤمن من أخ مؤمن مخلص ناصح صادق، أحسن منه

حالاً، وأقوم خلقاً، وأقوى ايماناً، يصاحبه ويلازمه، فيريه عيوبه النفسية، ويكشف له عن خفايا أمراضه القلبية إما بقاله أو بحاله ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

{ الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ } [3]

فالطريق العملي الموصل لتزكية النفوس والتحلي بالكمالات الخلقية هو صحبة الوارث المحمدي والمرشد الصادق الذي تزداد بصحبته إيماناً وتقوى وأخلاقاً، وتشفى بملازمته وحضور مجالسه من أمراضك القلبية وعيوبك النفسية، وتتأثر شخصيتك بشخصيته التي هي صورة عن الشخصية المثالية، شخصية رسول الله ﷺ.

٢-الدليل على اهمية الصحبة من كتاب الله

- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ١١٩التوبة.
- قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ﴾ ١٥لقمان، أناب:رجع

٣-الدليل على أهمية الصحبة من الأحاديث الشريفة

قال رسول الله ﷺ:

{" مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً} [4] ،

[3] رواه أبو داوود عن أبي هريرة، ورواه البخاري في الأدب المفرد

[4] عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، صحيح البخاري ومسلم. (أن يحذيك :"يعطيك"، رِيحًا خَبِيثَةً :ريحاً منتنة)

عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ ، قَالَ: – وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وَمَا ذَاكَ؟ " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ ، نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً " ثَلاثَ مَرَّاتٍ * صحيح مسلم.

حديث حنظلة يظهر بوضوح كيف كانت مجالسة رسول الله ﷺ تشع في القلوب أنوار اليقين، وتزكي في النفوس جذوة الإيمان، وترتفع بالأرواح إلى مستوى ملائكي أقدس، وتطهر القلوب من أدران المادة، وتسمو بالإيمان إلى مستوى المراقبة والشهود.

وهكذا مجالسة وراث رسول الله ﷺ وصحبتهم، تزكي النفوس، وتزيد الإيمان، وتوقظ القلوب وتذكر بالله تعالى. والبعد عنهم يورث الغفلة، وانشغال القلب بالدنيا وميله إلى متع الحياة الزائلة.

٤-أقوال الفقهاء والمحدثين في أهمية الصحبة وآدابها

الطيبي صاحب "حاشية الكشاف" :

قال الطيبي: (لا ينبغي للعالم- ولو تبحر في العلم حتى صار واحداً من أهل زمانه، أن يقتنع بما علمه، إنما الواجب عليه الإجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الطريق المستقيم، حتى يكون ممن يحدثهم الحق في سرائرهم من شدة صفاء باطنهم، ويخلص من الأدناس، وأن يجتنب ما شاب علمه من كدورات الهوى وحظوظ نفسه الأمارة بالسوء، حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه، والإقتباس من مشكاة أنوار النبوة، ولا يتيسر ذلك عادة إلا على يد شيخ كامل عالم بعلاج أمراض النفوس، وتطهيرها من النجاسات المعنوية، وحكمة معاملاتها علماً وذوقاً، ليخرجه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء ودسائسها الخفية.

٥-أقوال العارفين بالله من رجال التصوف في فائدة الصحبة وآدابها

أبو حامد الغزالي

قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: ((الدخول مع الصوفية فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم السلام))

وقال رحمه الله:

((كنت في مبدأ أمري منكر لأحوال الصالحين، ومقامات العارفين، حتى صحبت شيخي "يوسف النساج" فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات.

فرأيت الله تعالى في المنام، فقال لي: يا أبا حامد، دع شواغلك، واصحب أقواماً جعلتهم في أرضي محل نظري، وهم اللذين باعوا الدارين بحبي، قلت: بعزتك إلا أذقتني حسن الظن بهم، قال: قد فعلت، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا، فاخرج

منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً، فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسي، فاستيقظت فرحاً مسروراً وجئت إلى شيخي يوسف النساج فقصصت عليه المنام، فتبسم وقال: يا أبا حامد هذه ألواحنا في البداية، بل إن صحبتني ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد ...))

وقال أيضاً: ((مما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومرب ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة.

ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجراً أو نباتاً مضراً بالزرع قلعه وطرحه خارجاً، ويسقي الزرع مراراً إلى أن ينمو ويتربى، ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت ان الزرع محتاج للمربي، علمت أنه لا بد للسالك من مرشد البتة، لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلاً لهم، ويرشدونهم إلى الطريق المستقيم، وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نواباً عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة، فالسالك لا يستغني عن المرشد البتة)).

ابن عطاء الله السكندري

يقول ابن عطاء الله السكندري ﷺ: ((وينبغي لمن عزم على الرشاد، أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينتهي عما نهي عنه وزجره))، وقال أيضا:

((ليس شيخك من سمعت منه، وإنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك من سرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، وإنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك الذي واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله.

شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي مازال يجلو مرآة قلبك، حتى تجلت فيك أنوار ربك، أنهضك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، وما زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك)).

وقال أيضاً: ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم من غير شيخ يسير بالطالب فيها لما احتاج مثل حجة الإسلام الإمام الغزالي والشيخ عز الدين بن عبدالسلام أخذ أدبهما عن شيخ مع أنهما كانا يقولان قبل دخولهما طريق القوم: كل من قال إن ثم طريقاً للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله عز وجل، فلما دخلا طريق القوم كانا يقولان: قد ضيعنا عمرنا في البطالة والحجاب، واثبتا طريق القوم ومدحاها، ثم قال: وكفى شرفاً لأهل الطريق قول سيدنا موسى عليه السلام للخضر: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف]

واعتراف الإمام أحمد بن حنبل ﷺ وأرضاه لأبي حمزة البغدادي بالفضل عليه، واعتراف الإمام أحمد بن سريج رحمه الله لأبي القاسم الجنيد، وطلب الإمام الغزالي له شيخاً يدله على الطريق مع كونه كان حجة الإسلام، وكذلك طلب الشيخ عز الدين بن عبدالسلام له شيخاً مع أنه لقب بسلطان العلماء ... وكان ﷺ يقول: ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ وأرضاه ، فإذا كان هذان الشيخان قد احتاجا إلى الشيخ مع سعة علمهما بالشريعة فغيرهما من أمثالنا من باب أولى)).

السالك وقراءة كتب التصوف

السالك الذي يريد وجه الله تعالى، وتحقيق العبودية المحضة لله، تنتابه الحيرة، حين يريد مطالعة كتب التصوف، فإذا كان تحت تربية شيخ عارف، فلا حيرة، لأنه لا يفعل

شيئاً إلا بإذن الشيخ وإذا لم يجد شيخاً، أو كان شيخه من المتمصوفة الجهلة، لجأ إلى مطالعة كتب العارفين بالله.

وأهل الله لا يطلبون من المريد إلا أداء الفرائض والنوافل والتمسك بالكتاب والسنة، ولا يشغلون المريد في البداية بكثرة مطالعة كتب التصوف، لكن إذا وجد مريد رغبة في مطالعة الكتب فليعمل بنصائح العارفين في هذا الشأن، ونذكر له قول الإمام السهروردي صاحب كتاب عوارف المعارف، ليعمل به، يقول الإمام السهروردي:

((من الأدب في المطالعة أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلم، يعلم أنه قد تكون المطالعة بداعية النفس، وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل، فتتروح بالمطالعة كما تتروح بمطالعة الناس، فليتفقد المريد نفسه، ولا يستحلي مطالعة الكتب، وعليه بالتثبت والإنابة والرجوع إلى الله تعالى، فإنه قد يرزق بالمطالعة ما يكون من مزيد حاله)).

يقول الشيخ أبو سعيد الميهني (توفى ٥٤٤) في بداية تصوفي، عندما فتح الله علي، كانت لدي كتب كثيرة، قرأتها جميعاً، ولكني لم أحصل على ما كنت أصبو إليه، فدعوت الله قائلاً : يا إلهي إن الأمر لم ينكشف لي بقراءة الكتب، وما أزال عاجزاً عن الوصول إليك، فاجعلني اللهم مستغنياً بشيء أجدك فيه، فتفضل الله علي وقرأت تفسير الحقائق وهو من أقدم التفاسير الإشارية للقرآن الكريم، ويسمى (حقائق التفسير) لأبي عبدالرحمن السلمي، وأخذت أقرأ القرآن حتى وصلت إلى قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ الأنعام، وهنا وضعت الكتاب، وكلما حاولت أن أتقدم في القراءة لم أستطع ... وقام الشيخ بدفن كتبه في التراب، وكان يقول: نعم الدليل أنت والإشتغال بالدليل بعد الوصول محال .

وحدث هذا الأمر للإمام عبدالوهاب الشعراني، حيث أمره شيخه (سيدى علي

الخواص) ببيع كتبه، والتصدق بثمنها في بداية سلوكه معه ، وقال الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) : ابتدأت بتحصيل علم الصوفية، من مطالعة كتبهم، فظهر لي أن خواص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات.أنتهى.

من كل ما سبق يتضح لنا، أن الوصول إلى المعرفة الصوفية، والسلوك الحقيقي، وكل ما يهم السالك لا يمكن تحصيله من مطالعة الكتب فقط، بل بالمجاهدة تحت تربية شيخ عارف، وإذا عكف السالك على مطالعة الكتب، دون صحبة الشيخ، فلن يصل إلى شيء.

مُؤلفَاتُ الصُّوفيَّة

يقول ابن عطاء الله السكندري في كتابه (الحكم) مشيراً إلى كلام الصوفية: ((عبارتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد، والأول حال السالكين، والثاني حال أرباب التمكين والمحققين)) أنتهى.

فقلوب أهل الله بها من الأسرار، ما لا تطيقه عقول عامة الناس، وهم أمناء على هذه الأسرار لا يطلعون عليها إلا من رأوه أهلاً لها، إلا من كان مغلوباً لم يتمكن من حاله، فإذا غلب عليه الوجد فاض ولم يشعر، وإذا عاد إلى نفسه ندم واستغفر.

أما أهل التمكين، فإنهم لا يتكلمون إلا لهداية مريد، وتربية سالك، وترقية سائر، أما لغير هؤلاء فلا، فإن غير السالك دون غلبه كان في ذلك نوع من الدعوى، وإن غير العارف من غير قصد هداية، كان ذلك إفشاء لأسرار الربوبية، وهناك أسباب أخرى للتأليف الصوفي مثل التحدث بنعمة الله على العارف فيذكرها في كتاب اعترافاً بفضل الله عليه، أو تصنيف الكتب لاختلاف أحوال الزمان، وظروف السالكين، أو اختصار بعض كتب التراث الضخمة، أو جمع أقوال العارفين في موضوع واحد.

وهذا حال الصوفية في مؤلفاتهم، لا يدونون إلا الجديد، الذي أفاضه الله تعالى على قلوبهم، وإن وجد أحدهم من قام غيره بذلك، كف عن التأليف.

وعلى القارئ والدارس والمحقق والمؤلف لعلوم التصوف، أن يجعل هذه القاعدة أساس بنائه، فلا يقرأ الإنسان إلا ما يقربه من الله تعالى.

وعلى الدارس أن يعتني بدراسة ما يعود عليه وعلى القارئ بفائدة ترضي الله، ولا يدور في متاهات وغياهب لا تعود بثمرة طيبة، والعمر قصير، والوقت ثمين، والأنفاس معدودة، والخطوات محدودة، والكتابة لغير وجه الله مردودة.

وقد ذكر لنا الأستاذ مُحَمَّد زكي إبراهيم، طائفة عارفة من أهل الله جمعوا بين السلوك الصوفي، والريادة والزعامة في الحياة الدنيا، ونحن في أشد الحاجة إلى من يقوم بتقديم دراسة وافية عن حياتهم الصوفية، وجهادهم، ليكونوا قدوة لشبابنا البائس الضائع المنكوب، والذين كاد الإعلام بجميع فروعه أن يقضي عليهم تماماً.

من هؤلاء :

أهل البيت، والإمام أسد بن الفرات فاتح صقلية، والأمير عبدالقادر الجزائري الشاذلي، والسلطان عبدالحميد الشاذلي وموقفه أمام تهويد فلسطين، والإمام عبدالكريم الخطابي الشاذلي ومواقفه الكبرى بجيوشه أمام فرنسا بالمغرب، والإمام المبشر الطرازي مفتي آسيا النقشبندي، وجهاده ضد الشيوعية، والشهيد عمر المختار الصوفي وجهاده ضد إيطاليا بأرض ليبيا، وأحمد عرابي الصوفي الشاذلي وموقفه ضد الإنجليز، والسيد نور الدين المجددي النقشبندي وتحريره بدراويشه النقشبندية الأفغان من الإنجليز، والشيخ الصوفي النقشبندي شامل بوسني ثم الشيشاني، ومُحَمَّد علي جناح مؤسس باكستان الصوفي القادري، والشيخ مُحَمَّد عليش، والشيخ أبو عليان الصعيدي، وغيرهم، فهذه مجرد نماذج من رجال التصوف في دنيا المسلمين.

الْبَابُ الثَّانِى

مَعَالِمُ الْمَنْهَجِ الِصُّوفِىّ

١- الصُّوفيَّة الحقَّة

٢- الصُّوفيَّة والصفاء

٣- الصُّوفيَّة والشَّريعة الإسلاميَّة

٤- إقتداء الصُّوفيــَّة بأحــوال الصحابة الكرام

٥- المعرفة الذَّوقيَّة عند الصُّوفيَّة

٦- طريق البصيرة

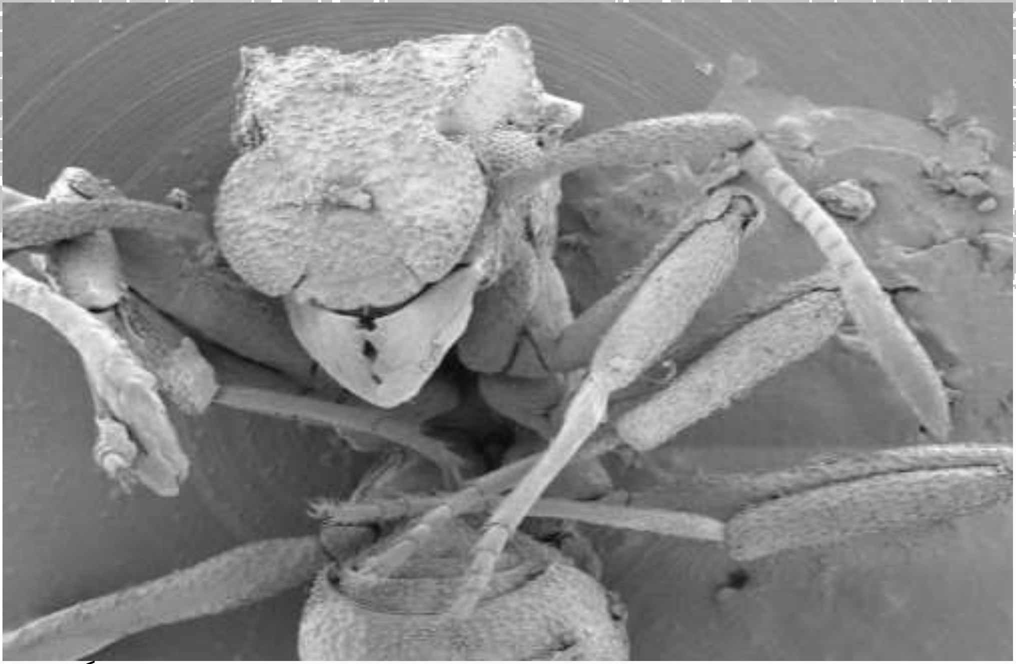

أعلى: هذه ليست صورة وحش خيالى ، وإنما صورة نملة مكبَّرة، عرضها واحد مللم فقط، أسفل:صورة فكى نملة مكبرة ٦٠٠مرة

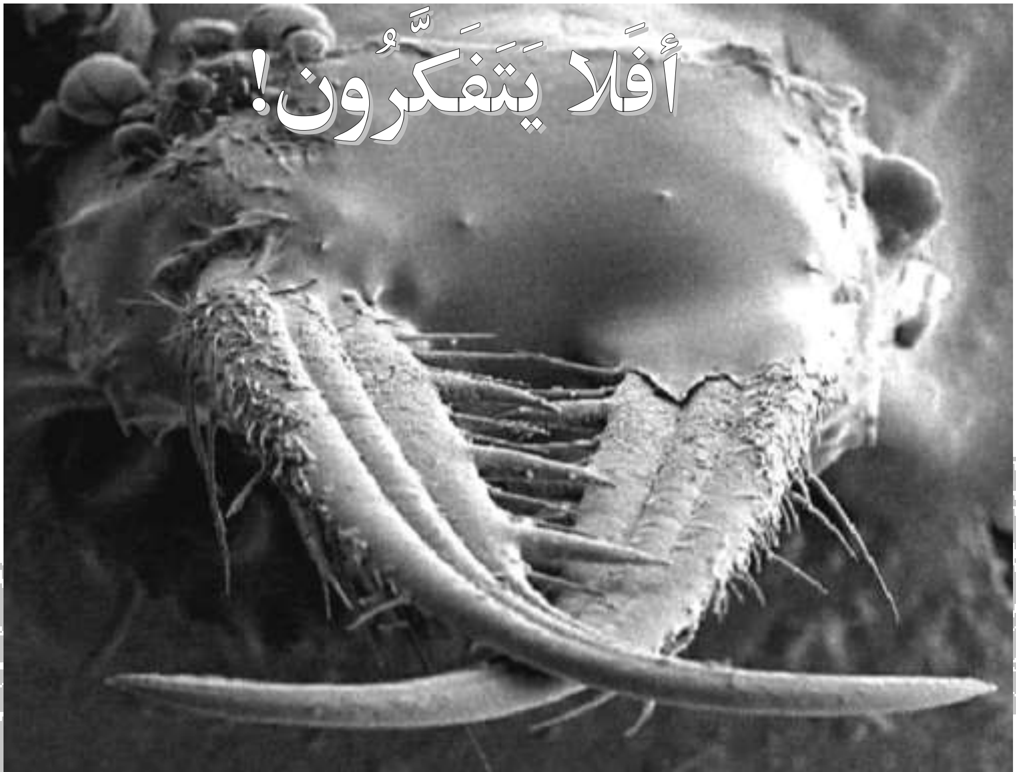

الْبَابُ الثَّانِى

مَعَالِمُ الْمَنْهَجِ الصُّوفِىّ

٧- الصُّوفيَّة الحقَّة

وفي الحقيقة نجد أن المنكرين على الصوفية يرجع سبب إنكارهم إلى :

- الجهل بما عليه أهل الطريق، وعدم المعرفة الصحيحة بأحواله.

- أو إلى حقد دفين عند البعض على الصوفية بسبب التفاف الناس حولهم، ومحبة القلوب لهم.

- وقد يكون مرد ذلك إلى خلط البعض بين الصوفية الحقيقيين والأدعياء .

- وهناك من يكره التسمية بالصوفية وبالتالي يكره كل شئ ينسب لها أو إليها بدون أن يكلف نفسه عناء البحث أو الإطلاع على أحوالهم.

وعن هؤلاء يقول الأستاذ سعيد حوي في كتابه ((تربيتنا الروحية)) صـ ١٣ :

((وإني لأظن أن أكثر ما يذهب الإنكار عليّ فيه في هذه السلسلة هو قضية الاسم فهناك ناس لا يطيقون أن يسمعوا اسم تصوف وصوفية.

ولهؤلاء أقول على رسلكم فهذا التاريخ بيني وبينكم، إنه لم ينكر خلال العصور اسم التصوف أحد من الناس لأنه اصطلاح على علم كعلم النحو والبديع والمعاني والفقه وغير ذلك، ولا مشاحة في الاصطلاح -كما يقول العلماء - وحتى في عصرنا هذه فتاوي ابن تيمية خرج منها مجلدان تحت اسم التصوف والأخلاق ولم أر على ذلك

منكراً. فأرجو التأني في الإنكار على قضية لا مبرر للإنكار فيها أصلاً، إذ ما مبرر الإنكار على اسم مباح أطلق على علم من العلوم حتى أصبح علماً عليه فإذا تجاوزوا هذه النقطة، وينبغي تجاوزها، فإن المضمون هو الذي ينبغي أن يكون محل النقاش، فليكن همنا هو الوصول إلى الحق في المضمون بدلاً من مناقشة في جانب لا يترتب على النقاش فيه أي طائل)).

ثم ذكر أن بعض أبناء الحركة الإسلامية المعاصرة اعتمدوا التربية الصوفية فكراً وسلوكاً ومن ذلك دعوة الإخوان المسلمين فقال في نفس المرجع السابق صـ ١٧ :

((فقد ذكر الأستاذ البنا في رسالة التعاليم كيف أن مرحلة من المراحل في دعوته طابعها صوفي من جانب، وذكر مثلاً في رسالة المؤتمر الخامس أن من خصائص دعوته أنها حقيقة صوفية وترك في مذكراته لمريد التربية الخاصة الحرية في أن يسلك طريق ذلك وذكر ذلك في معرض الكلام عن موقفه من التصوف)).

وذكر الأسباب التي من أجلها جعل حسن البنا دعوته صوفية فقال: صـ٢٠ من نفس المرجع: ((ولم يكن حسن البنا رحمه الله مخطئاً عندما جعل من سمات دعوته أنها حقيقة صوفية لأمور:

أ- لأن التصوف نزعة أصيلة في النفس البشرية فلابد أن تكون جزءاً من أي دعوة راشدة.

ب- لأنه ليس هناك خيار في الرفض المطلق للإرث الصوفي.

ج- أنه بدون الإستفادة من التجربة الصوفية؛ قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس البشرية التي عقَّدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر))..

ثم يصل إلى نتيجة بحثه في التربية الروحية فيقول في نفس المرجع صـ ٢٠: ((وإنني أعتبر أن نقطة البداية في صحة أمتنا في وجود طبقة من الوراث الكاملين يغطون

احتياجات الدعوة بما يسع الأمة. اعتبر ذلك هو الخطوة التي لابد منها وأي فشل في ذلك إنما هو فشل في الصميم، ولا وراثة إلا إذا اجتمع علم وعمل وحال قلبي، لقد جربت كثيراً ورأيت كثيراً، ونادراً ما وجدت كمالاً في النفس أو إحساناً في السلوك أو قدرة على التعامل إلا إذا وجدت تربية إسلامية صوفية صافية.

وذلك لأن مفاتيح النفس البشرية:

إنما هي في هذه التربية وأصولها وقواعدها، لأن الصوفية هم الذين ورثوا عن رسول الله ﷺ تربية النفس وتزكيتها، وتخصصوا لذلك وتفرغوا له، وفطنوا لما لم يفطن له غيرهم، وقامت لهم فيه أسواق من التجارب الثرية في كل عصر فما لم يأخذ الإنسان عنهم تبقى نفسه بعيدة عن الحال النبوية.

إن أهل التصوف الحق هم الذين ملكوا العلم الذي تتهذب به النفوس البشرية.

إن التصوف والبيئات الصوفية هي القادرة على إيجاد الإنسان في كمالاته كلها، الإنسان الذي يقوم بفرائض العبودية لله، والإنسان الذي يقدم أعظم العطاء في باب التعامل مع الآخرين، فيقوم بذلك مجتمع كله أدب وكله تراحم وكله عطف وكله مودة وكله إيثار وكله لطف)) انتهى.

ويقول عن ذلك أيضاً الدكتور حسن الأشموني في كتابه : (التعبئة الروحية في بناء المجتمع) : ... ((نحن لا نجانب الصدق إن قلنا: إن التصوف يستطيع أن يكون قوة دفع تخدم جميع أهداف المجتمع حتى المادية منها، فليس من شك في أن بناء المجتمع بناء قوياً متيناً عزيز الجانب يرجع إلى مدى ما يكون لأفراده من صفاء النفوس ومتانة الخلق واستعداد للتضحية وإنكار الذات، وهي كلها صفات يتصف بها الصوفية ويأخذون أنفسهم بها ويروضون مريديهم عليها، وماذا تستطيع الحياة الروحية أن تسلك طريقها إلى المشاركة في مطالب الحياة اليومية فتؤدي إلى تدعيم أركان المجتمع وتحقيق خيره)).

ونحن حينما نتكلم عن التصوف، لا نقصد التصوف الذي شاع منذ عصر المماليك في مصر والشام والذي كان أهم مظاهره الشعبذة والصياح، والخروج بالمواكب والأعلام في الطرق واللعب بالثعابين، وابتلاع النيران، ولكننا نتكلم عن الصوفية الذين اتخذوا العبادة شعاراً للتصوف، ولم يتخذوها للشعبذة واستدرار أموال الناس، أو العبث بالعوام، وحشو الأمة.

فقد ظهر التصوف قوياً في القرون الأولى حتى القرن السابع الهجري، وبعد ذلك أخذت الشكليات تطغى على الجوهر، فالجوهر كان قائماً مع الأشكال في القرون الأولى، وبه كانت الدعوات الدينية المخلصة، واستمر الجوهر قائماً إلى اليوم، وإن اختفى وراء المظاهر وهذا ما نسعى لإحيائه فحديثنا إذا عن الصوفية الذين حملوا الدعوة الإسلامية، وليس الذين اتخذوها أشكالاً ومظاهر، وهم الصفوة المختارة الذين صفت نفوسهم وربّوا مريديهم وتلاميذهم على الخير والعمل كالشيخ عبد القادر الجيلاني، وأبو الحسن الشاذلي، وأبو العباس المرسي، ابن عطاء الله السكندري، والشيخ أحمد التجاني، والسيد مُحَمَّد بن علي السنوسي،والإمام أبي العزائم، وغيرهم ممن كان لهم مقام عال في الدعوة إلى الإسلام.

فالصوفية الذين نتحدث عنهم هم الذين عرفهم السيد محمود أبو الفيض المنوفي في كتابه (المدخل إلى التصوف) بقوله: ((المتصوفة هم المجتمعة على الله هممهم، المتعلقة بعظمته وحكمته ألبابهم، الذين لا تشهد سوى الله أسرارهم، وليس إلا إليه غدوهم ورواحهم، فهم أحكم الناس وأعقلهم، وأقرب الخلق إلى الحق وأكرمهم، لأنهم أتقاهم)).

ووضح منهجهم السراج في كتابه ((اللمع)) حيث قال: ((إنهم علماء قاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا في العمل، فجمعوا بذلك بين العلم والحقيقة والعمل)) ، والتصوف الذي نريده هو الذي يقول فيه الشبلي: ((التصوف هو التآلف والتعاطف))

، ويقول عنه الجنيد: ((التصوف العلو إلى كل خلق شريف والعدول عن كل خلق دنئ)).

وهو التصوف الذى يشير إلى كمالاته سهل بن عبد الله التستري في قوله: ((من أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله لا صادقين ولا كاذبين، ولا يُغتاب عندهم، ولا يشبعون بطونهم، وإذا وعدوا لم يخلفوا، ولا يمزحون أصلاً)) ، ويشير أيضاً إلى أصوله فيقول: ((أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق)).

وقال عنه النووي: ((التصوف الحرية والكرم، وترك التكلف، والسخاء)) وقال أيضاً: ((ليس التصوف رسماً ولا علماً ولكنه خلق، لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله)) .

وجمع ذو النون أوصافهم فقال: ((الصوفية قوم آثروا الله على كل شئ، فآثرهم الله عز وجل على كل شئ)) ، أما سلوكهم فيكفي فيه قول حاتم الأصم: ((إذا أمرت الناس بالخير فكن أنت أولى به وأحق، واعمل بما تأمر وانتهي عما تنهي)).

وقول أبو سليمان الداراني: ((ربما تنكت الحقيقة قلبي أربعين يوماً، فلا آذن لها أن تدخل قلبي إلا بشاهدين من الكتاب والسنة)) وأما آيات صدقهم فهي في قول ذي النون المصري: ((آية معرفة الله ثلاث: أولها؛ لا يطفئ نور معرفة الله نور ورعه، وثانيهما؛ لا يتكلم بباطن في علم ينقضه ظاهر الكتاب والسنة، وثالثها؛ لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله)).

وقد وصفهم الغزالي بعد سلوكه لطريقهم فقال في كتابه: (المنقذ من الضلال) :

((إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل

العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة:

طهارتها – وهي أول شروطها – : تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها – الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة – : استغراق القلب بالكلية بذكر الله. وآخرها: الفناء بالكلية في الله.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه.

وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. وقد بينا وجه الخطأ في كتاب ((المقصد الأسني)) بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول: وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر))، انتهى

وما أجمل الوصف الذي حكاه عنهم ذو النون المصري حيث يقول:

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام،
فقلت لها: من أين أقبلت رحمك الله؟
قالت: من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.
قلت: وأين تريدين؟
قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.
قلت: صفيهم لي، فأنشأت تقول:

قوم همومهم بالله قد علقت — فما لهم همم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم — يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف — من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق — ولا لروح سرور حلّ في بلد
إلا مسارعة في أثر منزلة — قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران و أودية — وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد

٨-الصُّوفيَّة والصفاء

إن بغية الواصلين، ومنتهى رغبة العارفين، وأمل كل المؤمنين هو الوصول إلى مقام يتم لهم فيه القرب من رب العالمين عَزَّ وَجَلَّ، وقد عبرّ عن ذلك الحلاج رضي الله عنه لحظة قتله حيث قال:

الله يعلم أن الروح قد تلفت — شوقاً إليك ولكني أمنّيها
ونظرة منك يا سؤلي ويأملي — أشهى إلي من الدنيا وما فيها
يا قوم إني غريب في دياركموا — سلّمت روحي إليكم فإحكموا فيها
ما أسلم النفس للأسقام تتلفها — إلا لعلمي بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صـابرة — لعل مسـقمها يوماً يداويها

ولا يتم القرب من حضرة القريب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا بتحقيق الصفاء: .... حيث يقوم المريد بمجاهدة نفسه لمحو صفاتها المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فإذا حصل ذلك ...... كان الله هو المتولي لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم؛ وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية.

فليس على العبد إلا الإستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة، مع الإرادة الصادقة، والتعطش التام، والترصد بدوام الانتظار، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة، والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا، والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فمن كان لله، كان الله له.

والطريق إلى ذلك يكون:

- بانقطاع علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منها.
- وبقطع الهمة على الأهل، والمال، والولد، والبلد، وعن العلم والولاية والجاه.
- بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شئ وعدمه.
- ثم يقبل على ذكر الله عز وجل بلسانه على الدوام مع حضور القلب، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان، ويرى كأن الذكر جارياً على لسانه، ثم يصبر على الذكر إلى أن يمحي أثره عن اللسان، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر.
- ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه، حاضراً فيه، كأنه لازم له، لا يفارقه.
- وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله متعرضاً لنفحات رحمة الله، فلا يبقى إلا الإنتظار، لما لله من الرحمة، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق.
- وعند ذلك إذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا، تلمع لوامع الحق في قلبه.

وهذا ما عناه أبو سعيد الخراز حين سئل عن الصوفي فقال:

((من صفّى ربّه قلبه، فإمتلأ قلبه نوراً، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله)).

وأشار إليه الكتاني في قوله: ((التصوف: صفاء ومشاهدة)).

وقد آثر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ﷺ هذا التعريف على غيره في حديثه عن التصوف وعلل ذلك بقوله في كتابه: ((قضية التصوف)) ص ٤٣ : ((وإذا نظرنا إلى تعريف ((الكتاني)) فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللذان– فيما نرى– يكونان– في وحدة متكاملة– تعريف التصوف ، أحدهما: ((وسيلة))، والثاني: ((غاية)) أما الوسيلة: فهي ((الصفاء))، وأما الغاية: فهي ((المشاهدة)).

والتصوف من هذا التعريف طريق، وغاية. وطريقه يتضمن نواحي كثيرة تشير إليها تسميته نفسها، ولعل ذلك من الأسرار التي كانت السبب في هذه التسمية، وإتخاذها عنواناً على هذه الطائفة.

لقد قال جماعة: إنما سميت ((صوفية)) لصفاء أسرارها ونقاء أثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله.

وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته، وصفت له من الله عز وجل كرامته، وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة ((الصوفية)) إنما تشير إلى الصفاء، وهذه الإشارة لا تخضع لمقاييس اللغة، ومادامت إشارة فإنه من التعسف أن يجادل إنسان في أمر إنسجامها مع اللغة، وعدم إنسجامها.

ويقول قوم إنهم إنما سموا: ((صوفية)) لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصف: أي إلى الصف الأول في العمل على الوصول إلى الله والجهاد في سبيله.

أما إشارة الكلمة إلى ((أهل الصفة))، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، إنما تشير إلى أوصافهم من العبادة، والتهجد، وعدم الطمع في الدنيا، واستعدادهم الدائم للجهاد في سبيل الله، وتشير الكلمة للصفِّة: أي الصفة الكريمة، التي لا يتعلق فيها القلب بالمادة وإنما يتعلق بالله تعالى.

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل، على أن هذه الوسائل التي تشير إليها الكلمة لها وسائل أخر، هذه الوسائل الأخر منها ما يعبرون عنه بقولهم: ((لا يَمْلك ولا يُملك)). ويعنون بذلك أنه لا يسترقه الطمع.

وهذه الكلمة لها مدلول واسع هو أن يتحرر الإنسان من الدنيا، حتى ولو ملكها عريضة طويلة، يتحرر من الجاه، من الانغماس في الملذات، من الجري وراء المال، من حب السلطان، من حب الترف، من الصفات التي تتنافى مع الفضيلة.

وخاتمة المطاف في هذه الوسائل: أنها تؤدي إلى الصفاء، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة، فيجود الله عليه بها، إن شاء، هذه المشاهدة هي أسمى درجات المعرفة، وهي الغاية النهائية التي يسعى ورائها ذوو الشعور المرهف، والفطر الملائكية، والشخصيات الربانية، فالتصوف إذن معرفة– أسمى درجات المعرفة بعد النبوة– إنه مشاهدة وهو طريقة إلى المشاهدة)) إنتهى.

ثم يزيد المسألة إيضاحاً فيقول ص ٤٦ من نفس المرجع: ((والمشاهدة التي هي الغاية للصوفية هي أيضاً تحقيق واقعي للتعبير، الذي ننطق به في كل آونة تحدث حينما نقول: أشهد أن لا إله إلا الله فالشهادة هي غاية الصوفي، هو إنما يسعى جاهداً إليها بشتى الوسائل ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولاً أو ما يقول حروفاً.

وما من شك في أن تعاريف التصوف الكثيرة التي نجدها منثورة هنا وهناك، والتي تكاد تبلغ الألف إنما تعبر في أغلب الأحايين عن زاوية من زوايا التصوف، تتصل بالوسيلة، أو تتصل بالغاية، فلا يمكن أن يقال عنها إذا ما كانت كذلك، إنها خطأ تام

ولكن الخطأ إنما هو في أخذها، على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة، أما الذى يعبر عن الحقيقة الكاملة فإنما هو تعريف ((الكتاني)) التصوف (صفاء ومشاهدة))) إنتهى.

وقد إنتهى إلى ذلك أيضاً السهروردي في كتابه عوارف المعارف في نهاية الفصل المعنون: ((ماهية التصوف)) حيث يقول: ((وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف، ويطول نقلها، ونذكر ضابطاً يجمع جُلّ معانيها فإن الألفاظ- وإن اختلفت- متقاربة المعاني، فنقول:

الصوفي: هو الذي يكون دائم التصفية، لا يزال يصفي الأوقات، عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس.

ويعينه على هذه التصفية، دوام إفتقاره إلى مولاه، فبدوام الإفتقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس، وظهرت صفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفر منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته، وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى:

﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾

وهذه القوامية لله على النفس هي التحقق بالتصوف.

قال بعضهم:

((التصوف كل إضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف))، والسر فيه: أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية، يعني أن روح الصوفي منطقة منجذبة إلى مواطن القرب، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وإنقلاب على عقبها، ولا بد للصوفي من دوام الحركة، بدوام الإفتقار، ودوام الفرار وحسن التفقد لمواضع إصابات النفس.

ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى الصوفي جمع المتفرق في الإشارات))، وهكذا نجد أن تجارب الصالحين، منذ عصور متطاولة، دلت على أن تزكية النفس

وتطهيرها، والإلتجاء إلى الله، والتقرَّب إليه، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات، ومعرفة لا تتأتى لذوي النفوس المادية، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، وبالمادة عن الله.

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى، قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة، لا بالمكان والمسافة، ومراقى هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى، ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه وسلوكه، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل، فأما ما بين يديه، فلا يحيط بحقيقته علماً.

وكما لا يعرف الجنين حال الطفل، ولا الطفل حال المميز، وما يفتح له من العلوم الضرورية، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية، فكذلك لا يعرف العاقل ما أفتتح الله على أولياؤه من مزايا لطفه ورحمته: ((ما يفتح الله للناس من رحمة، فلا ممسك لها)) وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم، من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قالَ ﷺ :

{ إِنَّ لِرَبكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لَهَا لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيبَكُمْ نَفْحَةً مِنْهَا فَلاَ تَشْقَوْنَ بَعْدَهَا أَبَداً ء} [٥]

والتعرض لها بتطهير القلب، وتزكيته من الخبث والكدوره، الحاصلة من الأخلاق المذمومة، فقد أوحى الله إلى سيدنا موسى :

((إِنِّي خَلَقْتُ فِي جَوْفِ عَبْدِي بَيْتَاً وَسَمَّيْتُهُ قَلْبَاً، وَجَعَلْتُ أَرْضَهُ الْمَعْرِفَةَ، وَسَمَاءَهَ الإيمَانَ، وَشَمْسَهُ الشَّوْقَ، وَعِمَدَهُ الْمَحَبَّةَ، وَتَرَابَهُ

[٥] عن محمَّد بن مسلمة رضيَ اللَّهُ عنهُ .

الْهِمَّةَ، وَرَعْدَهُ الْخَوْفَ، وَبَرْقَهُ الرَّجَاءَ، وَغَمَامَهُ الْفَضْلَ، وَمَطَرَهُ الرَّحْمَةَ، وَشَجَرَهُ الْوَفَاءَ، وَثَمَرَهُ الْحِكْمَةَ، وَنُورَهُ الْفِرَاسَةَ، وَلَيْلَهُ الْمَعْصِيَةَ، وَلَهُ بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ، وَبَابٌ مِنَ الْحِلْمِ، وَ بَابٌ مِنَ الْيَقِينِ، وَلَهُ رُكْنٌ مِنَ الأُنْسِ، وَرُكْنٌ مِنَ التَّوَكُلِ، وَرُكُنٌ مِنَ الصِّدْقِ، وَرُكْنٌ مِنَ الْوَرَعِ، وَعَلَيْهِ قِفْلٌ مِنَ الْفِكْرِ، وَلا يَطَّلِعُ عَلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ غَيْرِي)).

وقال سيدنا داود: يَا رَبُّ إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ خِزَانَةٌ، فَمَا خِزَانَتُكَ؟ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: ((يَا دَاود، إِنَّ لِي خِزَانَةٌ أَعْظَمُ مِنَ الْعَرْشِ، وَأَوْسَعُ مِنِ الْكُرْسِي، وَأَطْيَبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَنُورُ مِنَ الشَّمْسِ، ذَلِكَ هُوَ قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِن))

فمن انكشف له شئ، ولو الشئ اليسير، بطريق الإلهام والوقوع في القلب، من حيث لا يدري، فقد صار عارفاً بصحة الطريق.

وأمثال هؤلاء الأصفياء هم الذين يقول عنهم التستري رضي الله عنه [٦]:

" قَالَ اللَّهُ لآدَمَ : يَا آدَمُ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا، فَمَنْ رَجَا غَيْرَ فَضْلِي وَخَافَ غَيْرَ عَدْلِي لَمْ يَعْرِفْنِي ، يَا آدَمُ إِنَّ لِي صَفْوَةً وَضَنَائِنَ وَخِيرَةً مِنْ عِبَادِي ، أَسْكَنْتُهُمْ صُلْبَكَ ، بِعَيْنِي مِنْ بَيْنِ خَلْقِي ؛ أُعِزُّهُمْ بِعِزِّي ، وَأُقَرِّبُهُمْ مِنْ وَصْلِي ، وَأَمْنَحُهُمْ كَرَامَتِي ، وَأُبِيحُ لَهُمْ فَضْلِي ، وَأَجْعَلُ قُلُوبَهُمْ خَزَائِنَ كُتُبِي ، وَأَسْتُرُهُمْ بِرَحْمَتِي ، وَأَجْعَلُهُمْ أَمَانًا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ عِبَادِي ؛ فَبِهِمْ أُمْطِرُ السَّمَاءَ ، وَبِهِمْ أُنْبِتُ الأَرْضَ وَبِهِمْ أَصْرِفُ الْبَلاءَ ، هُمْ أَوْلِيَائِي وَأَحِبَّائِي ، دَرَجَاتُهُمْ عَالِيَةٌ ، وَمَقَامَاتُهُمْ رَفِيعَةٌ ،

(٦) رواه عنه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء : الجزء العاشر ، صفحة ١٩٣-١٩٤، ١٥٢٥١ .

وَهِمَمُهُمْ بِي مُتَعَلِّقَةٌ ، صَحَّتْ عَزَائِمُهُمْ ، وَدَامَتْ فِي مَلَكُوتِ غَيْبِي فِكْرَتُهُمْ ؛ فَارْتَهَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِي ؛ فَسَقَيْتُهُمْ بِكَأْسِ الأُنْسِ صَرْفَ مَحَبَّتِي ، فَطَالَ شَوْقُهُمْ إِلَى لِقَائِي ، وَإِنِّي إِلَيْهِمْ لأَشَدُّ شَوْقًا ، يَا آدَمُ ، مَنْ طَلَبَنِي مِنْ خَلْقِي وَجَدَنِي ، وَمَنْ طَلَبَ غَيْرِي لَمْ يَجِدْنِي ، فَطُوبَى يَا آدَمُ لَهُمْ ، ثُمَّ طُوبَى ، ثُمَّ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ، يَا آدَمُ ، هُمُ الَّذِينَ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ هَانَ عَلَيَّ غُفْرَانُ ذُنُوبِ الْمُذْنِبِينَ لِكَرَامَتِهِمْ عَلَيَّ .

وَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاودَ عَلَيْهِ السَّلامُ : يَا دَاودُ ، إِذَا رَأَيْتَ لِي طَالِبًا فَكُنْ لَهُ خَادِمًا ، فَكَانَ دَاودُ يَقُولُ فِي مَزَامِيرِهِ : وَاهًا لَهُمْ ! ، يَا لَيْتَنِي عَايَنْتُهُمْ ! ، يَا لَيْتَ خَدِّي نَعْلُ مَوْطِئِهِمْ .

قَالَ سَهْلٌ ذَلِكَ ثُمَّ احْمَرَّتْ بَعْدُ أُدْمَتُهُ أَوِ اصْفَرَّ لَوْنُهُ وَجَعَلَ يَقُولُ : جَعَلَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وُخُلِيفَتَهُ خَادِمًا لِمَنْ طَلَبَهُ لَوْ عَقَلْتَ وَمَا أَظُنُّكَ تَعْقِلُ قَدْرَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَطُلابِهِ وَلَوْ عَرَفْتَ قَدْرَهُمْ لاسْتَغْنَمْتَ قُرْبَهُمْ وَمُجَالَسَتَهُمْ وَبِرَّهُمْ وَخِدْمَتَهُمْ وَتَعَاهَدْتُهُمْ "

٩-الصُّوفية والشريعة الإسلامية

يشكك بعض الناس في إلتزام الصوفية بأحكام الشريعة المطهرة، بل وربما يتهمونهم بالتحلل من الشريعة، ويستندون في ذلك إلى ما يحدث من بعض الأدعياءالمحسوبين على الصوفية، وليسوا منهم في قليل أو كثير.

بينما لو نظرنا في هذا الأمر نظرة موضوعية، لوجدنا أن الصوفية – على وجه العموم – نبهوا في صور حاسمة إلى وجوب إلتزام الشريعة.

فهذا الإمام أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: ((من دعا إلى الله تعالى، بغير ما دعا به رسول الله ﷺ، فهو بدعى))، ويقول أيضاً: ((إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة، فلا تعبأ به)).

ومن أجمل كلماته في هذا، قوله: ((ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان، ومتابعة السنة، فمن أعطيهما، وجعل يشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا)).

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج، ومن هؤلاء مثلاً: أبو يزيد البسطامي الذي يقول في قوة حاسمة، وفي نطق صادق. ((لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات، حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة)).

وقال لأحد جلسائه: ((قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية – وكان رجلاً مشهوراً بالزهد – فمضينا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد، رمى ببصاقة تجاه القبلة، فإنصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال:

((هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه؟))

ويقول سهل التسترى معبراً عن أصول التصوف: ((أصول طريقنا سبعة: ((التمسك بالكتاب، والإقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق))).

ولقد تحدث الإمام الجنيد – سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيري – أكثر من مرة، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف والشريعة، ومما قاله في ذلك:

((الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من إقتفى أثر الرسول ﷺ، وإتبع سنته، ولزم طريقته)) وقال أيضاً:

((من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة))، وقال: ((علمنا هذا مشيد بالقرآن وبحديث رسول الله ﷺ)).

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال: ((أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل))، فقال الجنيد: ((إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا)).

ولقد كان الإمام الغزالي في سلوكه، وفي قوله ، وفي حياته الخاصة والعامة يلتزم الشريعة، ويقول في شئ من التفصيل، فيه دقة، وفيه إستدلال غاية في القوة:

((وأعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعى فيه كثير، ونحن نعرفك علامة له: وذلك بأن تكون جميع أفعاله الإختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً، وإقداماً، وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من ترك الفرائض؟ فإن قلت: فهل تنتهي رتبة السالك إلى الحد الذي ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات، ولا يضره بعض المحظورات، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور؟، وأقول لك:

((إعلم أن هذا عين الغرور، وأن المحققين قالوا: ((لو رأيت إنساناً يطير في الهواء، ويمشي على الماء، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع، فإعلم أنه شيطان))، وهو الحق.

فإذا ما إنتهينا أخيراً إلى سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ ، فإننا نجده يقول:

((إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها في جانب الكشف، ولا الإلهام ولا المشاهدة، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة)).

والواقع أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم، إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يحاولون – باستمرار– أن ينهجوا نهجه، وأن يسيروا على منواله، فهو إمامهم الأسمى في كل ما يأتون، وما يدعون، وهم يتابعونه مهتدين في ذلك بقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

وإنه لمن المدهش أن نجد بعض من يزعمون الإنتساب إلى التصوف يقللون من ضرورة التمسك بالشريعة، أو يهملون العمل بها، وهؤلاء خالفوا كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، لأنهم تركوا العلم والآداب، وجانبوا الصواب، وفيهم يقول القائل: ((رضواً من التواضع بترقيع الملبوس، ومن التصوف بتزيين الرؤوس، واقتصروا في العبادة، على مشي النقباء أمامهم وحمل السجادة، وفي الزهد والجلادة، وعلى تخشين الفراش والوسادة)).

ولقد أجاد من وصفهم بقوله:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

فالخير كله في الإتباع، والشر كله في الإبتداع.

ويقول في ذلك الصوفي الفرنسي الشيخ عبد الواحد يحيى: ((وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة يجهل التصوف، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعي أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة، ولو من جانبها العملي ذلك أن الأكثر، وهو التصوف، يتضمن بالضرورة الأقل وهو الشريعة.

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي، إلى الشريعة، من حيث عدم أهميتها، وعلى الخصوص، أهمية الجانب العملي منها بالنسبة له، هذه النظرة تتضمن، ولو نظرياً، تقليل أهمية الجانب العملي في التصوف نفسه، وفي هذا الخطورة كل الخطورة، فإنه من المشكوك فيه كثيراً، أن يتوفر للشخص الذي عنده هذه الفكرة، الإستعداد الصوفي، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة إلتزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك، فإذا لم يمكنه إلتزامها، فلا خير فيه، بالنسبة للجانب الصوفي.

إن تقليل الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالي بما أنزل الله، وعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله، هو أول خطوة في طريق السالكين)).

إن الشريعة والحقيقة متصلتان إتصالاً يجعل منهما مظهرين لشئ واحد، أحدهما خارجي، والآخر داخلي، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن. ولتوضيح ذلك نقول:

إن الإنسان الذي يشيد قصراً في الهواء، لا يشيده على أساس، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة: إنما هي بناء في الهواء، إنها بناء على غير أساس، والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعم، وعلى الأساس يرتكز البناء كله، حتى الأجزاء العليا منه، والإرتكاز على الأساس يستمر حتى بعد إنتهاء البناء.

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف، فالشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لابد منه لكل سالك، وكالأساس تماماً، لايمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق.

بل نقول أكثر من ذلك:

إنه كلما سار الصوفي في طريقه واستغرق فيه، بدت له ضرورة الشريعة، وإستنارت معرفته بها، وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً، وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء

الذين درسوها وآمنوا بها، دون أن يضربوا بسهم في الميدان الصوفي، ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجي، ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي، ويحياها، إذا أمكن هذا التعبير.

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه، دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده، فإنه لا يُقبل من باب أولى من رجل صوفي أن يزعم إنتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين وإلتزاماته على حياته.

إننا نرى ضرورة إلتزام الشريعة لكل إنسان، ولكننا نؤكد – ونحن على يقين من الأمر– لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفي، بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا بالشريعة إلتزاماً تاماً.

وقد سئل الإمام الغزالي ﵁ عن معنى ارتفاع التكليف عن الولي فأجاب كما ذكر السبكي في طبقات الشافعية بقوله:

((معنى ارتفاع التكليف عن الولي، أن العبادة تصير قرَّة عينه، وغذاء روحه بحيث لا يصبر عنها، ولا يكون عليه كلفة فيها، وهو كالصبي يكلف حضور المكتب، ويُحمل على ذلك قهراً، فإذا اكتمل بالعلم، صار ذلك ألذ الأشياء عنده، ولم يصبر عنه، فلم يكن فيه كلفة، وتكليف الجائع ليتناول الطعام الذيذ، محال: لأنه يأكله بشهوة ويلتذ به، فأي معنى لتكليفه؟ فإذن تكليف الولي محال، والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى، لا بمعنى أنه لا يصوم، ولا يصلي، ويشرب، ويزني.

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه، وتقبيل قدميه والتواضع له، لأن ذلك منتهى شهوته ولذته، فكذلك غذاء روح الولي، في ملازمة ذكره، وامتثال أمره، والتواضع له بقلبه، لا يمكنه إشراك القالب مع القلب في الخضوع، إلا بصورة السجود فيكون ذلك كمالاً للذة الخضوع والتعظيم، حتى يشترك في الالتذاذ قلبه وقالبه كما قيل:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
أي ليدرك سَمعي لذة اسمه كما أدرك ذوقي طعمه

بل تنتهي لذة الولي من القيام لربه قانتاً مناجياً، إلى أن لا يدرك الورم في القدم، فيقال له: ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً؟)) أنتهى

وكذا كتب له بعض الذائقين ما قوله :

متع الله المسلمين ببقائه، ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه، ومنحه أفضل ما منح خاصته من أصفيائه وأوليائه، في قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا، يستمر له ذلك في جميع الأوقات والأحوال، متزايدة مع عدم العوائق والآفات، مع كون ظاهره معموراً، بأحكام الشرع وأدائه، منزهاً عن مآثمه ومخالفاته، ويجد في الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة ثم أنه انكشف له نوع يعرفه، أن المقصود من التكاليف الشرعية، والرياضات الدينية: هو الفطام عما سوى الحق، كما قيل لموسى ﷺ: ((إخل قلبك أريد أن أنزل فيه)).

فإذا تم الفطام، وحصل المقصود بالوصول إلى القربة، ودوام الترقي من غير فترة، حتى أنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره، انقطع عن حفظ الباطن، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية، إلى مراعاة أمر الظاهر.

وهذا الرجل لا ينزل يده من التكليف الظاهر، ولا يقصِّر في أحكام الشريعة، ولكن الاعتقاد الذي كان له في الظواهر والتكاليف، تناقص وتقاصر عما كان في الابتداء من التعظيم لوقعها عنده، ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة، لا لأجل الخلق، وحفظ نظرهم ومراقبة الله، بل صارت إلفاً له، وإن نقص اعتقاده فيها، فهو يعظمها. ما حكمها ؟ ، الجواب: وبالله التوفيق :

ينبغي أن يتحقق هنا أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض: الفطام عما سوى الله، والتجرد له، فهو مصيب في ظنه أن ذلك مقصود، ومخطئ في ظنه أنه كل المقصود، ولا مقصود سواه، بل لله تعالى في الفرائض التي استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام، تقصر بضاعة العقل عن دركها.

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن، مثل رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل، ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ألا يخلي هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره.

و قال: إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار وهذا الحشيش ليس فيه، فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين، وطلب في البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك، وجمع في قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة، فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح، فقال: لا شك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق علي المكان، فرماه من القصر، فلما خلا القصر من الحشيش، ظهر من بعض نقب القصر حية هائلة وضربته ضربة هائلة، أشرف بها على الهلاك.

فتنبه حيث لم ينفعه التنبه، إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان: ... أحدهما : انتفاع الولد برائحته وذلك قد أدركه الولد بعقله، والثاني: اندفاع الحيات المهلكات برائحته، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر الولد بما عنده من العلم، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ وقال : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ والمغرور من إغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه فهو منتف في نفسه.

وقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمي: كذلك القصر، وأنه معشش حيات وعقارب مهلكات، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة: المكتوبات والمشروعات، بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾.

فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة في الرقية تؤثر بالخاصة في استخراج الحيات، بل في استسخار الجن والشياطين، وبعض الأدعية المنظومة المأثورة تؤثر في استمالة الملائكة إلى السعي في إجابة الداعي، ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته، وإنما يدرك ذلك بقوة النبوة إذا كشف السر بها من اللوح المحفوظ.

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد، وسجودين، وعدد مخصوص، وألفاظ معينة من القرآن، متلوة مختلفة المقادير: عند طلوع الشمس، وعند الزوال، والغروب، تؤثر بالخاصة في تسكين التنين المستكن في قلب الآدمي، الذي يتشعب منه حيات كبيرة الرؤوس بعدد أخلاق الآدمي، يلدغه وينهشه في القبر، متمكناً من جوهر الروح وذاته، أشد إيلاماً من لدغ مُكن من القالب أولاً، ثم يسري أثره إلى الروح، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ :

{ عَذابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِه، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّيناً أَتَدْرُونَ مَا التِّنِّينُ؟ سَبْعُونَ حَيَّةً لِكُلِ حَيَّةٍ سَبْعُ رُؤُوسٍ يَلْسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}. رواه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه

ويكثر مثل هذا التنين في خلق الآدمي، ولا يقمعه إلا الفرائض المكتوبة، فهي المنجية من المهلكات، وهي أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة..... ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ ، فإذن في التكليف غرضان؛ أدرك هذا المغرور أحدهما، وغفل عن الآخر.

وقد وقع لأبي حنيفة مثل هذا الظنّ في الفقهيات، فقال:

((أوجب الله في أربعين شاة: شاة، وقصد به إزالة الفقر، والشاة آلة في الإزالة، فإذا حصل بمال آخر فقد حصل تمام المقصود))، فقال الشافعي ﷺ: ((صدقت في قولك: إن هذا مقصود، وركبت من الخطر في حكمك بأنه لا مقصود سواه! ، فبم تأمره: إذ يقال له يوم القيامة: كان لنا سرّ في إشراك الغني الفقير مع نفسه في جنس ماله؟ كما كان من يرمي سبعة أحجار في الحج ليؤدي بدلها خمس لآلىء، أو خمس أكبر ؟ إذ لم يقبله (أى أن الشرع لايقبل ذلك) ، وإذا جاز أن يتمحض التقييد في الحج، وأن يتمحض المعنى المعقول معاملات الخلق فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً في الزكاة، فتكون إزالة الفقر معقولة، والسرُّ الآخر غير معقول)).

ثم يستطرد ﷺ فيقول: ((ونننبِّه على هذه المعرفة بالتأمل في ثلاثة أمور:

الأول: بداية حال إبليس، وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة، ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد: اغتراراً بما عنده من العلم، وغفلة عن أسرار الله في الاستبعاد ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته وفطنته، وتمسكه بمعقوله، في كونه خيراً من آدم عليه السلام، فننبه الخلق بهذا الرمز على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء وكياسة ناقصة.

الأمر الثاني: حال آدم عليه السلام، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركوبه نهياً واحداً ليعلم أن في ركوب النهي إبطال اعتقاد الكمال لخالقه.

الأمر الثالث: حال رسول الله ﷺ، فإن هذا المغرور لعله يقول: إنه لم تسلم له رتبة الكمال، ثم أنه ﷺ لم يزل يلازم الحدود، ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه، بل يزيد في فرائضه، وأوجب عليه التهجد، ولم يوجبه على غيره، وقيل له : ﴿ يَآأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ ، وإنما أوجبت عليه هذه الزيادة، لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها نفاساً وشرفاً ينبغي أن

يزداد حصنها إحكاماً وعلواً، فلذلك قيل في تعليل إيجاب التهجد:...﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ فتبين له أن هذه الصلوات هي حصن الكمال، فلا يبقى إلا به.

ولعل المغرور المعتوه يقول: أنه كان يواظب عليها إشفاقاً على الخلق لأجل الاقتداء، لا لحاجته إليها في حفظ الكمال ، فيقال له: فلم زاد عليه في التهجد وجوباً؟

مسألة: أمّا ما ذكره من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القربى التي نالها، والكمال الذي بلغه فهو كذب صريح، ومحال فاحش قبيح، لأن التكاليف قسمان: أمر ونهي فأما المنهيات: مثل الزنا، والسرقة، والقتل، والضرب، والنميمة، والكذب، والقذف.

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال؟ وكيف يحجب عن القربة؟ والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذروات؟

وأما المأمورات: فالزكاة والصوم والصلاة، فكيف تحجبه الزكاة ولو أنفق جميع ماله، فقد دفع السوء عن نفسه؟، ولو صام جميع دهره، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة؟ فما الذي يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار، في شهر واحد هو رمضان، وأما الصلاة فتقسم إلى: أفعال وأذكار: وأفعالها: قيام وركوع وسجود.

ولا شك في أنه يخرج من القربة بالأفعال المعتادة، فإن لم يصل، فيكون إما قائماً أو مضطجعاً، وغير المعتاد هو السجود والركوع، وكيف يحجب عن القربة، ما هو سبب القربة؟ قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾.

ومن عشق ملكاً ذا جمال، فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه، إستكانة له، وجد في قلبه مزيج روح، وراحة، وقرب، ولذلك قال ﷺ:

{ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ } عَنْ أَنَسٍ رواه أحمد والنسائي .

فإستدامة حال القربة وإستزادها في السجود، أيسر منها في الاضطجاع والقعود ومهما ألقى في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجاً من حال إبليس، حيث ألقى في نفسه أن السجود بحكم الأمر، سبب زوال قربته وكماله.

فكل ولي سقط من درجة القربة إلى درجة اللعنة، فسببه ترك السجود، ومقتداه وإمامه إبليس، وكل ولي أسعد بالترقي إلى درجات القرب قيل له: ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾، ومقتداه وإمامه الرسول ﷺ.

ولا ينبغي أن يتوهم الولي الخالص أنه بعيد عن خداع إبليس، مادام في هذه الحياة، بل لا ينجو عنه الأنبياء، غير أنهم محفوظون كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أ. هـ

ونختم كلامنا في هذا الموضوع بهذا الكلام المحقق للدكتور حسن الشرقاوي في تعليقه على كتاب الكوكب الشاهق للشعراني:

((إن إتهام الصوفية بأنهم يرفعون التكاليف والفرائض الشرعية، قول مردود، ودعوى كاذبة، فالصوفية يؤمنون إيماناً راسخاً بأنه لا شريعة بلا حقيقة، ولا حقيقة بلا شريعة، فمن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، فأعمال القلوب يجب أن ترتبط بأعمال الجوارح، فلا تباين بينها، ولا تناقض ولا إنفصال، ولكل عضو من أعضاء الجسم وظيفته التي يجب أن يؤديها في معاملاته، وعباداته، وتكاليفه الشرعية، كما أن عقل الإنسان ونفسه وقلبه جميعاً يجب أن تتكامل مع جوارحه بالتقرب إلى الله تعالى، فإذا ما إنفصلت أعمال الجوارح عن أعمال القلوب، فسدت النفس والبدن جميعاً.

فكيف يمكن أن يقال بعد ذلك أن الصوفية قوم خمول وتبطل وتكاسل، وأنهم يدعون إلى رفع التكاليف الشرعية، وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه الكريم، ويبدو للمتأمل السليم القلب أن هناك إختلافاً بيناً، بين أهل الحق الذين يتبعون شريعة الله وسنة رسوله، وبين المبتدعة الذين يخالفون قول الله وسنة رسوله، فيبتدعون أعمالاً وأفعالاً من عند أنفسهم، ويؤولون كمال الله، فيحرمون أشياء، ويبيحون أشياء، بحسب أهوائهم.

وهؤلاء ليسوا من الصوفية، إنما هم دخلاء على أهل الله، وهم من مرضى القلوب، يزعمون أنهم من الصوفية، وهم إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان)).

١٠- إقتداء الصُّوفيَّة بأحوال الصحابة الكرام

وقد يدعي البعض أن الصحابة ﷺ لم يكن لهم مثل هذه المجاهدات التي يقوم بها رجال الصوفية، وكذلك لم يذكر أمثال هذه الكرامات التي يتناقلها رجال الصوفية عن شيوخهم.

والحقيقة أن الصوفية لهم غايات سامية، وهي غايات روحية مثل: رضاء الملأ الأعلى، حب الله، الإتصال به، الفناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه، وهذه الأغراض تحتاج إلى مجاهدة النفس والأهواء والشهوات، ليصل المرء إليها، ولا يتأتى له ذلك إلا عن طريق الوحي المعصوم، فلا بد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعاً سليماً، وبالتالي فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط، ما لم يكن اتباع كامل لشريعة صادقة، وإن التصوف الإسلامي لم يوجد إلا باقتداء الصوفية اقتداء تاماً برسول الله ﷺ، لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

ولا يستطيع الصوفية تحقيق هذه المتابعة، إلا إذا قاسوا أحوالهم بأحوال الصحابة الكرام، لأن الصحابة ﷺ أصدق الناس قاطبة في متابعته ﷺ وقد أثنى الله عز وجل عليهم في ذلك فقال :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾،وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته:

((وقد كان الصحابة ﷺ على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية ، وفي فضائل أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ﷺ كثير منها، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة، ممن إشتملت رسالة القشيري على ذكرهم، ومن تبع طريقتهم من بعدهم)).

أما ما أيدهم الله ﷻ به من أنواع الكرامات، فشئ كثير جداً، نكتفي بذكر نماذج منها، لأن جمع كل ما ورد فيها من الأخبار والآثار يخرج من الحصر.

فقد قال أبو بكر الصديق ﷺ لعائشة ﷺ عند موته، إنما هما أخواك، وأختاك، وكانت زوجته حاملاً، فولدت بنتاً، فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت.

وقال عمر ﷺ في أثناء خطبته: يا سارية الجبل، إذ إنكشف له أن العدو قد أشرف عليه، فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة رضى الله عنهم أجمعين.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: دخلت على عثمان ﷺ وكنت قد لقيت إمرأة في طريقي، فنظرت إليها شزراً، وتأملت محاسنها- فقال عثمان ﷺ ، لما دخلت:

يدخل عليّ أحدكم، وأثر الزنى ظاهر على عينيه !! أما علمت أن زنى العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك، فقلت: أوحي بعد النبي؟ فقال لا، ولكن بصيرة وبرهان، وفراسة صادقة.

وعلى هذا المنوال سار الصوفية الصادقون، فحصلوا ذلك الاكرام، ونالوا تلكم العطايا، فعن أبي سعيد الخراز قال:

دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هذا وأشباهه كَلّ على الناس، فناداني وقال : ﴿ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ فإستغفرت الله في سري، فناداني فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ثم غاب عني ولم أره.

وقال زكريا بن داود:

دخل أبو عباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي، وهو عليل، وكان ذا عيال، ولم يعرف له سبب يعيش به، قال: فلما قلت في نفسي: من أين يأكل هذا الرجل؟ قال فصاح بي، يا أبا العباس، رد هذه الهمة الدَّنِية فإن لله تعالى ألطافاً خفية.

وهكذا نصل إلى هذه الحقيقة التي لا مرية فيها: أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج باب الله، أو يسير في الطريق إليه، إلا بالعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له.

فإذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه، وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين، فإن الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل ، قال تعالى (٦٥ سورة الإسراء):

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

ويعترف إبليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة لله سبحانه، فيقول فى سورة ص بلآية (٨٢-٨٣) ::

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

وإذا ما حقق الإنسان العبودية لله، فإن الله تولاه بالإمداد بالمعرفة، والفتح والفيض والفضل الكثير، ولقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة، لقد حققها في ذروتها، فكانت صلاته، وكانت نسكه، وكانت حياته بأكملها، وكان موته لله رب العالمين، لا شريك له:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ١٦٢، ١٦٣ الأنعام

لقد حققها موفورة تامة، فأتاه الله عِزَّ الدنيا والآخرة.

وبمتابعة الرسول ﷺ، والإقتداء به، سعد أصحابه ﭫ، ونالوا النصر والفتح والتمكين، وكذلك سار الصوفية على الدرب، فأخذوا أنفسهم بالتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما دقّ من الأمور، وما وضح منها، وفي اليسير من أعمالهم، والعظيم منها، فظهرت لهم عجائب الرؤيا الصادقة وإنكشفت لهم غيوب يقول فيها الإمام الغزالي ﭬ في كتابه (المنقذ من الضلال):

((ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها، إلا إشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الإحتراز عنه)).

١١- المعرفة الذوقية عند الصُّوفيَّة

يرشد القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إلى نوع من المعرفة، ليس طريقه الحس، وليس طريقه العقل، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة، ذلك النوع في أبسط صورة وأعمها وأشملها هو الرؤيا.

فليست الرؤيا معرفة حسية، وليست معرفة عقلية، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة، ويبين الحديث الشريف مصدرها فيقول: ((الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)).

فقد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة، وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحاً، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير، والنبوة هي الأخرى ليست معرفة حسية، وليست معرفة عقلية، إنها ليست تجربة، وليست منطقاً، ولكنها وحي من الله.

والقرآن غاص بهذا النمط من المعرفة الإلهية، إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً، أو من وراء حجاب، أو بإرسال الرسل إليهم أعني الملائكة.

فتزكية النفس وتطهيرها، والتقرب إلى الله، يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات، ومعرفة لا تتأتى لذوي النفوس المادية، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، وبالمادة عن الله.

وفي ذلك يقول الإمام الغزالي في كتابه ((المنقذ من الضلال)): ((ثم إني لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله، وكان العلم أيسر عليّ من العمل، فإبتدأت بتحصيل علمهم، من مطالعة كتبهم، مثل ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام

مشايخهم، حتى أطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر لي أن خواص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال، وتبدل الصفات.

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة، وحد الشبع، وأسبابهما وشروطهما، وبين أن يكون صحيحاً وشبعاناً ، وبين أن يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران، وما معه من علمه من شئ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه، وما معه من السكر من شئ، والطبيب في حالة المرض يعرف حداً للصحة، وأسبابها وأدويتها، وهو فاقد الصحة، كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها، وأسبابها، وبين أن يكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا.

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك)).

١٢- طريق البصيرة

ولكن الكثيرون يشكُّون في هذا الطريق- طريق البصيرة الذي سبيله التزكي والتطهر- الموصل إلى المعرفة، ويرون أنه أسطورة من الأساطير، أو خرافة من الخرافات، ويطلبون في إلحاح الإستدلال على أن هذا الطريق صحيح.

ويرون أن النبوة والرسالة، والعبد الصالح، كل هذه أمور خارقة للعادة، أرادها الله فكان ما أراد، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى المعرفة الإلهامية. ويقولون: ما الدليل على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة؟ ونسوق لهم شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في إكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا

﴿ لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ فكل حكمة تظهر من القلب، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم، فهي بطريق الكشف والإلهام، وأيضاً قوله ﷺ :

((مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ وَوَفَقَهُ فِيمَا يَعْمَلُ، حَتَّى يَسْتَوْجِبَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَعْلَمُ، تَاهَ فِيمَا يَعْلَمُ وَلَمْ يُوَفَّقْ فَيمَا يَعْمَلُ، حَتَّى يَسْتَوْجِبَ الْنَّار))،أبو نعيم في (الحلية) من حديث أنس

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ من الإشكالات والشبه: ﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ قيل: يعلمه علماً من غير تعلم، ويفطنه من غير تجربة، وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل، ويخرج به من الشبهات، وقال ﷺ، لإبن عباس:

{ اللهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وعَلِّمْهُ التأويلَ }، صحيح ابن حبان.

وقال علي رضي الله عنه: ((ما عندنا شئ، أسره النبي ﷺ إلينا، إلا أن يؤتى الله تعالى عبداً فهماً في كتابه)) وليس هذا بالتعلم.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ إنه الفهم في كتاب الله تعالى، وقال تعالى: ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾ خصَّ ما إنكشف بإسم الفهم، وكان أبو الدرداء يقول:....... المؤمن من ينظر بنور الله، من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم، ويجريه على ألسنتهم.

وقال ﷺ فيما رواه الطبراني عن أبي أمامة :

{ اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَأَنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله}

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٧٥الحجر)،وقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١١٨البقرة)، وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال:

{ العِلْمُ علمانِ فعِلْمٌ في القلبِ فذلِكَ العلمُ النافِعُ، وعِلْمٌ على اللسانِ فذلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ على ابنِ آدَمَ }. سنن الدارمي.

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن: ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى، يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً، وقد قال ﷺ فى معنى الحديث المعلوم :

{ إنَّ مِنْ أُمَّي مُحَدَّثين، وَمُعَلَّمِينَ، وَمُكَلَّمِينَ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ } .

وقرأ إبن عباس، رضي الله عنهما: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾(٥٢الحج) ﴿ ولا محدث﴾ : يعني الصديقين، والمحدث هو الملهم، والملهم: هو الذي إنكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل، لا من جهة المحسات الخارجة ، والقرآن مصرح: بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف، وذلك علم من غير تعلم، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾(٦يونس) خصَّصها بهم ، وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(١٣٨آل عمران)، وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب، فإذا نسى ما حفظه صار جاهلاً، وإنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء، بلا حفظ ولا درس.

وهذا هو العلم الرباني، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٦٥الكهف) ، مع أن كل علم من لدنه، ولكن بعضه بوسائط تعليم الخلق، فلا يسمى ذلك علماً لدنِّياً، بل اللدنِّي:

الذي ينفتح في سرِّ القلب من غير سبب مألوف من خارج.

فهذه شواهد النقل ولو جمعنا كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي ﵁ في كتابه ((الإحياء)):

((والدليل القاطع على الكشف الذي لا يُقْدر على جحده أمران: أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة، فإنه ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذلك في النوم، فلا يستحيل أيضاً في اليقظة، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس، وعدم إشتغالها بالمحسات، فكم من مستيقظ غائص، لا يسمع ولا يبصر، لإنشغاله بنفسه.

الثاني: إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب، وأمور في المستقبل، كما إشتمل عليه القرآن .. وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره: إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور، وشغل بإصلاح الخلق، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق، ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبياً، بل يسمى ولياً.

فمن آمن بالأنبياء ! وصدق بالرؤيا الصالحة، لزمه لا محالة، أن يقر بأن القلب له بابان: باب إلى الخارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب: وهو باب الإلهام، والنفث في الروع، والوحي، فإذا أقر بهما جميعاً، لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم، ومباشرة الأسباب المألوفة، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه)).

فإذن القلب له بابان: باب مفتوح إلى عالم الملكوت، وهو اللوح المحفوظ، وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس، المتمسكة بعالم الملك والشهادة.

وعالم الملك والشهادة أيضاً، يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة، فأما إنفتاح باب القلب إلى الإقتباس من الحواس، فلا يخفى على أحد، وأما إنفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت، ومطالعة اللوح المحفوظ: فتعلمه علماً يقيناً: بالتأمل في عجائب الرؤيا،

وإطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل، أو كان في الماضي، من غير إقتباس من جهة الحواس، وإنما ينفتح ذلك الباب لمن إنفرد بذكر الله تعالى.

وعن أبي الدرداء قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم في سفر فقال:

{ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ ، قَالُوا: يَا رَسُـــولَ اللهِ، وَ مَا الْمُفْرَدُونَ؟، قَالَ: المُفْرَدُونَ بِذِكْرِ الله، وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافاً } رواه الطبراني.

ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى:

((ثُمَّ أُقْبِلُ بِوَجْهِي عَلَيْهِم، أَتَرَى مَنْ وَاجَهْتَهُ بِوَجْهِي ! ، يَعْلَمُ أَحْدٌ أَيَّ شَئٍ أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيهِ؟))، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ((أَوَّلُ مَا أُعْطِيهِمْ أَنْ أَقْذِفُ النُّورَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيُخْبِرُونَ عَنِّي كَمَا أُخْبِرُ عَنْهُمْ)).

..... ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن.

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء، وبين علوم العلماء والحكماء ... هذا، وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يأتي من أبواب الحواس، المفتوحة إلى عالم الملك.

وهذا الرأي هو ما يراه كثير من كبار المفكرين، في كل عصر: إنه رأي الفارابي، ورأي إبن سينا، بل ورأي الشيخ مُحَمَّد عبده حيث يقول في رسالة التوحيد:

((أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظَّه من الأنس بما يقارب تلك الحال: حال الإتصال في النوع أو الجنس، لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شئ من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال،

لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدِّث به عن الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- ومن ذاق عَرف، ومن حُرِمَ إنحرف.

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه: ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح، أو يمجُّه الذوق السليم، وإنتفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم، المتلآلئ في بصائرهم، إلى دعوة من يحفُّ بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة.

ولا يخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم، ويسوء مآلهم، ومآل من غرروا به، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول، وفساد الأخلاق، وإنحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم، إلا أن يتداركهم الله بلطفه، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة إجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار)).

انتهى [رسالة التوحيد ط صبيح صـ ٦١ - ٧٠]

البَابُ الثَّالِث

شُبُهَاتٌ مُثَارَة

١. .الشَّريعة والحقيقة

- الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِن
- عُلُومُ الشَّريعة وَعُلُومُ الْقُلُوب

٢. الصُّوفيَّة والعمل

٣. الصُّوفيَّة والسِّياسة

٤. دعوى وحدة الوجود

٥. إتهام الصُّوفيِّة بالحلول والإتحاد

٦. إبن تيمية ومقام الفناء

٧. الصُّوفيَّة والذِّكر

٨. أذواق الصُّوفيَّة فى الآيات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّـــــة

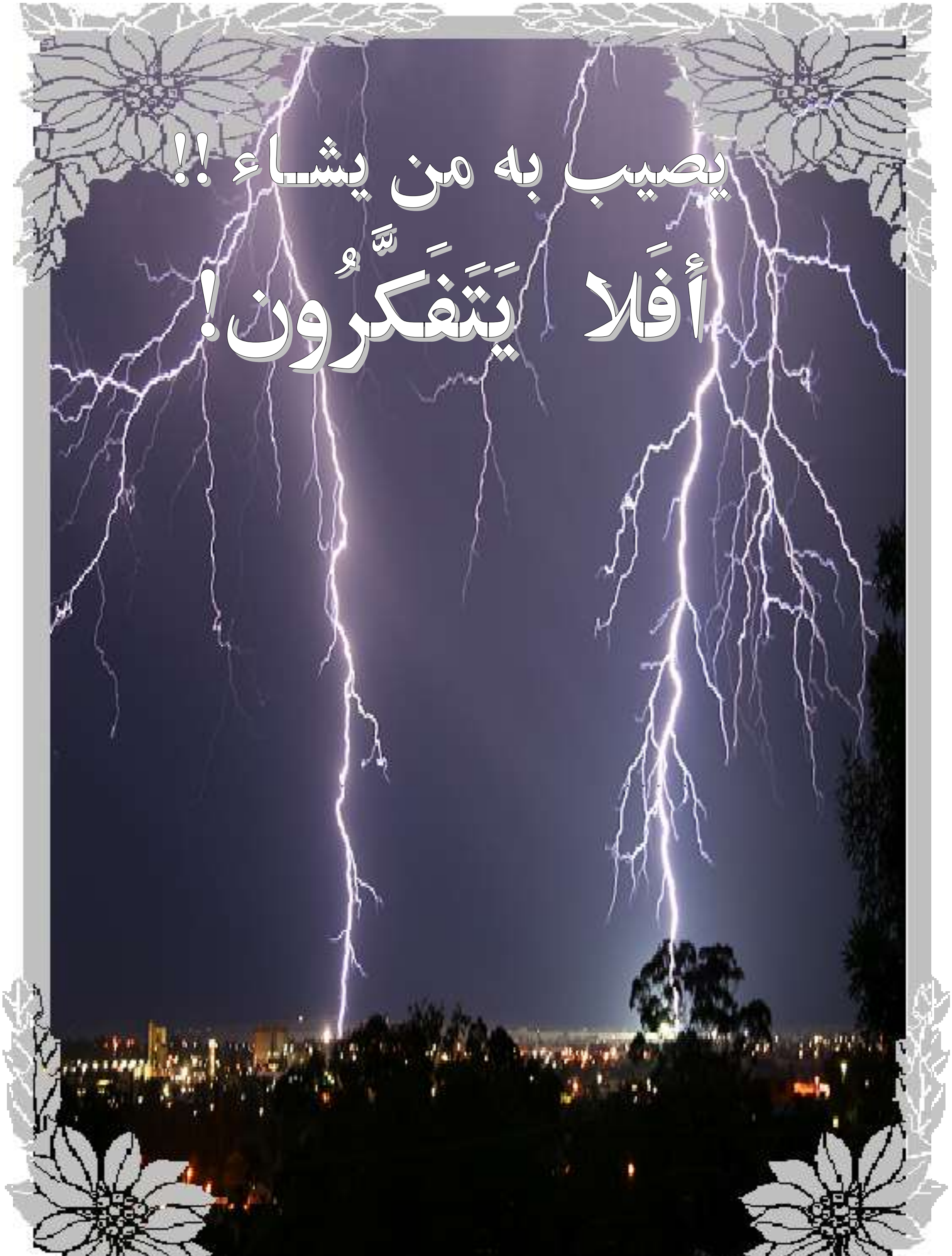
يصيب به من يشـاء !!
أَفَلا يَتَفَكَّرُون!

شُبُهَاتٌ مُثَارَة

٩. الشَّريعة والحقيقة

يقسم بعض الناس – الناس صنفين في العمل بهذا الدين ؛ فيقولون :

هذا من أهل الحقيقة وهذا من أهل الشريعة ، ويجعلون الشريعة شيئاً والحقيقة شيئاً آخر، وقد يعنون بقولهم أنه من كان من أهل الحقيقة .... فهو ليس من أهل الشريعة !، ومن كان من أهل الشريعة فهو ليس من أهل الحقيقة ! .

وهذا قول عجاب، لأنه يخالف واضح الكتاب وسنة النبي وهدي الأصحاب والتابعين من بعدهم من أولي الألباب إلى يوم الدين ،.....

والحقيقة هي الشريعة ..... والشريعة هي الحقيقة .

ولكي نوضح ذلك ونبيِّنه فنقول:

الحقيقة لبُّ الشريعة، والشريعة ظاهر الحقيقة، كما قال ساداتنا من الصالحين – كالزبد الذي في اللبن قبل الخضّ ، هل يستطيع أحدٌ أن يقول أن الزبد ليس باللبن؟ ... كلا – لكنه لايظهر ولا تراه العين إلا بعد خضِ اللبن، فاللبن قبل خضِّه يتوارى فيه الزبد ، ولا تراه العين ، لكنه بعد الخضِّ يكُون الزبد ظاهراً لكل عين ، وكذلك...: ... فالحقيقة لا تنبلج إلا بعد العمل بالشريعة.

فمن تعلَّم علوم الشريعة وعمل بها على هدي حبيب الله ومصطفاه أظهر الله بشرى له ، وإكراماً له، وتعليماً لمن حول، وتنويهاً بشأنه ... أنوار الحقيقة ؛ حتى يعلم الناس أن هذا نور لمن يعمل بالشريعة.

لكن تعالوا معي ننظر إلى أي عمل أمرنا به الله ....

الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِن

في الإنسان، وما أدراك ما الإنسان، له ظاهر هو هذا البنيان وهذا الكيان وله باطن وهو الحقيقة التي تحرك هذا البنيان والتي تتحدث وترى وتسمع في هذا البنيان وهي كما يشير إليها البعض بأنها الروح والبعض يقول أنها السرُّ لكنها هي حقيقة الإنسان التي هو بها إنسان، لأن الإنسان إذا خرج من الدنيا تلبية لنداء الرحمن هل يفقد جزءاً من هذا البنيان ؟، كلا، عندما ينادي المنادي:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الفجر] .... تخرج النفس ويبقى الجسم ، فالعين كما هي ولكنها لا ترى ! ، والأذان كما هي ولكنها لا تسمع ! ، واللسان كما هو ولكنه لا ينطق ! ، والجسم كله كما هو ولكنه لا يتحرك لماذا؟

لأن حقيقة الإنسان التي كانت تحرك هذا الكيان خرجت تلبية لنداء الرحمن عز وجل، ولذلك قديماً قالوا: "أنت بالنفس لا بالجسم إنسان" ... هذه هي الحقيقة التي تبين حقيقة الإنسان، هل يستطيع الإنسان أن يعيش بجسمه بدون روحه؟.......... كأن يعيش الميت؟! ....كلا ! ....زلأنه بمجرد أن تخرج الروح وتتركه ساعات معدودات من منا يستطيع أن يقترب منه إلا إذا كان من أهل الصلاح والتقى يتقى الله أبدانهم ويسلم الله أجسادهم فلا يصيبها البلى ولا يظهر منها عفن ولا يصيبها عطن بل تظل كما هي إلى أن يخرج الإنسان يوم نداء الله يوم الدين، لقوله عليه الصلاة والسلام (رواه ابن ماجه عن أوس) :

{ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ }

والوارث له حكم مورِّثه، والورثة هنا ورثة الكتاب الذين يقول فيهم الكريم الوهاب : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ٣٢ فاطر

فالذي ورث هذه الحالة ... الذي ورث الكتاب والصلاح والتقى ... والعلماء الذين يستمدون علمهم من السماء... والذين ورثوا النور الصالحون والأولياء الذين يستمدون نورهم من سيد الأنبياء ﷺ .... هؤلاء .... حرَّم الله على

الأرض أن تأكل أجسامهم ، وحرَّم الله البلى على أعضائهم.

وهكذا فالإنسان بروحه وجسمه أي بالإثنين معاً ، لأنه لو كان جسماً فقط نقول عنه (جثَّة) ، ولو كان روحاً فقط نقول عنه (روح) ، لكن الروح في جسم نقول عنها (إنسان) .... إذاً الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا كانت روح تحرك جسداً،.... والحركة كلها بأمر الواحد الأحد ...

وهكذا نجد نفس الحقيقة لو نظرنا إلى أي طاعة أمرنا بها الله جلَّ في علاه.... فالصلاة لها حركات ظاهرة ... قيام وركوع وسجود ، ولها حركات باطنة يقوم بها القلب لربِّ الوجود، من خشوع وحضور وخوف وخشية ووجل، فلو أدى الإنسان الصلاة بظاهره على أكمل ما يكون ! ، ولكنه بباطنه مشغول بالكليَّة عمن يقول للشيء كن فيكون .... فهل هذه الصلاة تكون مقبولة؟

كلا... !!! ..... فلكي تكون الصلاة مقبولة عند الله ، لابدَّ أن الجسم والقلب يشتركان ويحضران في آداء هذه الصلاة ! ... فما يقوم به الجسم نسميه "الشريعة" وما يفعله القلب نسميه "الحقيقة".

هل نستطيع أن نصلي بالشريعة فقط ؟ ... لا...لا يقبل الله الصلاة ، وكذلك لو قلنا نصلي بالحقيقة فقط !، أي نقول مادام القلب حاضراً فليس مهماً أن أركع أو أسجد، هل يجوز لنا ذلك؟... كلا..!. إذن لكي تتم الصلاة لا بد أن تؤدي بالظاهر والباطن .... بالجسم والقلب فالجسم يؤديها على حسب ظاهر رسول الله ، والقلب يؤديها متابعة لقلب حبيب الله ومصطفاه .... صحيح لن نكون مثل رسول الله ، لكن نكون على قدرنا ! ، لازم يكون هناك شيء من هذه الأحوال القلبية.

ما هي الصلاة التي تحبُّها يا رب وتُقْبِل عليها ؟ وتمدح أهلها وتثني عليهم ؟ .... نسأل كتاب الله ؟ ..(سورة المؤمنون) :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾

والخشوع محله القلب ..... فلم يقل الذين في صلاتهم يطيلون! ، أو الذين في صلاتهم يركعون ويسجدون! ، مع أنه لا بد من الركوع والسجود ...

لكن الركوع والسجود بدون حضور القلب بين يدي الواحد المعبود يجعل الصلاة ليس فيها روح ! ، مع أنها صلاة بظاهر الشريعة، ولكن لكي تكون الصلاة صلة بالله ..... لا بد أن يكون فيها روح الصلاة .... وهو حضور القلب وخشوع القلب وخشية القلب وإخبات القلب وإقبال القلب على حضرة الله جلَّ في علاه... إذن الذي يصلي بمَ نصفه ؟ .... هل هو من أهل الشريعة؟......!!...... أم أهل الحقيقة؟ .....!!...وهل هناك فارق بين الشريعة والحقيقة هنا؟ ..!!... إذن لا بد من تلازم الحقيقة والشريعة معاً في كل عمل : لأن الشريعة عمل الجسم ، والحقيقة عمل القلب مع الجسم ، وإلى أي وجهة في العمل ينظر الله عزَّ وجلَّ؟ ...، قال حبيبنا ﷺ (صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ) :

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ }

ولما وجد ﷺ رجلاً يصلي ويكثر الحركة قال له (حلة الأولياء) :

{صلِّ فإنك لم تصلِّ.. فَأَعَادَ الصَّلاةَ كَسَابِقَتِها، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَ السَّلامُ : صَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ !، ثُمَّ الْتَفَتَ لِمَنْ حَوْلَهُ وَقَالَ لَهُمْ : لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا .... لَخَشَعَتْ جَوارِحُهُ }"

إذن الصلاة لا بد فيها من القلب مع الجسم، وهكذا لا بد من الحقيقة مع الشريعة في كل عمل يعمله المؤمن، فالمؤمن دائماً في كل أعماله لا بد له من الجسم بما فيه من لسان وعينان وأذنان ويدان ورجلان ويشترك معهم القلب والجنان.

الأمر الجامع والحديث الجامع الذي قال فيه أئمة الحديث إن هذا الحديث ربع الدين الذي رواه الإمام عمر بن الخطاب ﷺ في صحيح البخارى ومسلم يقول:

{ إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى }

أي على حسب النية، فلكي يأخذ الأجر لازم ينوي والأجر ليس واحداً ، فنحن جميعاً نصلي، ومع الإمام، والركوع واحد، والسجود واحد، والقراءة واحدة، لكن هل نحن في الأجر سواء؟ .... وكذلك نحن في الظاهر سواء ..... لكن اختلاف الأجور على حسب الحضور، حضور القلب المملوء بالنور بين يد الديهور عز وجل.

ولذلك حضرة النبي رأى رجلين يصليان بجوار بعض فقال لهم :

{ إنَّ الرَّجُلَينَ مِنٍ أُمَّتِي لَيَقُومَانِ إِلَى الْصَّلاةِ وَرُكُوعُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَاحِدٌ ،وَ إِنَّ مَا بَيْنَ صَلاتَيْهِمَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ }

(أخرجه ابن المجبر في العقل من حديث أبي أيوب الأنصاري)

لماذا؟ ... على حسب النية والخشوع والحضور بين يدي الله جلَّ في علاه.

إذن لازم أنا أعتمد على الشريعة والحقيقة معاً : فلا يوجد مسلم متشرع فقط ، ولا مسلم متحقق فقط .

والمسلم المتشرع يعني يؤدي العمل بظاهره بدون حضور قلب ، وهذا عمل غير مقبول، والمسلم الذي يدعي الإسلام ويقول ما دام قلبي نظيفاً وطاهراً فليس مهماً هذه الحركات!! ، نقول له لا، لو كان لأحد أن يترك الصلاة لكان أولى بذلك سيدنا رسول

الله أو الخلفاء الراشدون، ولكن رسول الله ﷺ حتى في أنفاسه الأخيرة كان آخر كلامه للخلق (عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ،سنن ابن ماجه) :

{ الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ }

آخر حاجة وصَّى بها ... هي الصلاة وشدَّ رأسه بعصابة وسندوه وخرج متكأ على الفضل بن العباس وعلى علي بن أبي طالب حتى وصل إلى الصف ليؤدي الصلاة ليعلمنا أن الأمر كما قال (عن عثمان بن أبي العاص ، مسند أحمد بن حنبل):

{ لا خَيْرَ فِي دِينٍ لا رُكُوعَ فِيهِ }

فالدين الذي ليس فيه صلاة ليس بدين.

إذن المسلم متشرع ومتحقق : ... فأنت مسلم لأنك تقول باللسان "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" ، وأنت متحقق لأنه لا بد للقلب أن يقول مع اللسان "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" فإذا نطق القلب مع اللسان يكون ذلك حقيقة الإيمان.

أما الذي ينطق بلسانه "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" والقلب غير مطمئن بالإيمان نسميه منافقاً، والذي يدعي أن قلبه مطمئن بالإيمان لكن لم يحرك اللسان بشهادة أن لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله نسميه غير مسلم، لأنه لابد أن يكون الإسلام والإيمان معاً، الإسلام للظاهر والإيمان للباطن والإثنان يدلان على شيء واحد،

لكن هذا عمل الظاهر ، وهذا عمل الباطن.

أدرك أصحاب رسول الله ﷺ هذه الحقيقة :

فلم يكن أيامهم خلاف على الشريعة والحقيقة ، لأنهم يعلمون أن الشريعة هي ظاهر الأمر والذي يؤديه الجسم ، والحقيقة هي باطن العمل والنية التي يؤديها القلب ، والإثنان لا بد أن يكونا مع كل مسلم في كل عمل يؤديه إلى الله ﷻ ولذلك لم يفرقوا بينهما.

عُلُومُ الشَّرِيعَةِ وَعُلُومُ الْقُلُوب

كل ما حدث بعد ذلك، أن بعض الناس اهتموا بعلوم الشريعة ... يعني العلوم التي يحتاجها الناس في ظواهر أمورهم وحياتهم، وأناس آخرون كان كل همهم علوم القلوب التي تحتاجها القلوب لتؤدي العمل كما ينبغي لحضرة علام الغيوب ﷻ.

ومن هنا قالوا هؤلاء مهتمون بالشريعة ، يعني العمل الوارد في الشريعة ، وهؤلاء مهتمون بالحقيقة ، يعني العمل الذي يقوم به القلب والجنان ، لكن لا يوجد تفرقة بينهما.

ولذلك عندما تنظر إلى أئمة المذاهب الأربعة، نجد أنهم كانوا علماءاً وأولياء، أولهم سيدنا الإمام أبوحنيفة النعمان ﷺ، كان عالماً ملهماً في العلم ، ولكنه كان مع ذلك عالم عامل (وهو الولي) ... لأن الولي عبارة عن عالم عامل... عَلِمَ وَعَمِلَ فورّثه الله علم مالم يكن يعلم.

ولي يعني ... والى الله بالطاعات التي أمره بها الله ؛ فوالاه الله بالبشريات التي وعد بها الذين آمنوا وكانوا يتقون في كتاب الله.... هو والى الله بما فرضه عليه الله، فوالاه الله بما وعد به الصالحين في كتاب الله ، فالولاية في كتاب الله [٦٣سورة يونس]:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾

هذا ما عليهم .، والذي على الله[الآية(٦٤) يونس]:

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾

هو عمل ما عليه لله ، إذن لازم ربنا الذي لا يخلف الوعد والميعاد يوفي بما وعد به عباده الصالحين العاملين بشرع الله وسنة حبيبه ومصطفاه ﷺ.

فالإمام أبوحنيفة تلقى علوم الشريعة من أهل العلم الشرعي ، وبعد أن انتهى من علوم الشريعة ، ذهب إلى الإمام جعفر الصادق ﷺ وأرضاه ليتعلم منه علوم القلوب التي تصح الأعمال والتي تجعلها مقبولة عند الواحد المتعال.

فالشريعة تعلمنا كيفية العمل الشرعي ، والحقيقة تعلمنا تصحيح النية عند آداء العمل لينال القبول ويستشعر القلب عند العمل الخوف والوجل من الله ﷻ ، فصحب الإمام جعفر الصادق سنتين وقال بعدها:

"لولا السنتان لهلك النعمان" ... لماذا؟ ...، لأنه تعلم كيف يعمل العمل كما ينبغي أن يكون من أهل الخبرة الذين طبقوا العمل.... وما هي خبرتهم؟

– لما أحسنوا العمل أحسن الله لهم البشريات، فلما رأى الناس ما عليهم من البشريات من خالق البريات عز وجل، أي رأوا أن هذا الرجل طبق شرع الله ولما طبق الشرع واتته الرؤيات الصادقة.

– وأعطاه الله عز وجل علماً بغير تعلم..... ، وأعطاه الله فقهاً في الدين.... ، وأعطاه الله علماً من لدنه يسمعونه،،،،، ، ليس موجوداً في كتاب ! ، ولا يسمعونه من فم عالم مهما كان علمه..!!.

– ورأوا فيه دعاءاً مستجاباً كلما دعا ربه له أجاب.

– فعلموا أن له مكاناً عند الله لأنه صحح العمل لخالقه ومولاه.

فقالوا نصحب هذا الرجل لنعمل مثلما عمل ويعلمنا كيف نعمل لنبلغ الأمل الذي بلغه بهذا العمل، وهذه هي الأسباب التي جعلت الناس تصحب الصالحين ليتعلموا منهم احسان العمل الذي به ينالوا القبول وتأتيهم البشريات من ربَّ العالمين عز وجل لأن الله يقول في قرآنه (٣٠ الكهف) :

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾

لم يقل إنا لا نضيع أجر من عمل ، لكن قال من أحسن عملاً والعمل الذي فيه إحسان كيف نعمله؟ ...، ننظر لأهل الإحسان لنتعلم منهم كيفية الإحسان .

وما موقع الإحسان من الدين ؟، قال ﷺ فيه (رواه البخارى عن أبى هريرة) :

{ الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ }

فالإحسان هو المقام الأسمى في الدين ، فالإسلام يليه الإيمان ثم الإحسان، والإحسان هو المرتبة التي نريد أن نتعلمها من الصالحين في كل وقت وآن، وهذا موجود في دين الله وفي شرع الله كما أخبر النبي العدنان ﷺ، وممن نتعلم الإحسان؟

من أهل الإحسان ... كما نتعلم الشرع من أهل الشرع ، والإيمان من أهل الإيمان... ، نتعلم الإحسان من أهل الإحسان .... فأبوحنيفة تعلم على يد الرجل الصالح .... الإحسان.

ولذلك كان يمشي يوماً فسمع من يقول: هذا هو أبوحنيفة الذي يصلي الصبح بوضوء العشاء، فقال: يا رب أعني حتى أكون عند حسن ظنهم، وعاهد الله أن يصلي الصبح بوضوء العشاء حتى لا يكون الناس يقولون فيه ما لا يفعله، واستمر على هذا الحال أربعين سنة، يصلي الفجر بوضوء العشاء ...، هذا هو الجهاد الذي كان فيه الإمام أبوحنيفة رضي الله عنه وأرضاه:

كان يبيع ليأكل من عمل يده... ، كيف يصلي الفجر بوضوء العشاء؟..، يسهر طوال الليل وكيف يعمل بالنهار؟...: كان يذهب إلى حانوته بعد شروق الشمس ، ويظل إلى الظهر، وينام لحظات قليلة بعد صلاة الظهر يبارك الله فيها فتكفيه، ثم يدرس العلم بعد ذلك إلى طلابه إلى صلاة العشاء الآخرة...... كيف يتم له هذا الأمر؟ .... هذه هي بركة الوقت.

يأخذ رجل منه قرضاً، وذهب ليطلب القرض الذي أخذه منه، وكان الجو حاراً

فوقف في الشمس ورفض أن يقف في ظل جدار صاحب الدين، فسألوه : لم لا تقف في هذا الظل؟ ..، قال: أكره أن أقف في ظل بيته وهو مدين لي؛ حتى لا يكون نفعاً جرَّه القرض ((**كلُّ قرضٍ جَرَّ نَفْعًا فَهُوَ رِباً**)).

صحبه تلميذ صغير يتيم الأب، أمه تذهب به لتعلمه التجارة ... فيترك الحانوت ويذهب إلى أبي حنيفة، فتأتي وتأخذه، وتؤذي أبا حنيفة بكلامها، وتذهب به إلى التجارة، فيعود مرة أخرى ، فقال لها اتركيه، قالت له : إنه فقيرويتيم وهل ستطعمه؟ ، فقال لها:دعيه لا شأن لك به !، واتركي أمره لله ولي، فقالت: هل ستطعمه؟ ، فقال لها: هذا الولد سيأكل الفالوذج بدهن السمسم على مائدة الخلفاء ... فتركته له، وظل هذا الولد معه إلى أن حضرت الوفاة الإمام أباحنيفة ، فقال له: أوصني –واستمع إلى الوصية– فقال له: يا أبا يوسف، إن للوطواط مَنِيًّا كمني الرجال ، وهل هذه وصية!! ، لكن هؤلاء رجال الغيب ينظرون بنور الله:

﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ ١٢٢الأنعام

ومات أبو حنيفة وقعد أبو يوسف في مجلسه، ....ودخل هارون الرشيد الخليفة يوماً غرفة نومه عند زوجته –وهي ابنة عمه ولها حظوة عنده – فوجد على سريره منيًّاً كمني الرجال !! ... فهاج وماج... ، من الذي دخل هنا؟

وأقسمت أنها بريئة!، وأرادت أن تبرئ نفسها، وأرسلت في البلاد ليأتوا بالعلماء والمفتين حتى أحضروا كل العلماء الذين حول الخليفة ... والأكابر ولم يصلوا إلى أي تفسير أو تبرير، وسمع أبو يوسف بالأمر – حتى تتحقق وصية أبوحنيفة – فقال لهم: أنا عندي الجواب!! ، فأخذوه .... فلما حضر قال لهم: أدخلوني في المكان ، فأدخلوه المكان ، فنظر إلى السقف فوجد ناروزة – فتحة في سقف الغرفة – وفيها عشٌّ، فطلب سلماً ومصباحاً ، وصعد ، وأحضر الوطواط والوطواطه ، وقال لهم : إن للوطواط منياً كمني الرجال!!!

انظر إلى وصية العالم العامل لأنه عمل بقول حبيب الله ومصطفاه الذي رحمه له الله:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ ١٠٨يوسف

فانهالت على أبي يوسف العطايا من زوجة الخليفة ومن الخليفة، وأصبح مقرباً منه، وفي يوم من الأيام قدم له الخليفة صنفين من الطعام تحلية، وقال له: يا أبا يوسف كُلْ من هذا الصنف ... فإنا لا نصنعه إلا قليلاً ، فقال: ما هذا؟ ، فقال له : الفالوذج بدهن السمسم ، فأخذ يبكي فقال: لماذا تبكي؟ ..، قال: هذا هو ما قاله الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وأرضاه.

إذن أبو حنيفة عالم ؟ أم ولي؟ ... إنه عالم الأولياء ، وولي العلماء ، وكلهم كان على هذه الشاكلة ، فهذا مالك بن أنس من بعده رضي الله عنه:

كان لا يمشي في المدينة إلا حافياً ، ويرفض أن يركب دابة في شوارعها ، فسألوه عن ذلك، فقال: .. أخشى أن أطأ بحافر دابة أو بنعلي موطأ قدم رسول الله ﷺ ، وكان إذا أراد أن يقضي حاجته لا يقضيها إلا خارج المدينة إكراماً لرسول الله ﷺ، وإذا ذهب إلى مجلس الحديث ليدرِّس ... لابد أن يغتسل ويلبس أحسن ثيابه، ويضع الطيلسان –الشال النظيف– والعطر، فسألوه عن سر ذلك فقال: تدرون بماذا أحدث؟ ..إنني أحدث بحديث رسول الله ﷺ.

لما دخل عليه الخليفة أبو جعفر المنصور وهو جالس في مسجد رسول الله، ورفع صوته ، فقال له: اخفض صوتك يا أمير المؤمنين !، فإن الله مدح قوماً فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ٣ الحجرات

فقال له : أأتجه إليه وأدعو ؟، أم أتجه إلى القبلة وأدعو ؟ ..، قال له : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الجنة..!.

ماذا كانت النتيجة؟ ...: كان يقول: ما بت ليلة إلا ورأيت رسول الله ﷺ في المنام، ورؤية رسول الله يقول فيها ﷺ (رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه):

{ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَخَيَّلُ بِي }

وكذلك مثلهما الإمام الشافعي – أنا أذكر منهم أئمة المذاهب الفقهية ، وهم أئمة الشرع – بعد أن انتهى من الشريعة ، مشى مع الجماعة الصالحين ليعلِّموه كيفية العمل الذي به ينال مقام الإحسان والبشريات من رب العالمين ، فقال رضي الله عنه :

صحبت الصوفية سنتين فتعلمت منهم كلمتين: "الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، والثانية: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل".

وكذلك لما جاء إليه تلميذه سيدنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه وهو تلميذ الإمام الشافعي، كان في الأول يظن أنه غير محتاج إلى الصالحين فقال له: ... لا ... لازمهم ، تعالَ حتى نرى واحداً منهم راعي غنم أمي لا يقرأ ولا يكتب، فأخذه وذهب إلى البادية وذهبوا إلى الشيخ شيبان الراعي فسيدنا أحمد سأله:

ما حكم سجود السهو؟، فقال عندنا!، أم عندكم؟، فقال: وهل يوجد حكم عندنا وحكم عندكم ؟ ..، قال: نعم ! ، فقال له: نريد الحكمين ، فقال:.. أما في ظاهر الشريعة فمن سهى عن الله في الصلاة يجبر سهوه بسجود سجدتين لله، ولكن عند أهل الحقيقة : من سهى عن مولاه في الصلاة طرفة عين يرى أن قطع رقبته أهون عليه من السهو عن الله في الصلاة.

قال له: وما نصاب الزكاة؟، فقال: عندنا أم عندكم؟ ، فقال: وهل فيها عندناوعندكم؟ ، قال: نعم ! ، فقال: في الاثنين ، فقال له:.. زكاة الزروع نصابها كذا ،

وزكاة الإبل نصابها كذا ، وعدد له أنواع الزكاة ، فقال له: وأنتم ! ، فقال له: العبد وما ملكت يداه لسيده ومولاه! ، فقال: هل من دليل على ذلك؟ ، قال له: أبو بكر الصديق عندما أتى بكل ماله وقال له رسول الله: ماذا أبقيت لأهلك؟، قال: الله ورسوله ! ، فلم يعاتبه ، ولم يرفضه، ولم يلمه، ولم يرده بل أقرَّ فعله.

من بعدها اجتمع الإمام أحمد بن حنبل ﷺ وأرضاه على الصالحين في بغداد ، حتى وصل في حالة مع الله أن جاءه قوم بفتاه وقالوا له:

هذه بنت آتاها جني ولا يتركها لحظة من ليل أو نهار ، فقال لهم اذهبوا إليها وقولوا له: أحمد بن حنبل يقول لك اخرج وإلا ضربتك بالحذاء ، وأرسل معهم حذائه ! ، فخرج الجني وسلمت البنت .

وبعد ما مات ابن حنبل رجع الشيطان إليها مرة أخرى، فذهبوا إلى عالم من العلماء غير المتحققين ، مشغول بظاهر الدين ولا يتقن العمل على منهج الصالحين، فذهب إليها وقال للجني اخرج !، فقال: لن أخرج !، .. أخرج !، قال: لن أخرج ! ، قال: ولم أطعت أحمد بن حنبل ؟ ... قال: أحمد بن حنبل رجل كان يخشاه أهل السماء والجن والإنس ..... لأنه كان يخشى الله ﷻ .

كيف وصل إلى هذه الخشية؟ ... بالعلم والعمل.

هذا المنهج كان منهج سلفنا الصالح أجمعين.

فلو رجعنا إلى مشايخ الأزهر السابقين واللاحقين ، نجدهم أولياءاً وعلماء، كان الرجل منهم يتعلم علوم الشريعة في ساحة الأزهر، ثم يذهب إلى رجل من الصالحين ليتقن على يديه العمل بما علم، فتظهر عليه أنوار الحقيقة وتواليه البشريات.

منهم الشيخ الدردير، والشيخ البكري، والشيخ السمالوطي، وغيرهم، وختامهم الشيخ عبدالحليم محمود، الذي وقف على منبر الأزهر، وبشر الناس في ساعة حرب

رمضان المجيدة، وقال: جاء رسول الله ﷺ لرجل من الصالحين وقال له: ... إلحقني ، قال: إلى أين يا رسول الله؟ قال: إلى سيناء، ووجد خلفه الصحابة والصالحين، فبشَّرهم، وبشَّر المؤمنين بنصر الله في وسط معمعة القتال.

هذا شأن الصالحين في كل وقت وحين!

فأهل الشريعة هم أهل الحقيقة، لأن أهل الحقيقة ما عملوا إلا بالشريعة، ولو تركوا الشريعة طرفة عين... لأذاقهم الله ﷻ ألم البعد والبين....:

ولكنهم يجدون في الصلاة جمال..، ويجدون في الصلاة جلاء، ويجدون في الصلاة فقه، واجتباء، ويجدون في العبادات لذة ما بعدها لذة وهي لذة مناجاة الله ﷯.

فمن يفرق بين الشريعة والحقيقة لا يفقه وإنما يريد أن يقف عند ظاهر الحروف.

والقرآن الكريم حروف لها معاني ، فالكافرون. منهم من يحفظ هذه الحروف !، لكنه لا يفقه هذه المعاني ، فهل لو قرأ القرآن يثيبه الرحمن ﷻ ؟

فاتحة الكتاب سبع آيات ، يقرأها إنسان على مريض فيشفى في الحال، ويقرأها إنسان ألف مرة على مريض فلا يشفى .. ولا يأتيه الشفاء.

من أين يأتي الشفاء؟ ... من أنفاس هذا الرجل الصادق التي خرجت عند نطقه بكتاب الله ، يقول فيها سيدي أحمد بن عطاء الله ﷛ وأرضاه:

"كل كلام يخرج وعليه كسوة من نور القلب الذي خرج منه".

كسوة هذا الكلام هي التي تحقق الإجابة، وتحقق وصول هذا الكلام إلى قلوب السامعين والحاضرين، أو إلى نيل القبول عند رب العالمين ﷻ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢- الصُّوفيَّةُ والعَمَل

وقد ادعى بعض المشككين في الصوفية أيضاً:

أن التصوف يدعو إلى الضعف والذلة، والزهد في الحياة، وأن أصحابه قوم انطوائيون يكرهون الحياة ويحبون الجمود، ويباركون الخمول، ويعيشون على التسول والشعوذة، واستغلال الضعفاء والسذّج.

والتصوف ولله الحمد : .... في غنى عن الرد على هذه الافتراءات، فإنه دعوة قامت على الحق ، تدعو إلى الحق، وهو بريئ من هذه الاتهامات التي وُصم بها، لأنه في جوهره لايدعو إلا إلى القوة، وهو يكره الخمول... ويبعث النشاط في المريدين.

وأي نشاط أروع من الدعوة إلى عدم تضييع الوقت، وإحيائه بمختلف العبادات والفضائل، باعتبار أن الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك! .

وقد بلغ من فقه الصوفية أنهم جعلوا العمل للدنيا من الدين، لأنه من شيمة الأنبياء والمرسلين ، ولذلك لم يقروا أن يعيش الصوفي عالة على غيره، فكانوا يعملون ويكسبون رزقهم، وفي الوقت ذاته لا يصرفهم ذلك عن طاعة الله وعبادته. فالكسب عندهم فضيلة تحرر الانسان من ذلّ المسألة :...... ويعني الكسب أن الصوفي مشتغلٌ بشتى الحرف، والتجارات، وغير ذلك مما أباحته الشريعة على تيقظ أو تثبت بعيداً عن الشبهات، وقد تمسكوا بهذه المعاني وعاشوا من كدّ أيديهم.

ومما يدل على عناية الصوفية بالعمل وإقبالهم عليه :

هذه الألقاب المصاحبة لأسمائهم والتي اقترنت بشخصياتهم فأصبحت علامة مميزة وسمة غالبة ولايكادون يُعرفون إلا بها، ومن هذه الألقاب لمشاهير الصوفية: .. النسّاج،

والزجاجي، والصيرفي، والقصَّار، والجلاء، والورَّاق، والخزَّاز، والخوَّاص، والحمَّال والحلاج.

وقد كان الذي يدفعهم لهذه الأعمال اليدوية شيئان: تورعهم عن الشبهات المصاحبة للعمل مع الولاة والسلاطين، ورغبتهم في العيش في حرية أنفسهم لأنهم لا يريدون أن يكون عليهم سلطاناً لغير الله عز وجل.

بل إن الصوفية يربون الفرد على أن عمله عبادة، وعلمه عبادة، وقوته في سبيل الله عبادة، يقول الكلاباذي في كتابه ((التعرف على مذهب أهل التصوف)). في صدر الحديث عن الصناعات والحرف لدى الصوفية:

((ويشتغل العبد بها على حسب ما يشتغل في إتيان ما ندب إليه من النوافل لا على أنها تجلب إليه الأرزاق وتجر المنافع فحسب)) ويقول أيضاً: ((سبيل المكاسب عند الجنيد سبيل الأعمال المقربة إلى الله عز وجل)).

ولذلك نرى مشايخ الصوفية يحضون مريدهم على العمل، فهذا إبراهيم بن أدهم يقول لمريديه: عليكم بعمل الأبطال: الكسب من الحلال والنفقة على العيال.

والإمام عبد الوهاب الشعراني ينصح أتباعه من الصناع بقوله:

الاجتهاد في العمل وإتقانه يقوم مقام النوافل والتطوع للعبادة، وكان يقول للنجار: لتكن مسبحتك منشارك، وللزارع لتكن خلوتك حقلك، وللتاجر لتكن عبادتك أمانتك.

والدسوقي ﵁ يقول لأتباعه:

من لم يكسب قوته من عمله فليس منَّا ولو كان غنياً، والرفاعي يقول لمريديه:

تميزوا على الناس بحلية التصوف، وحلية التصوف أن تغني نفسك وأهلك قبل وردك وذكرك.

وقد قال في ذلك الأستاذ عبد الحفيظ فرغلي قرني في كتابه (التصوف والحياة العصرية) صـ ٤٩:

((ولاشك أن للأخلاق العالية التي تحلى بها الصوفية أثرها في العمل والإنتاج، وفي العلاقة التي تربط بين الناس والتعامل فيما بينهم، فالتصوف بأخلاقه العالية يدفع إلى الإخلاص والجد والدأب، وينفر من الكسل والخمول وإضاعة الوقت، ويدعو إلى إنكار الذات والتواضع، وحب الغير وخدمة المجموع، ويكره الحقد والحسد، والتشاحن والانتقام للنفس، ويحب التسامح ويحض عليه، ويبغض الشح وينقم عليه، إلى غير ذلك من الفضائل الكريمة التي وسعها التصوف، وتحقق بها أتباعه ومريدوه وسالكو طرقه، فأحبهم الناس ومالوا إليهم ولاشك)) انتهى.

ومن هذا يفهم أن الصوفية يأنفون تماماً من أن يكون أحد الأدعياء بين صفوفهم يتخذ من التكفف وسيلة لحياته، أما حالة التجرد التي نراها عند قلة من الصوفية، فهي أحوال فردية خاصة لايقاس عليها، ولم يندبوا أحدهم إلى التخلق بها.

حتى أن ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم ، حدّثته نفسه أن يتجرد ويترك الأسباب، فمنعه شيخه سيدي أبي العباس المرسي من ذلك قائلاً له:

صحبني إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة، ومتصدر فيها، فذاق من هذه الطريق شيئاً فجاء إلي فقال:يا سيدي، أخرج مما أنا فيه وأتجرد لصحبتك، فقلت له: ليس الشأن ذا ولكن امكث فيما أنت فيه خير وما قسم الله لك على أيدينا فهو إليك واصل ((التنوير في إسقاط التدبير لابن عطاء الله)).

ولذلك قال ابن عطاء الله في حكمه:

((إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية))

وقال أيضاً في بيان قيمة استغلال الوقت :

((إحالتك الأعمال إلى وقت الفراغ من رعونات النفس)).

ويكفي للتدليل على سمو شأن الصوفية، وكمال حالهم ما ورد عن الإمام الحسن البصري أنه قال: ((رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً ، فلم يأخذه، وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي)).

وكذلك ما روي أن ابراهيم بن أدهم حين تقابل مع شقيق البلخي سأله عن سبب سلوكه للطريق، فقال:

رأيت قنبرة عمياء على شجرة ونسراً يناولها الطعام في فمها، فإذا شبعت ملأ فمه ماءاً وسقاها، فقلت في نفسي: أأعجز أن أكون مثل هذه القنبرة فسلكت طريق القوم على التوكل، فقال ابراهيم بن أدهم ﷺ: ولم رضيت لنفسك أن تكون كالقنبرة العمياء ولم تجعلها نسراً !)) أما سمعت قول رسول الله ﷺ: **((اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى)).**

ولم يكتف الصوفية بالعمل فقط....بل ضربوا للناس المثل الأعظم على شدة ورعهم وحسن تعهدهم لأعمالهم عند قيامهم بها وفي ذلك يقول الدكتور حسين سيد عبد الله مراد في كتابه (المتصوفة في المغرب الأقصى) صـ ٩٩:

((وجدير بالذكر أن هؤلاء المتصوفة كانوا يحثون الرعاة ومن يملك الدواب ألا يجعلوا هذه الدواب ترعى في أرض الغير لأن ذلك مخالفاً للشرع، ولم يكتفوا بالنصح والإرشاد، بل ضربوا المثل، والقدوة الطيبة لأفراد مجتمعهم.

فمن المتصوفة من كانت له أبقار إذا حملها من داره لترعى، جعل على فمها كمامة لئلا ترعى في أرض أحد، فإذا وصل إلى أرضه أزال الكمامة عن فمها، وجعلها ترعى في أرضه، فإذا أراد أن يعود إلى داره أعاد الكمامة وساقها إلى داره)) انتهى.

وهذا إبراهيم بن أدهم ﷺ يعمل حارساً لبستان ببلاد الشام :

ويأتيه صاحب البستان ومعه ضيفان، فيطلب منه إحضار رمانة، فيحضرها وعند تناولها يجد طعمها مُذّا، فيطلب منه إحضار أخرى وعند تناولها يجدها كذلك، فيطلب ثالثة فيجدها على نفس الطعم.

فيتسائل غاضباً.!!. أتحرس البستان، ولا تعرف الحلو من المذ؟ ، فقال: يا سيدي اشترطت عليّ حراسة البستان، ولم تأذن لي في الأكل منه، فلم أتناول شيئاً منه قط.

وهكذا نجد لدى أئمة الصوفية الحرص الزائد على العمل وضرورته والحثَّ عليه، يقول الإمام أبو الحسن الشاذلي ﵁:

((من لا عمل له فلا يأتينا فمن لا خير فيه للدنيا، لا خير فيه للآخرة)).

ويقول سيدي أحمد البدوي ﵁:

((اكسب خبزاً ثم اعبد ربك.))

وكان القطب الدسوقي يقول:

((من لم يعمل بيده في سبيل عيشه فليس من أبنائي.))

وقال العلامة الهروي:

((كونوا سادة في دنياكم بعملكم حتى لا تمتهن الطريق.))

وأما بنان الحمَّال فقال:

((الإعراض عن الأسباب جملة يؤدي إلى ركوب الباطل.))

ومن هنا نعلم أن الصوفية الحقيقيين أوجبوا على الصوفي أن يكون له عمل يتكسب منه ويقتات، كما عملوا على إحياء الكرامة الإنسانية، فمنعوا التسول، ولم يبيحوا ترك الاكتساب، لأنه لا يجوز للصوفي أن يكون عالة على أحد.

- الصُّوفيَّة والسِّياسية

وقد اتهم بعض المعاصرين الصوفية كذلك:

بالسلبية والانعزالية لعدم انخراطهم في الأحزاب السياسية القائمة، وعدم رغبتهم في تولي المناصب ، وأرجعوا ذلك إلى خوفهم من الحكام، وعدم تحليهم بالجرأة والشجاعة ، واتهموهم كذلك بالتخاذل نحو الوطن والواجب حياله بدعوى أنهم لا يتحركون نحو القضايا المصيرية للأمة .

والحقيقة أن هذه التهمة تحسب للصوفية وليست عليهم.:

فالقوم قد اشتغلوا بسياسة نفوسهم، واهتموا بالإقبال بالكلية على الله عز وجل، وحافظوا على صفاء نفوسهم، ونقاء قلوبهم، فلم يسمحوا لشئ مهما كان شأنه أن يعكر صفوهم، وخاصة أن هذه الأحزاب يسيطر على معظم أفرادها الأهواء الشخصية والمصالح الذاتية، لكن القوم إذا جدّ الجد ووُجد شئ يمس جوهر الدين أو صلب العقيدة تجدهم كما قال الله عز وجل في شأنهم (٥٤ المائدة) :

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾

فهم لا يتحركون لأغراض شخصية أو نزوات فردية، وإنما يتحركون إذا كان هناك ما يمسُّ الدين أو الأمة الإسلامية.

إن الصوفي الحق لا يخشى أحداً في الوجود إلا الله، فهو صاحب النهي والأمر، وبيده الخير والشر، والنفع والضر، فلماذا يخاف غيره ويخشاه؟

والحق أن تاريخ الصوفية العظام يسجل لهم أنصع الصفحات في الجهاد في سبيل الله، والمجاهدة للظلمة من الحكام، وحث العامة على عدم الرضا بالواقع المر لأن شعارهم قول الله عز وجل (١١ الرعد) :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

❊ أليس الغزالي الصوفي هو الذي كتب إلى ابن تاشفين ملك المغرب عندما توالت الهزائم على المسلمين في الأندلس: ((إما أن تحمل سيفك في سبيل الله، وإما أن تعتزل إمارة المسلمين حتى ينهض بحقهم سواك)).

❊ أليس محي الدين بن عربي هو الذي قال للملك الكامل عندما تهاون في قتال الصليبيين: ((إنك دنيئ الهمة، والإسلام لن يعترف بأمثالك، فانهض للقتال، أو نقاتلك كما نقاتلهم)).

❊ وهذا الإمام أبو الحسن الشاذلي رغم فقد بصره، يذهب هو وأتباعه مع قافلة النور، تضم رجالات من أعظم الرجال في العلم والدين، العز بن عبد السلام، مجد الدين القشيري، محي الدين بن سراقة، مجد الدين الأخميمي، الفقيه الكامل بن القاضي صدر الدين، الفقيه عبد الحكيم بن أبي الحوافر، إلى المنصورة في ميدان القتال، ليحثوا الجند على الجهاد، ويعملوا على رفع روحهم المعنوية، حتى تم لهم النصر، ووقع لويس التاسع أسيراً في دار ابن لقمان.

ولم يقتصر دور الصوفية على جهاد أعداء الإسلام :

بل إنهم قادوا الثورات ضد الحكام الظالمين :

❊ فها هو الصوفي الكبير الإمام الدردير يقود الثورة الوطنية على الأمراء المماليك التي أشتعل لهيبها في عام ١٢٠٠هجرية ١٧٨٦ ميلادية، والتي أعلنت فيها لأول مرة حقوق الإنسان، قبل الثورة الفرنسية بثلاث سنوات، وكان من نتائج هذه الثورة المباركة، اعتراف المماليك بأن الأمة مصدر السلطات، وبعدم فرض ضرائب جديدة إلا برأي الشعب، واعترافهم الكامل بحرية الأمة وكرامتها.

وإن ننسى فلا ننسى:

* ثورة الشيخ سعيد الكردي النقشبندي في تركيا.
* وثورة الشيخ شامل النقشبندي في تركستان.
* وحركة السنوسيين في ليبيا.
* وحركة الدراويش في السودان.
* وثورة الأمير عبد القادر في الجزائر.
* وعمر المختار في ليبيا.
* وأخيراً ثورة الشيشان بقيادة أتباع الطريقتين القادرية والنقشبندية.

لقد كان كثير من قمم الصوفية الشوامخ يسارعون إلى خوض المعارك بلا خوف ولا وجل كشقيق البلخي وحاتم الأصم، يحكي الشيخ أمين النقشبندي في كتابه: ((ما هو التصوف)) صـ ٨٣ :

((أن جنكيز خان حاصر خوارزم ، وفاوض الشيخ نجم الدين رئيس الطريقة الكبروية على تركه المقاومة ، وخروجه من المدينة، لقاء العفو عنه ، وعن آلاف يحددهم الشيخ، ولكن الشيخ الذي كان عمره آنذاك ثمانين سنة رفض عروضه وقال: إننا لسنا بأفضل من غيرنا، وقاتل مع المقاتلين دفاعاً عن مدينتهم ، حتى قتل سنة ٦١٨ هـ)) انتهى.

جاء في كتاب نشأة التصوف للدكتور إبراهيم بسيوني صـ ١٠٠: ((لم يمنع بأس السلطان الزهاد من أن يطلقوا صيحاتهم الناقدة لأنهم كانوا يشعرون أنهم يعبرون عن الضمير الديني للأمة، وكثيراً ما أرهف الحكام أسماعهم لهذه الصيحات، ويضرب لذلك أمثلة منها:

* كتب ذر بن حبيش إلى عبد الملك بن مروان كتاباً وكان في آخره:

ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما يظهر من صحتك فأنت أعلم بنفسك، واذكر ما تكلم به الأولون:

إذا الرجال ولدت أولادها وبليت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

❊ ودخل أبو حازم الأعرج على بعض الخلفاء من بني مروان، فقال: ... يأبا حازم، ما المخرج مما نحن فيه؟.... ، فقال: تنظر إلى ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه، ... قال: ومن يطيق ذلك يا أبا حازم؟ ، قال: فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين)) انتهى.

وإذا نظرنا إلى تاريخ الصوفية المشرق :

وجدنا الصوفية في أعصب المواقف وأشدها يثبتون وجودهم، وأن صوتهم مرتفع بالتذكير للولاة والخلفاء لا يخشون في الحق لومة لائم.

❊ فقد ذهب هارون الرشيد إلى الفضيل بن عياض ليسمع وعظه ، فقال له فضيل حين سلّم عليه : ... ما ألينها كفاً لو نجت غداً من عذاب الله، ثم قال له: يا هارون إني أخاف عليك يوماً تزل فيه الأقدام فهل معك يرحمك الله من حاشيتك من يذكرك بهول هذا اليوم؟

❊ وحدث صاحب العقد الفريد في كتابه أن هارون الرشيد قال لابن السماك: عظني وأوجز، قال: كفى بالقرآن واعظاً يا أمير المؤمنين ، قال الله تعالى:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾

هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل ! ، فما ظنك بمن أخذه كله؟

❊ ولقي أبو جعفر المنصور سفيان الثوري في الطواف:

وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه، وقال: أتعرفني؟ قال: لا ولكنك قبضت علي قبضة جبار، قال عظني أبا عبد الله ، قال: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟ قال: فما يمنعك أن تأتينا؟ قال: إن الله نهى عنكم فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾

فمسح أبو جعفر يده ، ثم التفت إلى أصحابه فقال :

ألقينا الحبّ إلى العلماء فلقطوا، إلا ماكان من سفيان فإنه من أعياننا فراراً.

❊ ويقول صاحب تاريخ بغداد: ... إن المتوكل العباسي حينما ضاقت به الأرض وعصفت به الحروب، نادى أهل الفتوة الصوفية فهرعوا إليه من كل مكان، فكانوا جيشه الكبير الذي حمى الإسلام وصان حدوده.

❊ ويحدثنا الجبرتي أن هزيمة الفرنسيين في مصر كانت على أيدي رجال المقاومة الشعبية من أبناء الطرق الصوفية وشيوخها الذين جعلوا من الأزهر والأحياء الشعبية في القاهرة حصوناً لا تقتحم ومشاعل للثورة لا تخمد نيرانها.

❊ وكانت الفتوة الصوفية هي النجدة التي يستنجد بها صلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية كلما مالت به موازين النصر في ساحات القتال، كما يحدثنا بذلك القاضي الفاضل كاتبه ومؤرخه.

❊ والغزالي حجة الإسلام وقف حياته على تعليم الناس وتبصيرهم بأمور دينهم وأنفق حياته كاتباً ومذكراً ومعلماً.

❊ وكان الشعراني زعيماً روحياً وإماماً شعبياً ومجاهداً عظيماً في تحرير العقول

الإسلامية من الجمود والأساطير كما لم يشغله الجهاد عن سبيله في إنقاذ الجماهير من ظلم الولاة واستعباد الأمراء.

* ويقول علي مبارك عند حديثه عن جبروت الولاة الأتراك في مصر:

((ولكن هذا الجبروت كان ينحل أمام الصوفية.. وكان رجال التصوف من علماء الأزهر يقذفون بعطاء مُحَمَّد علي وسلالته في وجوههم لأن من يمد يده لا يتمكن من أن ينطق بكلمة حق أمام سلطان جائر.))

وهكذا نجد أنه :

- كم انبعثت عن التربية الصوفية أعمالٌ جهادية كان لها أثرها في تغيير المجتمع.
- وكم وقفت زوايا الصوفية في وسط أفريقيا أمام التبشير النصراني الحاقد.
- وكم عملت على نشر الإسلام والدفاع عنه.

لقد قام التصوف بدور كبير في نشر الإسلام في آسيا وأفريقيا وأندونيسيا وروسيا، ويقوم الآن بالدور الأكبر في نشر الإسلام في أوروبا وأمريكا.

هذا بالإضافة إلى أن الصوفية حملوا من قديم عبء محاربة الاستعمار، لما يحمله الصوفية من روح العزة الإسلامية، وخاضوا في سبيل ذلك حروباً قاسية في مختلف المستعمرات.

ولقد نقل الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلي القرني في كتابه: ((التصوف والحياة العصرية)) صـ ١٠٢ عن الزعيم الإسلامي إبراهيم إيناس شيخ الإسلام بأفريقيا ما يؤيد ذلك حيث يقول:

((الدليل الحاسم على أن التصوف هو الذي حمل عبء الجهاد ضد الاستعمار

هو أن رجاله الآن بعد التحرر هم زعماء أفريقيا، فرؤساء الوزراء صوفيون، وبعد أن ذكر أسماء بعضهم، وكذلك أسماء بعض السلاطين استطرد قائلاً: وفي الحقيقة والمسلمون بصدد ضرورة ملحة للوحدة الكاملة، لمواجهة مشكلاتهم وأعدائهم لا يجمع شملهم إلا التصوف بروحانيته المحلقة، وبصفائه العظيم، وبإشراقه الملهم، وبمثله العليا التي دعا إليها دينهم القويم، ونادى بها نبيهم الكريم ﷺ. .وختم حديثه قائلاً:

وأنا أعتقد أن وحدة العالم الإسلامي يمكن أن تتحقق عن طريق التصوف أو على الأقل يمكن أن ترتكز على الأخوة الصوفية الواضحة الأثر في كل مكان)) انتهى.

ونضرب مثلاً لهذا الجهاد ضد الاستعمار بالإمام أبي العزائم ﷺ :

عندما أحس بروحه الشفافة وبصيرته النافذة بأن هناك اتصالات تجري بين الشريف حسين في مكة والحاكم الإنجليزي في مصر (مكماهون) لضم الحجاز إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ضد تركيا.

فأعلن أنه ذاهب إلى مكة لأداء العمرة، وإن كان هدفه الحقيقي هو مقابلة الشريف حسين، ولما قابله طلب أن يكلمه على انفراد، وعرّفه بالمراسلات التي تمت بينه وبين الإنجليز وما دار فيها رغم أن أحداً لم يكن يدري بها بعد، وطلب منه في نهاية اللقاء أن يتخلى عن الإنجليز، ويساند إخوانه المسلمين وألا يذكر لأحد شيئاً مما دار في هذا اللقاء.

ولكن الشريف حسين أخبر الإنجليز بما دار بينه وبين الإمام أبي العزائم.

فأحسوا بالخطر نحوه وحاولوا استقطابه لجانبهم لكنه رفض كل ذلك، فطلبه الحاكم الإنجليزي في السودان (ريجنالد وينجت)) وطلب منه أن يكتب مبيناً للناس مساوئ الخلافة الإسلامية في تركيا، وما يرغبهم في التعامل مع الإنجليز باعتبارهم

يعملون لتقدم البلاد ورفاهيتها.

فقال له الإمام أبو العزائم ﷺ:

أتكتب ضد الإنجليز؟ قال: كيف هذا وأنا رجل متعلم؟ فقال ﷺ:

إذاً كيف تطلب مني أن أكتب ضد وطني وأنا معلم؟..!!.

ولم ييأس الحاكم الإنجليزي من ردّ الإمام أبي العزائم فتركه ينصرف، ثم دبّر مكيدة أخرى، فأقام حفلاً بنادي الضباط بالخرطوم دعا إليه الإمام أبا العزائم وكبار الشخصيات الإسلامية والإنجليزية بحجة التعارف بين المسلمين والإنجليز، ولكنه ﷺ رفض حضور هذا الحفل، وعندما سُئل عن سبب رفضه قال:

سأجيبكم في المسجد الجامع، وذهب إلى المسجد الكبير في الخرطوم، وكان غاصّاً بالمصلين، وقرأ عليهم قول الله ﷻ[٢٢المجادلة] :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

وأخذ يشرحها لهم بطريقة أثارت حماس الحاضرين، حتى كانت شبه مظاهرة على الإنجليز وأعوانهم، فأثار ذلك حنق الإنجليز وأقالوه من عمله بكلية الشريعة وردوه إلى مصر في أول أغسطس ١٩١٥م.

وعندما رجع إلى مصر أنشأ مطبعة المدينة المنورة، وأسس مجلة السعادة الأبدية، ومجلة الفتح، ومجلة المدينة المنورة، وأخذ ينشر بها مقالاته التي تلهب حماسة الجماهير، وتؤلبهم على المستعمرين والمستبدين وكان ذلك مما مهد لقيام ثورة ١٩١٩م)) [باختصار من كتابنا (الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي)]

ولما شبت تلك الثورة، كان للإمام أبو العزائم الدور الأكبر في إثارة الجماهير وتحريكهم للمطالبة برد الزعماء وهم سعد زغلول ورفاقه من المنفى، والمطالبة بالاستقلال والحكم الدستوري المستقل.

وفي ذلك سخر مطبعة المدينة المنورة لطباعة المنشورات السرية لزعماء الثورة.

وكتب فضلاً عن مقالاته في الصحف اليومية والأسبوعية في تلك الآونة كتاب الجهاد، ولما منعت السلطات إصداره، طبعه ووزعه سراً.

ولجأ إلى الأسلوب الرمزي، فكتب مسرحية ((محكمة الصلح الكبرى)) والتي يشير بها إلى مؤتمر الصلح الذي عقد بباريس، وصور فيها الحلفاء والمجتمعون على أنهم مجموعة من الوحوش المفترسة، والفريسة التي تتقاسمها تلك الوحوش هي الشعوب الضعيفة والمغلوبة على أمرها.

هذا بالإضافة أن مريديه كان لهم دور كبير في توصيل الرسائل والمنشورات بين أرجاء البلاد طولاً وعرضاً.

ولم يكتف الإمام أبو العزائم رضي الله عنه بجهاد المستعمر في مصر والسودان فقط بل أعلنها حرباً شعواء على المستعمر في كل بلد إسلامية، فاتصل بزعماء الإسلام في كل أنحاء العالم وتبادل معهم الآراء والرسائل، وحثهم على النهوض بمسئولياتهم الجسام في مواجهة أعداء الله وأعداء الإسلام.

وكان أبرز من اتصل بهم في ذلك جمعية العلماء بالهند ،وكبار الزعماء المسلمين

هناك وعلى رأسهم محمَّد علي جناح، ومحمَّد إقبال، وشوكت علي، وكفاية الله وغيرهم، واتصل بزعماء اندونيسيا وعلى رأسهم أحمد سوكارنوا ورفاقه، واتصل بزعماء المسلمين المجاهدين في مراكش والجزائر وتونس وليبيا وفلسطين ويوغسلافيا وألبانيا وغيرها من البلاد الإسلامية، حتى كانت داره ﷺ معقلاً يلجأ إليه هؤلاء الزعماء عندما يضطرهم المستعمر لمغادرة البلاد، وكان يفسح لهم صدور مجلاته، لينشروا فيها أفكارهم، ويعبروا فيها عن آرائهم.

وهو أول من حول مؤتمر الحج السنوي إلى مؤتمر عام، لبحث مشاكل المسلمين كما تهدف الشريعة السمحاء من جمع هذه الجموع المختلفة في مكان واحد، ووقت واحد، وذلك عندما دعا لعقد مؤتمر بمكة المكرمة أثناء موسم الحج في عام ١٣٤٤هـ ١٩٢٦م من أجل العمل لإحياء الخلافة الإسلامية بعد أن ألغاها مصطفى كمال في تركيا في ٢ مارس ١٩٢٤م.

فأجرى اتصالاته بزعماء المسلمين، وتم انعقاد المؤتمر نتيجة للاتصالات والجهود الضخمة التي بذلها، ولكن تدخلت الأهواء الشخصية ومن ورائها المخططات الاستعمارية، فلم يصل المؤتمر إلى قرار حاسم في شأن الموضوع الذي عقد من أجله، بل تحولت الجهود إلى مواضيع فرعية بعيدة كل البعد عن روح المؤتمر.

وهكذا نجد الصوفية قاموا بواجبهم في سبيل رفعة الأمة ،وإثارة الوعي بين طوائف الشعب ، والدعوة إلى الخير ، وتبصير الناس بواجبهم الديني والوطني.

وقد عبر عن ذلك معروف الكرخي ﷺ حيث يقول:

لا يكون الولي ولياً إلا إذا قام بواجبه حيال الأمة الإسلامية مصلحاً لأمورها، مفرِّجاً لكروبها، راحماً لأفرادها.

ويقول أيضاً:

إن في الذروة من الجهاد :

عمل المسلم في سبيل إخوانه، وعزة المسلمين،..... إن من صالح الدعاء أن يدعو الإنسان للأمة المحمدية مع كل ذكر وتسبيح.

والأمر يطول لو تتبعنا كل هذه النماذج المشرقة :

في قيامهم بواجب النصيحة للرعية وللحكام..... ، أو دخولهم ميادين القتال للجهاد في سبيل الله..... ، أو سعيهم الدائب لإثارة النفوس ضد الظلم والظالمين.....، أو عملهم المتصل لنشر الإسلام في كل أصقاع الأرض....

وفيما ذكرناه كفاية خوفاً من الإطالة.

٤- دعوى وحدة الوجود

وحدة الوجود، وفكرة الإتحاد والحلول، فكرة إلحادية قديمة، عريقة في العبادات الهندية، والديانات البوذية، وخلاصتها التي تقربها إلى العقول، أن أصحابها انقسموا إلى فريقين:

فريق يرى الله- سبحانه وتعالى عما يصفون- روحاً، ويرى العالم جسماً لذلك الروح، وإن الإنسان إذا سما وتطهر، إرتفع فالتصق بالروح- التي هي الله- ففنى فيها، فذاق السعادة الكبرى، وظفر بالخلود الدائم.

والفريق الثاني، يرى أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شئ في زعمهم هو الله، والله هو كل شئ، يتجلى تجلياً حقيقياً في كل شئ في الكون بذاته، فلا موجود إلا الوجود الواحد، ومع ذلك يتعدد بتعدد الصور تعدداً حقيقياً

واقعياً في نفس الأمر ولكن ذلك التعدد لا يوجب تعدداً في ذات الوجود، كما أن تعدد أفراد الإنسان لا يوجب تعدداً في حقيقة الإنسان، أو أن تعدد صور الإنسان الواحد في المرايا المجاورة لا تحتم تعدده.

تلك هي فكرتهم في وحدة الوجود.

وهي سفسطة لا يقبلها منطق ولا عقل ولا شرع، لأنها تُذهب بالشرائع كافة، والأديان جميعها، وتنال من الجلال والكمال الواجب لله سبحانه وتعالى، وتُبْطل الجزاء والعقاب، والجنة والنار، والحياة الأخروية، كما تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق فتجعل الخلق والخالق شيئاً واحداً.

هذا الإفك الأكبر، وهذا اللغو الإلحادي الفاجر هو الذي قذف به خصوم التصوف المتصوفة، وخاصة الأكابر منهم كالحلاج، والسهروردي، والشيخ محي الدين بن عربي، وإبن الفارض- وهم من هم إيماناً وكمالاً، وأدباً وخلقاً، ووحدانية وتقديساً لفاطر السموات والأراضين مما جعل الشعراني يقول:

((إن إبليس نفسه وهو مُلْهم الخبائث، لا يجرؤ على تلك القولة الملعونة، التي إرتكب أربابها أمراً إدّا، تكاد السموات يتفطّرن منه، وتخر الجبال هداً)).

ويقول أيضاً في المنن:

((وبعضهم رأى أن كل شئ في الوجود هو الله، وأن عين هذا الوجود الحادث هو عين الله، من الجماد والنبات والعقارب والحيات والجان والإنسان، والمَلَك والشيطان، ويجعلون الخالق هو عين المخلوق، من خسيس ونفيس، ومرجوم وملعون حتى إبليس، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون، ولا من كان في حبه مجنون، والذي أقوله: إن إبليس لو ظهر ونُسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه، وإستحى من الله تعالى، وإن كان هو الذي يْلقى إلى نفوسهم ذلك)).

وقد أجاب الدكتور عبد الحليم محمود ﷺ في كتابه (قضية التصوف) صـ ١٦١ عن هذا الموضوع بما يشفي الغليل فقال:

((وقد تتساءل: فيم إذن حوكم الحلاج وقُضي عليه بالقتل؟ إن أمر هذه القضية: قضية الحلاج: معروف سرها، وما كان سرّاً في يوم من الأيام.

لقد كان الحلاج قوة جارفة، كان مركزاً للجاذبية لا يُضارع، إلتفَّ حوله الناس أينما حلّ، ويسيرون حوله أينما إرتحل، وكان ككل صوفي، يحبُّ آل البيت، لأنه كان يحب الرسول ﷺ .

وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون في أن تكون الدولة لهم، وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت، نسل رسول الله صلوات ربى وتسليماته عليه ، وما دام الحلاج دعاية قوية تسير في كل مكان، وتتجه إلى كل بلد، فيجب– حفاظاً على أمن الدولة وتحصيناً لإستقرارها– أن ينكّل بالحلاج.

وما كان مقتل الحلاج دينياً قط، كلا، وإنما كان سياسياً بحتاً.

ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا، أن يأتوا بشهود الزور، وأن يَعِدُوا القضاة بالمال والترقية، وأن ينفذوا أهوائهم ، فكان ما كان من قضية ومن قتل .. والدين من كل ذلك براء، والألفاظ التي ينسبونها للحلاج ليست في كتاب من كتبه، وكتبه– وبعضها موجود– لا تسند خصومه ولا تؤيدهم)).

ثم يضع ﷺ قاعدة عظيمة للبحث في هذا الباب فيقول:

((إن المنطق الصحيح: ألا يفتي المهندس في أبحاث الأطباء، وألا يحكم الأديب بإعتباره أديباً، في أعمال المهندسين، ومن العدالة– على هذا الوضع– ألا يحكم على هذه القمم الشامخة إبن عربي، والحلاج، وإبن الفارض، من لم يبلغ مداهم أو يقاربه)).

ثم يستشهد بأقوال الأئمة الأعلام على ذلك فيقول:

((أما الإمام الشافعي– رضوان الله عليه– فإنه يقول عن خصوم سيدنا محي الدين: ((إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تُريد إزالته من مكانه، وتذهب الريح بأمم من الناموس، وتبقى الجبال شوامخ راسيات، بها تثبت الأرض، وبها يحفظ ميزان الدنيا)).

والرأي الذي لا يتأتي غيره من المنصف، الرأي الحق، هو ما قاله الإمام الشعراني عن الصوفية عامة، وعن سيدنا محي الدين خاصة:

((ولعمري إن عباد الأوثان لم يجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله، بل قالوا:

ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فكيف يُظن بأولياء الله أن يدّعوا الإتحاد بالحق سبحانه، هذا محال في حقهم، ﷺ)) أ. هـ [قضية التصوف صـ ١٦٣].

وما بالنا نذهب بعيداً، وهذه كتب سيدي محي الدين موجودة بيننا، وليس فيها ما يدعيه هؤلاء بل إن بها ما يكذب دعواهم، وها نحن ننقل منها بعض النصوص التي تؤيد ذلك ، يقول الإمام محي الدين بن عربي في عقيدته الوسطى:

((إعلم أن الله سبحانه واحد بإجماع، وقيام الواحد يتعالى أن يحلّ فيه شئ، أو يحلّ هو في شئ، أو يتحد بشئ)).

ويقول في باب الأسرار من الفتوحات:

((لا يجوز للعارف أن يقول أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب، وحاشا للعارف من هذا حاشاه)).

ويقول أيضاً في لوائح الأنوار: ((من كمال العرفان شهود عبد ورب، وكل عارف نفي شهود العبودية في وقت ما، فليس بعارف، وإنما هو في ذلك الوقت صاحب حال وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده)).

ويقول في الفتوحات:

((لا حلول ولا إتحاد، فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالإتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول، ومَنْ دينه معلول)).

ويقول في باب الأسرار:

((أنت أنت. وهو هو. فإياك أن تقول كما قال العاشق، أنا من أهوى ومن أهوى أنا، فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة، لا والله، والجهل لا يُتعقل حقاً)).

وقال أيضاً: ((إياك أن تقول أنا هو وتغالط، فإنك لو كنت هو لأحطت به كما أحاط تعالى بنفسه))، ثم يقول:

((لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته، والمَلَك عن ملكيته، ويتحد بخالقه تعالى، لصح إنقلاب الحقائق، وخرج الإله عن كونه إلهاً، وسار الحق خلقاً؟ والخلق حقاً؟، وما وثق أحد بعلم، وصار المحال واجباً، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً)).

ويقول الجنيد رضى الله عنه و أرضاه شيخ الطريقة في الرد على الفجرة الفسقة أصحاب وحدة الوجود:

((إن هذا كلام ..... من يقول بالإباحة، والسرقة والزنا عندنا أهون حالاً ممن يقول بهذه المقالة)).

وسُئل العارف الرباني الإمام سهل بن عبد الله التستري عن ذات الله ﷻ فقال:

((ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالإبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان، من غير حدّ ولا حلول، وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنة ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالإبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية)) .

ويقول أيضاً مخاطباً الغرور البشري، والوجود الإنساني:

((يا مسكين ! كان الله ولم تكن، ويكون الله ولا تكون، فلما كونك اليوم صرت تقول: أنا، وأنا، كن الآن كما كنت قبل تكوينك، واعرف فاقة نفسك وحقارتها، ونزلها منزلتها من الذلة والاحتقار)).

٥- إتْهام الصُّوفية بالحلول والإتحاد

وللسائل أن يسأل فكيف إذن نسبت هذه الدعوة إلى التصوف، أو إلى بعض المتصوفة؟ ،يجيب الشعراني رضي الله عنه عن ذلك إجابة مانعة جامعة فيقول:

((ومن يقول لا موجود إلا الله، فذلك من مقام المريد المبتدئ، لأنه من شدة تعشقه في الطريق، وترحل قلبه عن محبة غير الله تعالى، يصير قلبه محجوباً عن شهود الأكوان، كما يقع لصاحب المصيبة إذا مات له ولد، أو تلف له مال، فإنه من شدة المصيبة يصير يدخل الدار ويخرج، ولا يرى صاحبه الجالس على بابه، فإذا سُئل: هل رأيت فلاناً قال: لا، فإذا قيل له: لقد كان أمامك، قال، والله من شدة الهم ما رأيته)).

ثم يقول: .... وليس مراد المبتدئ في الطريق، أن ينفي وجود العالم كله، كما يظن من لا علم له بأحوال أهل الطريق، بل مراده أن الله تعالى قد أخذ حبه بمجامع قلبه، حتى حجبه عن شهود خلقه، وإذا كان النساء اللاتي خرجن على يوسف عليه السلام ذُهلن عن أنفسهن، حتى قطّعن أيديهن، ولم يشعرن بألم القطع، فكيف بذهول من تعلّق قلبه بحب ربه، وشاهد من آياته الكبرى .

وقد ورى القشيري عن الشبلي أنه كان يزور في بداية أمره شيخه الحصري كل يوم جمعة، فقال له شيخه يوماً:

يا أبا بكر، إن خطر في بالك غير الله تعالى من الجمعة إلى الجمعة، فلا تعد تأتينا، فإنه لا يجئ منك شئ)).

ذلك هو أدب الطريق الصوفي الذي يلقنه الشيوخ للمبتدئين..... :

أن ينفوا الوجود عن وجودهم.... ، بل عن خواطرهم .... ، وتمتلئ كل جوارحهم بذكر الله ، وحب الله.....، وجلال الله......

تلك معنويات عليا يتذوقها المؤمنون العابدون، ولا شأن لها بما أراد المضللون الذين توهموا في هذا القول المنير وحدة الوجود، أو الإتحاد والحلول.

لم ينف المتصوفة بهذا القول الإيماني العظيم وجود الكون، ولم يتصوروا، بل لم يجل بخواطرهم أن معنى ذلك وحدة أو حلول بل إنهم قوم حجبتهم المحبة عما سوى الله، فلم يروا في الكون سواه، وهذه ليست مسألة حسية ، و إنما معنوية وجدانية أي ليس معناها أن الكون قد زال أو فنى، وإنما معناها أن القلب المحبَّ قد إستغرقه جلال محبة الأعظم، فلم ير إلا إياه.

يقول الشعراني: ... ((أجمع أهل الحق على أن حقائق الأشياء ثابتة، فكيف يصح نفيها، إنما العبد يُحجب عنها بما دهمه من الأمور العظيمة، قيل للشبلي: ما التوبة؟ ، قال: ألا تشهد في الدارين سواه، أي لا تشهد في الدارين خالقاً، أو رازقاً، أو مؤثراً ومدبراً سواه، وإن شهدت لأحد وساطة أو أثراً في عمل ما، فلا تلتفت إلى ذلك)).

وليس معنى هذا أن لا نشهد غير الله أصلاً من جميع الأكوان، فإن ذلك لا يصح للمقربين وذلك معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه:

أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد:

((ألا كلّ شئ ما خَلا الله بَاطِلُ)).

أي كالباطل، من حيث إن كل شئ قائم بالله تعالى لا بنفسه، فإن شاء الله أبقاه، وإن شاء أذهبه في لمح البصر أو هو أقرب)).

ذلك إذن فناء المبتدئين، أو مقام المريدين، أو حجاب السالكين، في أول الطريق،

يحجبون بحب الله عما سواه.

أما الكمل السادة :

فقد إرتفعوا فوق تلك المعاني، ولم يقفوا مع هذه العقبات، بل رءوا الله ﷻ، ورءوا الكون أيضاً وذلك أكمل ألوان العبادات.

وفي ذلك يقول السراج الطوسي في اللمع:

((فإن وُجد في كلام الكمل من المتصوفة معنى الفناء في الله جل شأنه، فالمعنى الصحيح المقصود من ذلك، أن الإرادة للعبد، وهي من عند الله عطية، ومعنى خروج العبد من أوصافه، والدخول في أوصاف الحق، خروجه من إرادته، ودخوله في إرادة الحق، وذلك منزل من منازل أهل التوحيد ، وأما الذين غلطوا في المعنى، إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم، حتى ظنوا أن أوصاف الحق هي الحق، وهذا كله كفر، لأن الله تعالى لا يحلّ في القلوب، ولكن يحلّ في القلوب الإيمان به، والتوحيد له، والتعظيم لذكره)).

ويقول الهجويري واصفاً الفناء ((بأنه فناء إرادة العبد في إرادة الله، لا فناء وجود العبد في وجود الله)).

ذلك هو الفيصل بين المتصوفة وخصومهم، فالفناء الصوفي فناء معنوي، لا فناء مادي كما توهم المتوهمون.

يقول القشيري في باب الفناء:

((ومن إستولى عليه سلطان الحقيقة، حتى لم يشهد من الأغيار، لا عيناً، ولا رسماً، ولا طللاً، يقال أنه فنى عن الخلق، وبقى بالحق)).، ثم يقول:

((وفناؤه عن نفسه، وعن الخلق، بزوال إحساسه بنفسه وبهم، فإذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال، فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجوداً، وإذا قيل

فنى عن نفسه، وعن الخلق فنفسه موجودة، والخلق موجودون، ولكنه لا علم له بهم، ولا به، وقد نرى الرجل يدخل على ذي سلطان، فيُذهل عن نفسه، وعن أهل مجلسه، هيبة، حتى إذا سُئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه، لم يمكنه الإخبار بشئ)).

هو فناء إجلال وحب إذن ......

لا فناء عين ..... ، فناء القلب المستغرق في أنوار الجلال الإلهي عما سواه.

٦- إبن تيمية ومقام الفناء

ومن عجب، أن مقام الفناء، الذي اتّهم فيه المتصوفة بوحدة الوجود تارة، والإتحاد والحلول تارة أخرى، مقام من صميم التوحيد الإسلامي، بل هو المقام الذي ترتكز عليه العبادات الربانية كافة، حتى أن ابن تيمية - رغم شهرته بمهاجمة الصوفية - يخصص لشرحه في كتبه مكاناً، لم يخصصه لغيره من مواقف الفكر الإيماني.

يقول الإمام ابن تيمية في كتابه (العبودية) صـ ٩٦ متحدثاً عن مقام الفناء في المحبة الإلهية:

((الفناء عن إرادة ما سوى الله، بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب من غيره.

وهو المعنى الذي يجب أن يُقْصد، بقول الشيخ أبي يزيد حيث قال:

أريد أن لا أريد: أي المراد المحبوب المرضي، وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العرض، أن لا يريد، ولا يرضى، ولا يحب، إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، وهذا معنى فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، قالوا هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله، فالمعنى واحد، وهذا المعنى إن سمى فناء، أو لم يسم، وهو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره)).

ثم يتحدث ابن تيمية عن المقام الثاني من مقامات الفناء فيقول: ((وأما النوع الثاني فهو الفناء عن شهود السوى، وهو يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط إنجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، ضعفت قلوبهم عن أن تشعر غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد لا يخطر بقلوبهم غير الله بل ولا يشعرون، كما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾، قالوا فارغاً من كل شئ إلا من ذكر موسى.

وهكذا كثيراً ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور...: إما حب، وإما خوف، وإما رجاء، يبقى قلبه منصرفاً عن كل شئ إلا مما قد أحبه، أو أخافه، أو طلبه، بحيث يكون عند إستغراقه في ذلك، لا يشعر بغيره، فإذا قوي على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن – وهي المخلوقات المبعدة ممن سواه – ويبقى من لم يزل، وهو الرب تعالى ، والمراد فناؤه في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها او يشهدها، وإذا قوى هذا ضعف المحب، حتى يضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر أن رجلاً ألقى نفسه في اليم، فألقى مُحبّه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت، فما أوقعك خلفي، قال: غبت بك عني فظننت إنك أني)).

ويقول ابن تيمية في مجموعة رسائله صـ ٥٢ :

((وأما قول الشاعر في شعره: (أنا من أهوى : ومن أهوى أنا) ، فهذا إنما أراد به الشاعر الإتحاد المعنوي، كإتحاد أحد المحبين بالآخر، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثل ما يقول، ويفعل مثل ما يفعل، وهذا تشابه وتماثل، لا إتحاد العين بالعين، إذا كان قد استغرق في محبوبه حتى فنى به عن رؤية نفسه، كقول الآخر :..(.غبت بك عني : فظننت أنَّك أنِّي) ، فهذه الموافقة هي الإتحاد السائغ)).

ويقول ابن تيمية أيضاً في الرسائل: ..((روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قوله «مَنْ عَادَىَ لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بالمُحَارَبَةِ» ،فقوله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، جعل معاداة عبده الولي، معاداة له، فعين عدوه عين عدو عبده، وعين معاداة وليه عين معاداته، ليسا هما شيئين متميزين (ليسا مختلفين))).

وهكذا لا نجد رداً على خصوم الصوفية، الذين هاجموهم في مقام الفناء، واتخذوا منهم تكئة لإتهامهم بوحدة الوجود، وفكرة الإتحاد والحلول، أبلغ من هذا التفصيل الرائع لمقامات الفناء الذي كتبه ابن تيمية رحمه الله ، ولا نجد شاهداً أكبر دلالة مما استشهد به هو من القرآن الكريم:

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ ﴾

أي فارغاً مما سوى موسى.

وقلب المتصوفة لشدة حبهم لربهم، أصبح فارغاً مما سوى الله ﷻ ....وربنا سبحانه أكبر وأعظم من أن يشبَّهُ بعبد من عباده .... أو برسول من رسله....

والله الموفق والمعين.

٧- الصُّوفيَّة و الذِّكر

- فائدة الذِّكر الصحيَّة و النفسيَّة
- المناعة الإِيمانيَّة
- أثر المناعة الإِيمانيَّة
- الغرب والعلاج بالقرآن
- أثر القرآن الكريم على النفس البشريَّة
- أثر الصلاة النفسي
- الإِيمان والحياة

الصُّوفيَّة و الذِّكر

• فائدة الذِّكر الصحيَّة و النفسيَّة

قد يتساءل بعض الناس ما فائدة حلقات الذكر وتلاوة القرآن وغيرها من أنواع العبادات التي يرددها الإنسان بلسانه على الإنسان في جسمه وبدنه؟ ..، فالفائدة المؤجلة من الثواب والحسنات لا يشك فيها أحد.

لكن لأننا في عصر تغلغلت فيه المادية في كل نواحي الحياة أصبح الناس يقيسون حتى أمور الدين بالمكاسب المادية التي تعود عليهم في حياتهم الدنيوية ، وإلى هؤلاء نقول:

ثبت في العصر الحديث الذي نحن فيه الآن، أن أكثر من ٩٠% من أمراض الأجسام التي ظهرت في عصرنا سواء أمراض الجهاز الهضمي، أو التي تصيب الجلد، أو التي تصيب الشعر، أو التي تصيب القلب، وحتى بعض حالات العين، أكثر من ٩٠% من هذه الأمراض يردّها الأطباء إلى الحالة النفسية، ويقولون أن هذا المرض سببه نفسي، وذلك بعد أن يعجزوا بالأدوية الطبية والعلاجات الجراحية في مداواة هذه الأمراض، فيردّونها إلى الحالة النفسية التي جاءت بهذا المرض.

إذن ولله سبحانه وتعالى الحكمة البالغة:

كما أنه في زماننا قلت المناعة المكتسبة في أجسام الناس ، نتيجة أصناف المأكولات التي تَدّخل فيها الإنسان بالمبيدات والهرمونات، ونتيجة الإرهاق المتواصل من أجل الحصول على لقمة العيش، فأصبحت المناعة الجسمانية قليلة في أجسامنا البشرية، مما عرّضها وجعلها سهلة التعرض للإصابة بالأمراض الجسمانية....

كذلك الحال يا إخواني بالنسبة للمناعة النفسية الإيمانية.

• المناعة الإيمانيَّة

فإن المناعة الإيمانية التي يكتسبها الإنسان ، عن طريق المداومة على ذكر الله وكثرة الإستغفار لله، والإكثار من الصلاة والتسليم على رسول الله، والمحافظة على الصلاة وغيرها من ألوان العبادات....

هذه العبادات تزيد المناعة الإيمانية في قلب الإنسان فتجعله لا يتقلب ولا يتأثر بسرعة مما يعتري الإنسان في عالم الناس من كوارث أو مصاعب أو متاعب أو مصائب أو اهتزازات نفسية، نتيجة لأي أمر يعرض له في مسيرته الكونية.

فالقلب إذا كان عامراً بالإيمان، كان جهاز المناعة الإيمانية في الإنسان قوياً ، فلا يتأثر بما يعتري الإنسان من حوادث ومصائب وكوارث ، وبالتالي لا تؤثر هذه الأحداث على أعضائه الجسمانية في صورة أمراض بشرية ، يعجز عنها الأطباء والحكماء في أي مكان ، أو في أي بلد من البلدان.

فالأذكار والعبادات تقوي المناعة الإيمانية في قلب الإنسان ، فتجعل الإنسان مهما يتعرض له في الأكوان تجده كالجبل الأشم... هل تستطيع الرياح أن تزحزح هذا الجبل عن مكانه؟ ، أو هل تستطيع الأعاصير الشديدة أن تقتلع هذا الجبل من جذوره؟

• أثر المناعة الإيمانيَّة

فكذلك هنا.....

الإنسان الذي حدث له في قلبه المناعة الإيمانية، لو جاءته عواصف التيارات الإلحادية التي يصدرها لنا عالم الغرب، أو انتابته رياح الشدائد والابتلاءات الدنيوية،

أو تفجرت في نفسه براكين الكوارث التي تنشأ على غير سابق استعداد...

تجده ثابتاً كالجبل، لا تزلزله هذه الرياح ، ولا تحركه تلك العواصف، لأن الإيمان بالله عز وجل الذي في قلبه ... يقوم بمقام جهاز المناعة في جسم الإنسان إذا تعرض للجراثيم أو الفطريات، فإذا كان جهاز المناعة قوياً يردّها على أدبارها فلا يمرض الإنسان، وكذلك لو كان جهاز المناعة الإيماني قوياً ، لا تؤثر الكوارث والمصائب والأوقات العصيبة على إيمان الإنسان، وبالتالي لا تؤثر على البنيان، لأن ثبات الإيمان يمنع زلزلة هذا البنيان.....

ويكون هذا المرء من عباد الرحمن الذين ليس للشيطان عليهم سلطان.

• الغرب والعلاج بالقرآن

ومن عجب أنه في عالم الغرب الآن...

بدأوا يعودون في المصحات النفسية إلى العلاجات والأشفية الإسلامية والقرآنية، فقد حكى لي صديق جاء من أمريكا حديثاً:

أنه تصادف عند ركوبه للتاكسي في نيويورك كلما ركب تاكسياً وجد شريطاً للقرآن الكريم، فلما وجد انتشار هذه الظاهرة سأل أحد السائقين، هل تفهم هذه اللغة ؟ .. قال: لا أعرف العربية ، فقال له: هل أنت مسلم؟ ، قال: لا ! ...، قال: إذن لم تدير هذا الشريط في سيارتك؟

قال: إني أحس براحة نفسية عند سماع هذا الشريط، لا أعلم كنهها، ولا أدري لها سبباً....!!!... فيستمعون إلى القرآن وإن كانوا لا يفهمون لغته ولا معانيه، لأنهم يجدون راحة نفسية عند سماع القرآن ، وصدق الله عز وجل إذ يقول(٨٢الإسراء) :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٥٧يونس

• أثر القرآن الكريم على النفس البشريَّة

وقد اجرى الدكتور أحمد القاضي، بحثاً على المرضى من مختلف الأجناس لبيان أثر القرآن الكريم عليهم، وقدم هذا البحث في المؤتمر العالمي الثالث للطب الإسلامي المنعقد في اسطنبول بتركيا في سبتمبر ١٩٨٤م ، وسوف أنقل للقارئ فقرات موجزة من هذا البحث

((هناك اهتمام متزايد بالقوة الشفائية للقرآن والتي وردت الإشارة إليها في القرآن نفسه، وفي تعاليم الرسول ﷺ، وحتى وقت قريب لم يكن من المعروف كيف يُحدث القرآن تأثيره، وهل هذا التأثير عضوياً أم روحياً أم خليطاً من الإثنين معاً، ولمحاولة الإجابة على هذا السؤال:

بدأنا في العام الأخير اجراء البحوث القرآنية في عيادات أكبر في مدينة "بنما سيتي" بولاية فلوريدا، وكان هدف المرحلة الأولى من البحث هو إثبات ما إذا كان للقرآن أي أثر على وظائف أعضاء الجسد، وقياس هذا الأثر إن وجد، واستعملت أجهزة المراقبة الإلكترونية المزودة بالكمبيوتر لقياس أي تغيرات فسيولوجية عند عدد من المتطوعين الأصحاء عند استماعهم لتلاوات قرآنية.

وقد تم تسجيل وقياس أثر القرآن عند عدد من المسلمين المتحدثين العربية، وغير العربية، وكذلك عند عدد من غير المسلمين، وبالنسبة لغير المتحدثين بالعربية مسلمين كانوا أو غير مسلمين، فقد تليت عليهم مقاطع من القرآن باللغة العربية، ثم تليت عليهم ترجمة هذه المقاطع باللغة الإنجليزية...

وفي كل هذه المجموعات أثبتت التجارب المبدئية وجود أثر مهدئ مؤكد للقرآن في ٩٧% من التجارب المجراة ، وهذا الأثر ظهر في شكل تغيرات فسيولوجية تدل على تخفيف درجة توتر الجهاز العصبي التلقائي))

وإني أعجب لأن أهل الغرب الذين ركبتهم المادة وسيطرت على كل حركاتهم وسكناتهم يستمعون إلى كتاب الله على الرغم من عدم فهمهم له....

ونحن أهل القرآن نحرم أنفسنا حتى من سماعه ولو في خمس دقائق كل يوم، نحرم أنفسنا من قراءة صفحة منه كل يوم، ثم بعد ذلك نشتكي من الأمراض، والهموم، والغم، والقلق، والتوتر النفسي، وعندنا الشفاء نازل من السماء، ولكننا نبخل على أنفسنا بالشفاء الذي لا يكلفنا ولو مليماً واحداً.....

بل إنه ينفعنا في الدنيا في صحة أجسامنا ونفوسنا، وينفعنا في الآخرة بالحسنات والقربات التي يدخرها الله عز وجل لنا، فذكر الله عز وجل هو السبيل الوحيد لعلاج أمراض النفوس، وعلاج حالات القلق والأمراض النفسية التي انتشرت في عصرنا، والتي ترتب عليها كثيراً من الأمراض الجسمانية، ولذلك يقول الله عز وجل لنا مظهراً هذه الحقيقة:

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ﴾ المعارج

لماذا استثنى الله عز وجل المصلين؟

• أثر الصلاة النفسي

كشف لنا العلم الحديث عن هذه الحقيقة! ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور طاهر توفيق في كتابه (القرآن والإعجاز في خلق الإنسان) صـ ٩٨ فقال:

((إن الإنسان إذا سمع خبراً سيئاً ، أو جزع من أي خبر أو هلع من أي حادث فإن المخ يرسل شحنة كهربائية جبارة ضاربة تخترق الجزء الأسفل منه وهو قناة "الهيبوثالامس"، لتنزل إلى أي مركز من المراكز اللإرادية، فإن أصابت هذه الشحنة مكان التمثيل الغذائي؛ فقد تضر هذا المركز ويصاب الإنسان بالسكر مثلاً أو بارتفاع الكولسترول، وإن نزلت هذه الشحنة إلى مكان تنظيم ضغط الدم؛ قد يصاب الإنسان بمرض ارتفاع ضغط الدم، وإذا أصابت أحد الغدد الصماء أصيب الإنسان بخلل في وظائف هذه الغدد، وإذا نزلت هذه الشحنة في مراكز إفراز حامض الهيدروكلوريك مثلاً بالمعدة فقد يصاب بفقد الشهية لنقص إفراز هذا الحامض ؛أو بعسر الهضم وقرحة المعدة نتيجة إفراز هذا الحامض في المعدة ....

وهكذا كثيراً من الوظائف اللإرادية تتأثر بالشحنة الكهربائية التي تنزل من المخ وتخترق "الهيبوثالاماس" وتتوجه إلى مركز لاإرادي فتتسبب في إصابته بإصابات تختلف من شخص إلى آخر))

ثم يوضح تأثير الدعاء والذكر فيقول صـ ١٨٩ من نفس الكتاب:

وهذه الإشارات الضارة المفاجئة تمر عند نزولها بقناة عصبية تسمى "هيبوثالاماس" ، ووظيفتها امتصاص هذه الإشارات الضارة ، والحد من وصولها للجسم ، ووظيفة هذه القناة تقوى بالصلاة والإيمان والرضى بقضاء الله وقدره، وتضعف هذه القناة وتفشل في أداء وظيفتها الهامة بالبعد عن الله، وترك الصلاة، وعدم الصبر والرضى عند الشدائد، فإذا قويت هذه القناة ؛ منعت جميع الإشارات الضارة

من الوصول إلى أعضاء الجسم مسببة ضررها .

وإذا ضعفت؛ اختلت وظيفتها... مما يؤدي لوصول هذه الإشارات إلى أجزاء الجسم المختلفة محدثة ما ذكرناه سلفاً.

وقد تكون هذه الإشارات الواردة للجسم شديدة، نتيجة حزن شديد، أو صدمه عنيفة،..... وهنا تصبح قناة (الهيبوثالاماس) غير قادرة على منع كل هذه الإشارات من الوصول لأجزاء الجسم، وهنا يحول المخ الباقي من هذه الإشارات ويوجهها إلى أجهزة وأعضاء بالجسم، يكون زيادة نشاطها وعملها غير مضر مثل الغدة الدمعية، فيزرف الدمع، وهو كما نعلم مفيد جداً في غسيل العين، أو مثل عضلات القفص الصدري، والتي تتحرك سواء في الضحك أو البكاء فيزيد وينشط ذلك من عمل الرئتين، مما يفيد في تنقية الدم من ثاني أكسيد الكربون.

وقد تفيد الإشارات في تحريك بعض عضلات الوجه، وهذا مطلوب بين آن وآخر، ولذلك كله فإن البكاء أو الضحك يفيد في صرف مثل تلك الإشارات الضارة الزائدة ... عن قدرة قناة (الهيبوثالاماس) عن الأعضاء الحيوية بالجسم، ويحولها إلى أعضاء اخرى، يكون زيادة عملها مفيد للجسم فسبحان الخالق العظيم القائل:

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ النجم

وصدق الله عز وجل إذ يقول:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمۡ ﴾ ٤الفتح

فكأن السكينة التي تنزل للذاكرين

هي التي تمنع الإنسان من الأمراض العصبية والنفسية ، أو الأمراض الجسمانية

الناتجة عن الأحوال النفسية التي يتعرض لها الإنسان .

ولقد استغل – وللأسف– الهنود الذين يمارسون رياضة اليوجا – وهي رياضة روحية– بكلمات على الديانة البوذية لا تصل إلى بعض ذرة من الحقائق القرآنية .... ذلك في برامج تليفزيونية يبينون فيها تأثير الكلمات التي يرددونها؛ حتى يُلجئون الأوربيين إلى ترديد الكلمات التي يرددونها ، حتى ترتفع روحهم المعنوية ... وتقوى حالتهم النفسية .... ولا يصابون بهذه الأمراض العصبية ....

ونحن جماعة المؤمنين عندنا الزاد الذي أنزله رب العباد ولكننا كما قال الله : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ يوسف

زهدنا في شفاء الله ،وزهدنا فيما أتى به إلينا رسول الله، فكانت هذه الأحوال التي نعاني منها..... :

إن الله عز وجل ضرب لنا مثلاً غريباً حينما أمرنا أن نستمد المناعة النفسية والإيمانية في خمس وجبات روحانية في اليوم وهي الصلاة ، وأوصانا نبينا صلى الله عليه وسلم أن نأخذ حاجاتنا الجسمانية من وجبتين في اليوم ، فأعلمنا بذلك أن الإنسان يحتاج من الطاقات الروحانية إلى أضعاف ما يحتاجه من الطاقات الجسمانية ؛ لكي يعيش في حياة إيمانية ولا يكون من الذين قال فيهم الله (الآية(٣٦) الزخرف):

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

فالمؤمن محتاج أن يستمد زاد التقى والهدى باستمرار على الأقل خمس مرات في اليوم .... لا ينقرها نقر الديك..!!... ، ولكن ليجعلها كالغذاء، يتجهز له ويطمئن له ويهضمه جيداً ... ويأتي بالمهضمات....

فإذا أتى إلى الوجبة الروحانية ... لا يهني نفسه ، ولا قلبه حتى على هضم كلام الله، أو فهم ما يقوله ويناجي به الله !!

بل ربما يردد هذه الكلمات ولا يدري ماذا قال !! ، وربما يقرأ الفاتحة مكان التشهد ، والتشهد مكان الفاتحة ...!! ولا يدري !! ، ثم بعد ذلك يشكو من الأمراض والأعراض وهو الذي قصر في أوامر ربِّ العباد عز وجل .

فالإنسان المؤمن هو الوحيد في هذا الكون الذي يحفظه الله عز وجل من هذه الأعراض والأمراض التي ذكرناها ما دام يواظب على ما قلناه.

ولذلك لا يحتاج المؤمن إلى مصحة نفسية ولا إلى الذهاب إلى طبيب في الأمراض العصبية والنفسية ، لأن معه كلام الله وهدي سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

ومن المشاكل التي ظهرت في زماننا أن كثيراً من أبنائنا الطلاب وخاصة في أوقات الذروة من المذاكرة يحدث لهم حالة صدود كلي عن الإستذكار، ويحتار الأهل في تفسير ذلك وبعضهم يقول إنه من الحسد ، والبعض يقول أنه من السحر ، والبعض يقول إنه من التعب .

ولكن حكمة الله عز و جل أنه جعل الإنسان روحاً وجسداً فلو انشغل الإنسان بالجسد وترك الروح لا بد أن تظهر عليه هذه الأعراض ، فعلاج أولادنا في مثل هذه الحالات أن يجعل له وقتاً ويخصص له برنامجاً في تلك الآونة يقرأ فيه بعض آيات كتاب الله أو يستغفر الله أو يصلي ويسلم على سيدنا رسول الله تزول عنه هذه الأعراض في الحال ببركة كلام الله عز وجل.

لأن كلام الله وذكر الله يحدث عنده التوازن فيصير عنده توازن روحي يؤثر على حالته الجسمانية ويرده إلى حالته الطبيعية ولا يستطيع الإنسان أن يكون متزناً في الكون إلا إذا أعطى للروح حقها كما يعطي للجسم حقه.

أما الذي يحرص على مطالب الجسم وينسى مطالب الروح فلا بد أن يكون متعباً، ففي حياته نكد ، وفي منامه يركبه الهم والغم ، ولا يجد له تفريجاً لأنه أقبل على جسمه

وشهواته ، ونسي روحه وحكمة الله عز وجل أن الإنسان من الروح والجسد ولا بد أن يكون هناك توازن بينهما.... فلا بد أن يعطي الروح حقها كما يعطي الجسد حقه ويكون في توازن روحي يقول فيه الله عز وجل:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ ٩٧النحل

وكلمة حياة طيبة .... ليس معناها حياة رغيدة مع المال ، والمآكل والمشارب واللهو .. واللعب ، وغيرها ...ولكن الحياة الطيبة:

تكون بسكينة النفس ،وطهارة القلب، واطمئنان الفؤاد، ولا يكون ذلك إلا بحدوث التوازن بين الروح والجسد

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ٩٧النحل

فلا بد للمؤمن أن يجعل له في كل يوم وقتاً مع الله ، وببركة هذا الوقت....:

يصحّح الله نفسه ،ويصلح الله جسده ،ويصلح الله جميع أحواله ،فيكون إنساناً يقول كما قال الإمام الجنيد رضي الله عنه وأرضاه:

((نحن في سعادة ، لو يعلم الملوك ما نحن فيه لحاربونا عليه بالسيوف))

وهذا ما ارتضاه الصوفية لأنفسهم ، وجعلوه منهج حياتهم ، وأسسوا عليه أورادهم ، فوهبهم الله الإستقامة في الدنيا .... والفوز والفلاح في الآخرة.

الإيمان والحياة

ولقد اقترب العالم النفسي كارل جوستاف يونج (**(Carel G. Young**من هذه المنطقة بعد دراسة طولية وعرضية عميقة للتاريخ الإنساني وللأديان ، قال:

((استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة ،وعالجت مئات كثيرة من المرضى ، فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في المنتصف الثاني من عمرهم – أي جاوزوا سن الخامسة والثلاثين – من لم تكن مشكلته في أساسها هي افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة .

وأستطيع أن أقول أن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض ،لأنه فقد ذلك الشيء الذي تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لاتباعها ،وأنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية في الحياة))

ويقول أ.أزبريل (**A.A.Bril**) المحلل النفسي:

((المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً))

وفضلاً عن علماء النفس والمحللين النفسيين.

فقد أشار كثير من المفكريين الغربيين في العصر الحديث إلى أن أزمة الإنسان المعاصر إنما ترجع أساساً إلى افتقار الإنسان إلى الدين والقيم الروحية.

فقد أشار المؤرخ أرنولد توينبى (**A.Tounbee**) إلى أن الأزمة التي يعاني منها الأوربيون في العصر الحديث، إنما ترجع في أساسها إلى الفقر الروحي، وأن العلاج الوحيد لهذا التمزق الذي يعانون منه هو ... الرجوع إلى الدين .

ويضيف الدكتور مُحَمَّد عثمان نجاتي :

((وقد بدأت كذلك تظهر حديثاً إتجاهات بين بعض علماء النفس تنادي بأهمية الدين في الصحة النفسية، وفي علاج الأمراض النفسية، وترى أن في الإيمان بالله قوة خارقة تمد الإنسان المتدين بطاقة روحية معينة:

تعينه على تحمل مشاق الحياة، وتجنبه القلق الذي يتعرض له كثير من الناس الذين يعيشون في هذا العصر الحديث الذي يسيطر عليه الإهتمام الكبير بالحياة المادية، ويسوده التنافس الشديد من أجل الكسب المادي- والذي يفتقر في الوقت نفسه إلى الغذاء الروحي، مما سبب كثيراً من الضغط والتوتر لدى الإنسان المعاصر ،وجعله نهباً للقلق وعرضة للإصابة بالأمراض النفسية.))

ومن بين من نادى بذلك من علماء النفس المحدثين وليم چيمس **WILLIAM JAMES** الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي فقد قال:

((إن أعظم علاج للقلق ولا شك هو الإيمان وقال أيضاً:

والإيمان من القوى التي لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش ، وفقده نذير بالعجز عن معاناة (مواجهة) الحياة، وقال:

إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه تعالى، تحققت كل أمنياتنا وآمالنا ، وقال :

"إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق، ولا تقلق أمنه، وكذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله .... خليق بألا تعكر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة، فالرجل المتدين حقاً .... عصيٌ على القلق محتفظٌ أبداً باتزانه ، مستعدٌ دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف)) انتهى.

٨- أذواق الصُّوفيَّة فى الآيات القرآنيَّة و الأحاديث النبويَّة :

إن الصوفية لهم أذواق في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، هذه الأذواق أخذوها بقلوبهم وأرواحهم لتساعدهم وتعينهم على السير والسلوك إلى الله عز وجل وإن كانوا يقرّون بالمعنى الظاهر بل ويعملون به.

لكن المعنى الظاهر وحده لا يكفي هؤلاء المشتاقين – فالمعنى الباطن يزيد قواهم الروحانية شوقاً وهياماً وتحناناً إلى الذات العلية ، فمثلاً قول الله ﷻ :

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ٢٤الكهف

المعنى الظاهر في هذه الآية لأهل الغفلة الذين ينسون ذكر الله، أن نقول لهم عندما تنسون ... اذكروا الله عز وجل.

لكن عند الصوفية .... الغفلة عن الله طرفة عين أو أقل تستوجب قطع عنق صاحبها في نفسه ، وهذا ما عبر عنه ابن الفارض رضي الله عنه في قوله:

وإن خطرت لي في سواك إرادة ... على خاطري نفساً حكمت بردتي

فقد حكم على نفسه هو – ولم يعمم الحكم على غيره – كي يسوق نفسه إلى الله عز وجل ، ولذلك قالوا هل ينفع الذكر مع وجود الغفلة ؟ ...ز

والإجابة: لا، لقول النبي ﷺ (عن أبى هريرة رواه الترمذى):

{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ "}

إذن كيف أذكر الذكر الحقيقي الذي يَذْكرني به الله؟

في الحقيقة .... لا ينفع ذكر حقيقي لله .... يقرب إلى الله ... ويمحق الحُجب التي بيني وبين الله حتى تقع عين قلبي على أنوار الله .... إلا إذا نسيت كل غير، ومَحْوت كل ما سوى الله، وذكرت الله في حالة غيبة تامة عن جميع ما سوى الله ، وفي ذلك يقول الإمام أبو العزائم رضي الله عنه:

اذكر الله إذا نسـيت سواه ... قل بقلب في الذكـر يا الله

فهذا هو الذكر الذي يقرّب، والذكر الذي يوصِّل، والذكر الذي يقول فيه الإمام أبو العزائم رضي الله عنه وأرضاه:

فذكر فؤادي رؤية الوجه ظاهراً ... وبإسم الذي أهواه ذكر لساني

فذكر الفؤاد شهود على الدوام ، ولذلك فإن سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه وأرضاه كان يقول: ذكر اللسان شقشقة – وهذا حق ولكن للواصلين – لكن سيدي ابن عطاء الله السكندري يقول للمبتدئين:

"اذكر الله ولو مع وجود غفلة ، فرب ذكر مع وجود غفلة ينقلك إلى ذكر مع حضور، ورب ذكر مع حضور، ينقلك إلى ذكر في شهود المذكور جل جلاله"

فكل واحد له حاله.

فالمبتدئ يقول له اذكر ولو على غفلة ، والذي سلك وسار في طريق القوم يقولون له الذكر من هنا (القلب) وليس من اللسان.

فهذا يا إخواني نموذج لأذواق الصوفية في القرآن ، فهم يأخذون مشهداً في الآيات يقوي عزائمهم ، ويُعْلي أشواقهم كي يزيدوا في القرب من الله عز وجل والإقبال عليه سبحانه وتعالى.

والآيات تساعدهم على ذلك ، ولس هناك تنافي ، والأمثلة كثيرة في القرآن ،في هذه الآيات ، وهناك مثال آخر وهو قول الله تعالى [٢٣ الجاثية]:

﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

فالهوى كما قال النبي ﷺ (رواه ابن عباس) :

{شَرُّ إِلَهٍ عُبِدَ فِى الأَرْضِ: الْهَوَى }

فالذي يعبد هواه أو يتبعه ، ويسعى وهمه نيل شهواته ، ونوال حظوظه وملذاته، فقد ضل عن طريق الحق، وهذا يختم الله على قلبه، فلا يسمع الحق، ولا يبصر الحق، ولا ينطق بالحق، وهذا هو التفسير الظاهر... وهو حق .... لكن الصوفية لهم مشهد ثاني فيقولون ......:

هل رأيت الذي جعل الله ﷻ هو هواه أي حُبّه المسيطر على قلبه؛ فاتخذ إلهه وهو الله ﷻ هواه وأصبح مشغولاً بالكلية بالله ﷻ وأصبح كما يقول القائل:

قد كان لي قبل أهواء مُفـرقّة ... فاستجمعت مُذْ رأتك العين أهوائي

تركت للناس دنيـاهم ودينهم ... شغلاً بذكـــــرك يا ديني ودنيائي

﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ ﴾ أضلَّه الله يعني أبعده عن الشغل بقلبه بالدنيا، مع علمه بها واجتهاده في تحصيلها شغلاً بالله ﷻ ، وختم الله على قلبه؛ فأصبح لا يتلقى إلا من الله ،وعلى سمعه؛ فأصبح لا يميل إلا لسماع كلام الله، أو ما يقرّب إلى حضرة الله ،وجعل على بصره إذا نظر إلى الدنيا غشاوة؛ فلا تغويه زينتها ، ولا تغرّه فتنتها ،لأنه لا ينظر إلى شيء منها ..... إلا مُعْتبراً .

فهذا مشهد يأخذه الصوفية ، ليقوي شوقهم في القرب من الله عز وجل، ويزيد عزمهم في مراحل السير و السلوك إلى ملك الملوك ﷻ.

وهكذا يا إخواني أذواق الصوفية في مثل هذه الآيات القرآنية ومثلها.

كذلك الأحاديث النبوية ، ومثال ذلك قوله ﷺ (عن أَبَى هُرَيْرَةَ ﷺ، الصحيحين):

{ صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ }

فالحديث معناه الظاهر واضح ، وكلنا مؤمنون به ، ومنه أخذ الحكم الشرعي في تحديد ميعاد بدأ صيام شهر رمضان ، وتحديد ميعاد عيد الفطر ، وأن ذلك لا بد أن يتم عن طريق الرؤية البصرية ، ومع تقدم العلم في زمننا قد نأخذ بالرؤية العلمية معها، لكن الرؤية العلمية بمفردها لا تُغني عن الرؤية البصرية.... لكن الصوفية يستشفّون من الحديث معنى آخر يتطابق مع همتهم العالية ، فيجعلون الغاية من الصيام هي رؤية وجه الله ﷻ ، فيكون المعنى :

صوموا من أجل رؤيته ، فصيامك ليس من أجل الجنة أو طلباً لألوان النعيم بها ، وإنما رغبة في رؤية وجه الله ﷻ وهذه أعلى درجة من درجات الصيام والذي يصوم لأجل رؤية وجه الله ﷻ لا يفطر أبداً إلا إذا تحقق مراده وبلغ أمنيته .

وفي ذلك يقول الإمام أبو العزائم ﷺ:

وما صام إلا عن سوى ما يحبه ... كذلك عبد الذات في القرب طامع

ويؤكد ذلك الحديث الآخر الذي يقول فيه ﷺ (أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ سنن الترمذي):

{ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ } "

وهذه هي الفرحة العظمى

هذه بعض المعاني التي يأخذها الصوفية من هذه الأحاديث ، وهذه الآيات، لتحثهم وتقويهم على طاعة الله عز وجل ، ولكنهم لا ينكرون المعنى الظاهر.

فالذي ينكر المعنى الظاهر هم الباطنيون، الذين يقولون ليس هناك تأويل للقرآن غير التأويل الباطني، وهؤلاء ليسوا من الصوفية ... حيث أنهم من غلاة الشيعة ، وليس للصوفية شأن بهم ، فنحن نؤمن بالظاهر ونعمل به، ولكن الأرواح تحتاج إلى زاد أعظم يعينها على السير إلى الكريم الفتاح عز وجل ، فالذي يطلب الجنة تحقيق مطلبه سهل ، كالرجل الذي ذهب إلى النبي ﷺ وطلب ذلك فقال له ﷺ فى الحديث الذى رواه الشيخان فى صحيحيهما عن طلحة بن عبيد الله :

{ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ..إِلا أَنْ تَطَوَّعَ ، .وَصِيَامُ رَمَضَانَ إِلا أَنْ تَطَوَّعَ ..والزَّكَاةَ إلا أَنْ تَطَوَّعَ " فقال : وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ }

أي وَفِّ بذلك تدخل الجنة ، لكن الذي يطلب نعيم رؤية وجه الله، هل يكفيه هذا العمل ؟. لا . لأن مطلبه أعظم، وغايته أسمى ، فيُخَاطب بقول الله ﷻ (٧٨الحج) :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾

لماذا ؟ .... كي يدخل في قوله سبحانه :

﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾

أي يحصل على مقام الإجتباء ، كيف يجاهد؟ ....

يأخذ من كتاب الله ، ومن سنة رسول الله ﷺ ما يعينه على هذه الأحوال.

البَابُ الرَّابع

الصُّوفيَّة والحياة العصريَّة

أ- الصوفية وإصلاح المجتمعات

أولاً: إصلاح النفوس

ثانياً: نشر القيم والفضائل

ثالثاً: مقاومة التيارات المادية

رابعاً: طهارة القلوب

خامساً: التكافل الاجتماعي

سادساً: حل المنازعات

سابعاً: نصرة المظلوم

ثامناً: إصلاح المنحرفين

تاسعاً: عمارة المساجد

عاشراً: العلاج النفسي

ب- الدعوة إلى الإسلام

ج- الصوفية والعلوم العصرية

د- الصوفية وريادة العلوم

صورة من الفضاء الخارجي لأحد ملايين المجرات في الكون ، أصغر نقطة ضوء يبلغ حجمها ملايين من حجم أرضنا وتبعد عنا مئات ملايين السنيين الضوئية .

البَابُ الرَّابع
الصُّوفيَّة والحياة العصريَّـة

الصوفية رسالة جادة وهادفة في الحياة الاجتماعية.

وإن كان كثيراً من الناس يجهلونها ، فذلك لأن الصوفية قوم لا يبغون بعملهم ظهوراً ولا شهرة، ولا يطلبون مقابل عملهم عوضاً دنيوياً بل ولا أجراً أخروياً، وإنما بغيتهم في أعمالهم رضاء الله ﷻ وشعارهم في ذلك قول الله ﷻ (٩الإنسان):

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾

هذا فضلاً عن رسالتهم السامية في العمل على نشر لواء الدعوة الإسلامية وسنحاول إيضاح ذلك باختصار فيما يلي:

أ- الصوفية وإصلاح المجتمعات

إن الهدف من التصوف هو بناء المجتمع المسلم على أساس من الفضيلة والخلق السليم، والتمسك بمبادئ الدين القويمة، وتعاليمه السامية، وأن تحل الأخلاق بين أفراده مقام القانون بأن يكون للمسلم وازع من ضميره يدفعه إلى الحرص على الكمال وطلبه وقد لخص الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلي القرني في كتابه: (التصوف والحياة المعاصرة) صـ ٢٥ ذلك في هذه العبارة :

((رسالة التصوف وأهدافه خلق مجتمع سليم، قوامه الفضيلة والأخلاق، والتمسك بمبادئ الدين الكريمة، وتعاليمه السامية القويمة، وتفهم روحه العالية ، وأن

تقوم الأخلاق بين أفراده مقام القانون، بأن يكون لكل فرد منهم وازع من نفسه، ودافع تلقائي يدفعه إلى الحرص على الكمال وطلبه، والرغبة في النفع والخير المطلق، لصالح نفسه وجماعته التي ينتمي إليها، وأن يكون رائد هؤلاء جميعاً أولاً وأخيراً معرفة ربهم وتوثيق صلتهم به، عن طريق التقرب إليه بفرائضه التي افترضها، والنوافل التي سنَّها نبيه ﷺ)) انتهى.

وفي ذلك يقول سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه:

((ليس التصوف الزهد أو لبس الصوف، إنما التصوف أعمال ومجاهدة وأخلاق والأخذ بأيد الناس إلى خير الدنيا والآخرة)).

ويقول في ذلك سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه أيضاً:

((لا يكتمل مقام الصوفي حتى يكون محباً لجميع الناس، مشفقاً عليهم، ساتراً لعوراتهم، فإن ادعى الكمال على خلاف ما ذكر فهو كاذب)).

ويقول الشعراني رضي الله عنه:

((من لبس جديداً، أو أكل هنيئاً، أو ضحك في نفسه، أو سعد في بيته، والأمة الإسلامية في كرب أو شدة، فقد برئ منه الإسلام)).

هذا هو التصوف....

وتلك أهدافه التي نرجو أن تتحقق، وبها يسود المجتمع روح المودة والتعاطف، ويسعد الناس جميعاً برباط الحب الذي يربطهم بالسماء ويخلق بينهم جواً روحياً صافياً يقضي على كل بغضاء وشحناء.

وبذلك تعود الأخوة الإسلامية الصافية التي زرع النبي ﷺ شجرتها في المهاجرين والأنصار فأتت أكلها، وزكا فرعها، وامتدحها الله العلي بقوله جلّ شأنه وتباركت أسمائه (٩٢ الفتح) :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾

وفي سبيل تحقيق ذلك اتخذ الصوفية وسائل كثيرة أشار إليها الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني في كتابه (التصوف والحياة المعاصرة) صـ ٥١ فقال:

((ووسيلة التصوف لتحقيق السعادة في الحياة هو إصلاح النفس أولاً، وتهذيبها والتسامي بها عن الشهوات، ولهم في ذلك منهاج قاس يلزم به المريد نفسه، تحت إشراف شيخ بصير بمفاوز الطريق، حتى يحررها تماماً من أهوائها، ويقطعها عن مألوفات عاداتها، وحتى تتدرج في مراتب الكمال، فتقطع مراحلها السبع في نجاح واطمئنان. قد يكون هذا طابعاً فريداً، لكنه في النهاية يخلق مجتمعاً متكاملاً، يتميز أفراده بصفات مثلى، وأخلاق فضلى، وكلما نضج أفراد المجتمع خلقياً وفكرياً نشأ منهم المجتمع المثالي الذي يسوده الأمن والتعاون)).

وعن أهمية الشيخ المربِّي في إصلاح المجتمعات يقول الأستاذ سعيد حوي في كتابه: (تربيتنا الروحية) صـ ٢١٤ :

((وإنني أعتبر أن المهمة الأولى لجماعة المسلمين هي أن توجد طبقة من الشيوخ الكمّل تستوعب احتياجات المسلمين التعليمية والتربوية والسلوكية)).

ثم يبين ضرورة الشيخ في العلم والتربية في نفس المرجع صـ ٢١٧ فيقول:

((١- أن الشيخ البصير في الأمور يختصر لك الطريق.

٢- إن الشيخ الكامل يجنبك الخطأ في الفهم أو الخطأ في السلوك أو الخطأ في التصورات التي يمكن أن تنشأ عن سير الإنسان نفسه.

٣- إن الشيخ من خلال صحبته تأخذ منه حالاً وتأخذ منه سمت العلماء وأدبهم ونور العلم وتنوير القلب.

٤- إن مجرد قبول الإنسان أن يأخذ العلم أو التربية عن أهلها يحرره من كثير من الأمراض كمرض الغرور أو العنجهية أو الكبر.

٥- إذا كان الشيخ صالحاً وداعياً إلى هدى فإن الانتفاع به في الدنيا والآخرة تدل عليه النصوص.

٦- والتجمع حول شيخ والمشاركة في حلقات العلم والذكر والتآخي الخاص في هذه الأجواء تترتب عليه مصالح كثيرة في الدنيا والآخرة. إن نقطة الانطلاق الصحيحة هي وجود الولي المرشد)) انتهى.

وخطة الصوفية لإصلاح المجتمعات تكون بما يلي:

أولاً : إصلاح النفوس

يرى الصوفية أنه لا يمكن للمجتمعات أن تسعد وتنعم بالهدوء والسكينة إلا إذا قضت على أمراضها المعنوية ، وهي أمراض تصاب بها النفوس فتجعلها تتعالى بالباطل، وتتسم بالأنانية وتتصف بالشره والبخل ،وتتعامل بالربا والخديعة واللؤم والنفاق .

وأبرز هذه الأمراض هي:

الحسد، والرياء، والنفاق، والكبر، والعُجب، والغرور، والبخل، والكذب، والخيانة، والتكالب على المال والجاه، والقسوة ،والوقاحة، وكراهية الناس، والجبن، وعدم الثقة، والغضب، والانتقام، وقطع الرحم، والنميمة، وكفران النعمة، وحب الذات .... إلخ.

فكانت دعوة الصوفية إلى تربية الفرد تربية مثالية والأخذ بيده ليكون إنساناً سوياً في الحياة، على علاقة طيبة بمجتمعه وعلى علاقة طيبة بخالقه.

ولا يكون ذلك إلا باقتلاع الأخلاق التي أشرنا إليها من جذورها ، وتهذيب النفس وتربية الضمير بإحياء المثل والفضائل .....:

كالإخلاص، والتواضع، والجود، والصدق، والأمانة، والقناعة، والرحمة، والحياء، والأدب، وحب الخير للناس، والشجاعة، والثقة، والحلم، والعفو، وصلة الرحم، وشكر النعمة، ونكران الذات، والإيثار، والوفاء، وغيرها ....

حتى يصبح الإنسان تلقائياً في معاملته المثالية ومطبوعاً على فعل الخير من غير استكراه أو تأفف.

ويقول في ذلك الدكتور أحمد أمين في كتابه (فيض الخاطر ج ٥):

((لكن التصوف له دور كبير أيضاً في بناء الخلق الاجتماعي، باعتبار أنه يتغلغل في طبقة عريضة من الشعوب، وبناؤه للأخلاق الاجتماعية بناء عملي منهجي، يُعني فيه بالقدوة والمثل والسلوك والتوجيه والمتابعة والتصوف يطبع الفرد على سلوك كريم، فيه إحياء للضمير، وشعور بالمسئولية، ومحاسبة للنفس، ومراقبة لله، وهذا السلوك الفردي هو الذي يكون السلوك الاجتماعي، فما المجتمع إلا مجموعة أفراد.

وغني عن القول أن أذكر دور التصوف في بناء الأخلاق الفاضلة، فهو صاحب المثالية الخلقية، وحامل لوائها، ومن بين صفوفه برز رجال أفذاذ، حملوا إلى العالم أروع ما تحمله الآثار الطيبة والذكريات العطرة، والبطولات النادرة في الأخلاق والفضائل.

ويكفي أن التصوف لم يكتف بما للفضائل من أسماء تدل عليها، ولكنه جعل من هذه الأسماء حقائق ناطقة، وأرواحاً منطلقة مشرقة، تفيض على أصحابها ومَنْ حولهم نورها، وتمدهم بمكنون أسرارها، وتكسوهم من فيض جمالها وجلالها، ما يرفعهم إلى مرتبة القديسين والصديقين)).

فالتصوف هو صانع المثالية الخلقية، التي تستهدفها نظم الإسلام وتشريعاته،وهو محقق الدعوة الكريمة التي دعا إليها الرسول الكريم، ومن أجلها بعث وكافح وجاهد.

إن التصوف يريد إقامة مجتمع أخلاقي ترفرف عليه أعلام المحبة والسعادة، وتهب

على جوانبه نسائم الحرية والكرامة والعدل.

ومشايخ الطرق :

مدارس تربوية لها أثرها العظيم في بناء المجتمع، بل لا نبالغ إذا قلنا أن أثرها أعظم بكثير مما تفعله المدارس والجامعات.

ذلك أن الأمر على يد الشيخ يختلف عنه في المدرسة أو الجامعة، فالطالب في الجامعة يتعلم العلم اليوم من أجل الحصول على الشهادة فقط، وليس من أجل الاستفادة بما يتعلمه في حياته ويطبقه على سلوكه.

أما المريد أمام شيخه فهو حريص على علاقته بالشيخ، ولذلك لا يستطيع أن يقصر في واجباته.

ثانياً: نشر القيم والفضائل

إن التصوف سلوك عملي وترجمة حقيقية للأخلاق.

وقد حول الصوفية الأخلاق إلى مقامات يجاهدون في سبيل الوصول إليها، حتى إذا وصلوا إليها تحققوا بها، وأثمر هذا التحقق درجات من المشاهدة وألواناً من المعرفة، تركت في نفوس أصحابها وفي الطريق الصوفي أثاراً كبيرة.

ومن أعظم المبادئ والمثل التي تمسك بها الصوفية وكان لها أثر كبير عليهم وعلى من حولهم مبدأ الأخوة والمساواة والإيثار والحرية والزهد والعزة والفتوة والصفح وغيرها والتي حطم بها الصوفية القيود التي وضعها الإنسان، وطبق رجاله التعاليم الإسلامية الصحيحة التي تدعو إلى تلك القيم.

وفي صفوفهم وحلقاتهم يتساوى الجميع ، وفي أخوتهم تمحى الفوارق وتتلاشى الحواجز، ويزول التباهي بالأحساب والأنساب.

وهذه المبادئ في جملتها هي التي صنعت الدولة الإسلامية الأولى، وجعلت من

المسلمين قوة جبارة انطلقت لتبني وتعمر وتبشر بدين الله.

وما أحوجنا الآن في حياتنا التي أعمت المادة فيها عيون الناس إلى هذا القبس الصوفي الوضاء، ليضئ لنا معالم الطريق ونتنسم في ظله أنسام الصحة الروحية، والعزة الدينية.

ثالثاً: مقاومة التيارات المادية

إن الاتجاه المادي الذي يسيطر على العالم اليوم، ويدفعه إلى التسابق المجنون في شتى ميادين الصراع يحتاج إلى قوة تكبح جماحه وتوقفه عند حدوده، وتجعل هناك توازناً بين الخير والشر.

ولن تكون هذه القوة سوى قوة الروح التي يستمدها الناس من الاتجاه إلى الأفق الأعلى حيث يشعرون بالأمن والراحة والاستقرار، حيث ينسى الإنسان أحقاده وآلامه وشراسته، ولا يذكر إلا أنه عبد ضعيف لا حول له ولا قوة تصرعه نوبة من سعال لا يعرف مصدرها، وتقتله لفحة من برد، ويقضي عليه انفجار شريان صغير لا تكاد تراه العين، ويلقيه طريح الفراش ألم مفاجئ لم يكن يتوقعه.

ولهذا فقد اضطر المجتمع المادي أن يحني قامته لهذا المجتمع الروحي الرحيب فأدرك عقلاء الغرب ومفكروه أن التصوف ملجأ أخير يحفظ للإنسان كرامته، وينقذه من حريته، ويهديه الأمن والرحمة والسلام، ذلك التصوف الذي نبع في حمى رسالة السلام والإسلام والذي قال الله في حق المؤمنين بها:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

لقد أفلست كل المذاهب والفلسفات في الغرب فكراً وتطبيقاً، وأفلست روحياً

وإنسانياً، وأفلست علاجاً، وأفلست حلاً فكل شئ هناك يسير إلى النهاية، وقد فشلت كل العقاقير والأدوية في إنقاذ هذه الحضارة، وقيمها البالية، لم يعد هناك أمل في الغرب، كل شئ ينهار، إن أوربا – كما يقول المرحوم إقبال – تحتضر والروح تموت عطشاً في سرابها الخادع.

فيها حضارة، نعم، ولكنها حضارة تحتضر وإن لم تمت حتف أنفها فلسوف تنتحر غداً وتذهب، والحل كما يقول العلامة الندوي في الإسلام الذي يقود سفينته مُحَمَّد ﷺ .

أصبح الحل كما يقول العلامة الفرنسي برجسون:

((الإنسانية اليوم أكبر ما تكون حاجة إلى الوثبة الروحية حتى تقيم التعادل مع وثبتها المادية.، إن الجسم الذي تضخم ينتظر الآن نفخة روحية، وإن الآلية بحاجة إلى صوفية، ولعل أصول هذه الآلية صوفية أكثر مما يظن، وهي لن ترتد إلى اتجاهها الحق ولن تكون خدماتها متناسبة مع قوتها إلا إذا استطاعت الإنسانية التي انحنت بتأثيرها نحو الأرض أن تتوصل بتأثيرها أيضاً إلى الانتصاب ثانية والرّنو إلى السماء)).

ثم يقول:

((وما أحسب أن النجدة المنقذة إلا آتية من قبل مشرق الشمس من الشرق الروحي الذي يملك أروع القوة الصوفية)).

وهكذا نجد أن الحاجة إلى التصوف، لا تقف عند حدود بلادنا وما تستوجبه ظروفها من أعباء سياسية وعسكرية واجتماعية ولكن العالم كله من أقصاه إلى أقصاه يشعر الآن بحاجته الشديدة إلى هذه الدفعة الروحية لتنقذه من حيرته المادية وتلهمه السداد في طريقه وتحرس خطاه.

لقد ثار علماء الغرب على المادة لأنهم يدركون تماماً أن المادة لا عقل لها، ولذا فقد عصفت في طريقها بكل شئ، وجرفت في تيارها الأخلاق والمثل والمبادئ، وطوحت

بالعقائد والروحانيات المتوارثة، وبنت حياة الناس على أساس منهار، إن عاش قليلاً فلن يدوم طويلاً، وصدق الله حين يقول:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ ٢٤ يونس

وهذا ما جعلنا نسمع الدعوة إلى المبادئ الروحية من صميم الغربيين أنفسهم فالأديب والمفكر الشهير برناردوشو يقول:

((ما أحوج العالم الآن إلى رجل مثل محمد يعالج مشاكله))، ويقول أيضا :

((لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته العظيمة، فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية العيش في أطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً في كل زمان ومكان))

وفي الحقيقة لن يقي بلادنا شر التيارات الوافدة المتحللة سوى نزعة روحية سامية تقف في وجه الإلحاد والزندقة والوجودية والشيوعية والتعصب الممقوت، وغير ذلك من نزعات لا هدف لها سوى القضاء على هذا الدين الحنيف، الذي يرى في أصحاب هذه النزعات سداً منيعاً يحول بينهم وبين ما يبتغون من سيطرة واستعلاء وافساد وفي ذلك يقول الأستاذ طه عبد الباقي سرور في كتابه: (أعلام التصوف الإسلامي) جـ ١ صـ ١١:

((إن هذا النصر الكبير الذي حققه الإنسان في عالم المادة سيبقى شراً حتى يضاف إليه انتصار مماثل في عالم الروح وحينئذ يوجد أروع نموذج للإنسان السيد المؤمن القادر، لقد انهارت العوائق المادية أمام العقل المادي، وواجبنا الأقدس أن نفتح لقلبه

الآفاق الروحية بأنوارها و إشراقاتها وإيمانها لنوجد الإنسان الخليفة تاج الخليقة)) فالمجتمع الذي أساس التعامل فيه المادة فحسب، وتقوم العلاقات المادية فيه مقام العلاقات الروحية يمتلأ بالشقاق والنزاع والضيق والفشل الذي يؤدي في النهاية إلى الخراب والدمار، والمجتمع الخالي من الفضائل والأخلاق، لا يكون إلا مجتمع غاب، وميدان وحوش، الغلبة فيه للظفر والناب لا للعقل المفكر أو القلب الكبير، وهذا ما هو واقع فعلاً في الدول المادية.

لو أن القوة الروحية هي التي توجه أنظار العالم الغربي لما ذهبت بلايين الدولارات أدراج الرياح في التسابق المحموم في اقتناء الأسلحة المدمرة، والتفنن في اختراعها، والانقلابات والمؤامرات، وعصابات الخطف والابتزاز والتهديد، ولاستطاعت أن تحل مشاكل الجوع والفقر والتخلف التي تسود بقاعاً كثيرة، وتقتل أقواماً أبرياء، وينشأ الكثير منهم عجزة أو مشوهين أو منحرفين.

إن التربية الصحيحة، والقدوة الكريمة، والبعث الروحي، والصورة المثالية للفرد والأمة التي يحققها التصوف هي التي تعيد لنا توازننا، وتصحح لنا خطواتنا وفي ذلك يقول الدكتور عبد الودود شلبي:

((لن يستطيع الشرق أن ينهض بالمال وحده، فالمال يتبدد فيما لا يجدي، وينفق في الكماليات التي لا تفيد، والشرق يفتقد القوة التي يتسلح بها الغرب المادي، ويحكم عليها قبضته، فلا يسمح بتسريبها إلى الشرق إلا بمقدار، فلم يبق أمامنا إلا أن نخوض داخلنا عن طريق الأخلاق الفاضلة التي تمسح عن نفوسنا الأوضار، وتبعث فينا القوة، وتمدنا بمقومات الحياة والانتصار، وهذه الأخلاق طريق بعثها التصوف، وهذا دوره المنتظر)) [عن كتاب (التصوف والحياة العصرية) للشيخ عبد الحفيظ القرني].

إن الزهد الذي يدعو إليه التصوف هو الذي يقاوم المطامع الشهوانية، والرغبات المادية، والتطلع إلى الجاه والمناصب، والانشغال بحطام الدنيا الزائف والزائل

فلنقرأ عنه هذا الحديث في كتاب (الدين والحياة) للأستاذ أحمد عبد الجواد الدومي:

❀ ((لننظر سوياً إلى عُبادة بن صامت وهو يدخل على المقوقس حاكم مصر ، ولنسمع إليه وهو يقول له: لا يبالي أحدنا إن كان له قناطير من ذهب ، أو كان لا يملك إلا درهماً، فإن غاية أحدنا أكلة يأكلها، فيسد بها جوعته ليله ونهاره، وشملة يلتحفها، فنعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، فيغلب عُبادة بذلك المقوقس ويفحمه)).

❀ وهو ذلك الزهد الذي نراه في عمير بن سعد والي حمص من قبل عمر بن الخطاب، الذي امتُحن بالدنيا إذ أقبلت عليه، والإمارة وقد أسندت إليه، ثم يعود إلى امرأته بعد فترة فتنكر معرفته مما اعتراه من هزال وشحوب، فتقول له:

أهو أنت عمير والي حمص ولك من العطاء كذا وكذا!!!؟؟ ، فيرد عليها قائلاً: ومتى كانت الولاية مغنماً يا نائلة؟

❀ وهو ذلك الزهد الذي تمثل في الجنيد إمام الصوفية، وقد أقبل عليه أحد الموسرين بصرة مملوءة بالدنانير وقال له: خُذْ هذه الصرة ففرقها بين أصحابك. فقال له الجنيد: ألك غيرها؟ ، قال: نعم كثير، فقال له: أتطمع في غيرها؟ قال: نعم ، فقال الجنيد: إذن خذها فأنت أحوج إليها منّا.

❀ وهو ذلك الزهد الذي نراه في الفضيل بن عياض، الذي يعرض عليه هارون الرشيد ألف دينار لينفقها على عياله، فيردها وهو في أشد الحاجة إليها، وتقول له امرأته: يا هذا، ترى ما نحن فيه من ضيق وشدة، فلو قبلت هذا المال ففرَّجنا به ضائقتنا؟ ، فيجيبها: إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه وأكلوا لحمه، موتوا يا أهلي جوعاً، ولا تذبحوا فضيلاً)).

❀ وهو الذي نراه في أبي ذر الغفاري الذي يريد معاوية أن يسكته عن دعوته فيرسل له ليلاً من يضع بين يديه ألف دينار، ثم يرسل إليه في الصباح من يستردها منه

زاعماً أن المقصود بها غيره، فيجده قد وزعها على جيرانه الفقراء.

❁ وقد قال في ذلك جمال الدين الأفغاني:

((ما أعظم الدنيا في نفوس الناس، وإن أعظم منها من يُعرض عن غوايتها، ويستهين بفتنتها)).

فالثورة الروحية التي يتوق إليها المصلحون:

تعني انطلاق القوة الصوفية السليمة في جميع جوانب حياتنا العربية والإسلامية حتى تمتلئ قوة وعزة ونقاء وصفاء، فلقد كان الروح الصوفي هو القوة الكامنة وراء العزة الإسلامية التي لم تنهزم أمام المدنية ولم تزُل حيال بريقها، ولم تلن أمام وثبات الجاهلية الباغية وحشودها عبر السنين والقرون.

رابعاً: طهارة القلوب

يحرص الصوفية على أن يكون من انتسب إليهم:

صافي النفس، سليم الصدر، لا يحمل همّاً لأحد ولا حقداً على أحد، سبّاق إلى الخير، محب لإخوانه، لا يقابل السيئة بالسيئة وإنما يقابل السيئة بالحسنة.

فالصوفي الحق هو الذي يعمل بقول رسول الله ﷺ فيما يرويه أَنَسُ بنُ مَالِكٍ وأخرجه الإمام الترمذى فى سننه :

{قالَ لِي رَسُولُ الله: يَا بُنَيَّ إِنْ قَدِرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ في قَلْبِكَ غِشٌ لأِحَدٍ فَافْعَلْ، ثمَّ قالَ لِي: يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيانِي وَمَنْ أَحْيانِي كَانَ مَعِي في الْجَنَّةِ}

يقول السهروردي تعليقاً على هذا الحديث:

((فالصوفية هم الذين أحيوا هذه السنة، وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم، وبذلك ظهر جوهرهم وبان فضلهم، لأن مثار الغشَّ والغلِّ (أى سببه) محبة الدنيا، ومحبة الرفعة والمنزلة عند الناس،...... والصوفية زهدوا في كل ذلك)).

وقال أبو حفص [عن عوارف المعارف صـ ١٩٣].:

((كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وأنست بذكره، إن تلك القلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع))

ولا شك أن الصوفية سبقوا غيرهم – ومازالوا يسبقون – في شريعة من أسمى الشرائع هي شريعة الحب:

هذه الشريعة إذا سادت قضت على كل داء من أدواء الإنسانية، ومسحت كل بؤس في المجتمع، ووضعت التكافل الاجتماعي موضعاً تنفيذياً تلقائياً. فالمحبة هي قوام كل شئ في النهج الصوفي، فالكون خلق بالحب، ويدرك بالحب، والله ﷻ لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به العقول.

ولكن الصوفي يوقد مشاعل الحب في قلبه ووجدانه وروحه فيمتطي بذلك المعراج الأكبر الذي يصله بربه، ومن حبه لربه سبحانه تنبثق محبته للكون، فالصوفي يحب كل شئ في هذا الوجود حباً متفرعاً من حبه لمبدع الوجود.

والسيد أحمد البدوي ﷺ يقول في ذلك:

((أحببه (أي الله سبحانه وتعالى) يحبك أهل الأرض والسماء)).

وسيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول:

((لا يكمل الصوفي حتى يكون محبَّاً لجميع الناس، مشفقاً عليهم، ساتراً لعوراتهم، فإن ادعى الكلام على خلاف ما ذكرنا فهو كاذب)).

وقد تنبه الغربيون أخيراً إلى ما سبق إليه الصوفية من أسس في بناء المجتمع الفاضل فقال الكاتب الأمريكي ((أدد)):

((إنني سأكون أسعد حالاً إذا سلكت إلى معونة الناس سبيلاً تمكنهم من أن ينجزوا أعمالهم بدلاً من أن ينحصر تفكيري في أعمالي الخاصة، إن صداقة الناس كافة ومحاولة معونتهم، هو في اعتقادي أفضل ما في الحياة، كما أنه الوسيلة الوحيدة لقضاء حوائج الإنسان)).

وهكذا بهذه العاطفة النبيلة حقق الصوفية التكافل الاجتماعي.

فأخذوا بيد الضعيف، وواسوا المحروم، وأعطوا المحتاج، وعلموا الجاهل، وهدوا الضال، وأنقذوا الناس، وحموا العقائد من دواعي الكفر والالحاد، ووقفوا أمام التيارات الجارفة المتحللة وقفة صامدة، وبذلك حفظوا للدين قدسيته وكرامته، وللإسلام عزته ومنعته.

خامساً: التكافل الاجتماعي

لم ينعزل الصوفية عن مجتمعهم....

وتدل مواقفهم على أنهم كانوا إيجابيين شاركوا أفراد مجتمعهم همومهم وآلامهم، وسعوا جاهدين لكشف الضوائق عنهم ، فقد تمسكوا بتعاليم الكتاب والسنة التي تحث على التكافل والتعاون. عن طريق البذل والإنفاق لإسعاف المنكوبين وإراحة المتعبين عملاً بقوله ﷻ :

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ١٠ المنافقون

وعملاً بقول رسوله الكريم عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ (صحيح مسلم) ، أَنَّه ﷺ قَالَ :

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ. مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللّهُ فِي حَاجَتِهِ. وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

وعلى ذلك فقد كان لهم دور كبير في الرعاية الاجتماعية للأيتام والفقراء والمساكين والمرضى والعجزة والأرامل وطلاب العلم.

ويبرز دورهم في ذلك خاصة في الأزمات الاقتصادية التي تصيب المجتمعات وتحدث مجاعات أو غلاء، والأمثلة في هذا المجال يضيق الحصر عن ذكرها.

ويتجلى تنفيذ الصوفية لمبدأ التكافل الاجتماعي في إحياء المناسبات والمواسم الدينية، والاحتفال بذكرى الأولياء والصالحين وما يصحب ذلك من جو يفيض بالخير والرحمة والتعاطف والحب.

والمقصود من إقامة الموالد إحياؤها على الصورة المثالية، وإقامتها على الطريقة الشرعية، ففي إحياء الموالد بصورتها الصحيحة كفالة اجتماعية، فهي مواسم للبر يقدم فيها الطعام، ويفشى السلام، وتنتشر فيها الثقافة الإسلامية، وتنشط التجارة، وغير ذلك من وجوه المنافع.

وقد أشار إلى ذلك المستشرق ((لين)) حيث يقول:

((إن ساحات الأولياء في البلاد الإسلامية كانت الحصون الشامخة التي تولت حفظ قلب الأمة الإسلامية وصانته وحمته من الغزو الفكري الملح العنيف الذي استهدفت به أوربا فصل المسلمين عن عقائدهم، ثم هي فوق ذلك مواسم للخير والبر وساحات للعبادة والذكر وأسواق للتجارة، ومنافع للناس، ومنابر للكلمة المباركة

والمواعظ الحسنة، ومهرجانات شعبية يتنفس فيها خاصة قطاع من أكبر قطاعات مجتمعنا الاشتراكي التعاوني)) [مجلة الإسلام والتصوف العدد السادس – السنة الثالثة].

هذا يمكن تحقيقه وبخاصة حين تتطور صورة الموالد إلى ما يجب أن تكون عليه من تطبيق عملي للوصايا والمقترحات الخاصة بذلك وبالتعاون التام بين وزارات الأوقاف والثقافة والشئون الاجتماعية والأزهر ومشيخة الطرق الصوفية وغيرها من الهيئات المختصة، وفي ضوء ذلك التعاون يمكن أن تقوم الموالد برسالة تثقيفية كبرى، يمكن عن طريقها تنقية التصوف مما علق به من أوهام لا تمت إليه بصلة، وتنقية الأذكار مما يتنافى مع الأداء الشرعي وآدابه السامية.

كما قام الصوفية بالحث على الصدقة والإحسان العام إلى الفقراء واعتبروا ذلك سلوكاً للتقرب إلى الله والعمل على مرضاته، وكانوا قدوة طيبة في هذا المجال، والقدوة هي الوسيلة التي يتمكن بها المصلح الاجتماعي من أداء رسالته.

ومن الوسائل التي اتخذوها لتحقيق التكافل الاجتماعي كذلك:

أنهم أخذوا على عاتقهم إحياء النذور والإكثار منها والوفاء بها، وذلك بالتذكير بهذا الحق، وفي ذلك رحمة وبر بالفقير، ودعوة اجتماعية كريمة وعملاً بقوله ﷺ (عن أنس جامع الأحاديث والمراسيل):

{صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ وَالآفَاتِ وَالْهَلَكَاتِ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ }

وفي ذلك يقول أحد الصالحين:

((إن الله عودني عادة وعودته عادة، عودني أن ينعم علي، وعودته أن أنعم بنعمته على عباده، فإن أنا قطعت عادتي أخاف أن يقطع عادته)).

ولا شك أن الجهود الفردية في المعاونة والمساعدة تخفف العبء عن الحكومات في جهودها الرامية إلى مساعدة المحتاجين والمعوزين، وعن طريق التوعية الصحيحة قي تقديم النذور، وعن طريق صناديقها يمكن إنشاء مشروعات كثيرة لصالح المحتاجين والفقراء.

سادساً: حل المنازعات

كان للتصوف دور كبير....

في فض المنازعات وإقامة السلام والأمن في ربوع البلاد، والقضاء على داء التشاحن والتباغض بين الناس في كثير من الأقاليم، وخاصة التي تنتشر فيها عادة الأخذ بالثأر، ولم تجد فيها قوات الأمن أو حملات الوعظ أو التخويف والزجر، ولكن كلمة بسيطة من رجل صوفي ملهم يكون لها فعل السحر في النفوس، فتستل دوافع الحقد منها، وتقضي على دوافع الشر والفتنة، وتبسط سلطانها القوي على الناس، فإذا بهم جميعاً اخوة متحابون متآلفون يسعون في سبيل الخير والصالح العام.

ومن عجائب ما يروى في ذلك ما كتبه الشيخ علاء الدين النقشبندي عن والده الشيخ ضياء الدين النقشبندي في كتابه ((رسالة طب القلوب))صـ ٣٦ حيث قال:

❀ ((كنت عند حضرة والدي في (شهر زور) إذ جاءه رجل عليه علامات الخوف والقلق، وبعد السلام والجلوس بين يدي حضرته بيّن له أنه قتل ابن أحد رؤساء العشائر في (زهاو) والتجأ إلى رؤساء المنطقة واحداً واحداً إلا أنهم رفضوا لجوءه؛ فاضطررت للالتجاء إليكم، فوجه والدي الكلام إليَّ وقال:

يا ولدي علاء الدين! تهيأ للسفر إلى صاحب القتيل وعندما تواجهه بلغه سلامي وقل له إن والدي يقول:

((إن هذا القاتل الماثل بين يديك توسل بي لأطلب عفوه منك عما جناه، وها أنا

قد أرسلته إليك فإن تعف عنه فذلك من أحسن الخيرات، وإن تأخذ القصاص فلا حرج عليك)) ، قال: فسافرنا حتى وصلنا إلى محله، وبعد ورودنا بساعة رأيت أنه أمر بإعداد بيت مؤثث كامل لم أعرف سبب إعداده، ولما حان وقت طعام العشاء نقلت له كلام والدي ورجاءه، فقال لي:

إني عرفت قصدكم إلا أنني لو عفوت عنه الآن، بدون تمهيد، قتله أقاربي ولهذا سأزوجه إبنتي وأجعله في مكان إبني حتى لا يتعرض له أحد، وفعلاً زوجه إبنته ، وأجرى العقد الأستاذ الملا مُحَمَّد الذي كان يصاحبني في هذا السفر؛ فصارت تلك الحادثة ومعاملة وليّ المقتول للقاتل بهذه الطريقة الرائعة النادرة من النوادر؛ حيث لم يكتف بالسماح عن القصاص وحسب، بل أكرم القاتل وزوجه إبنته وظهر أن إعداد البيت المؤثث كان لهذا الغرض)) انتهى.

❁ ويحكي الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني مثل ذلك في كتابه (التصوف والحياة العصرية) صـ ١١٨ فيقول:

((حدثنا مرة أساتذتنا في الأزهر الشريف أن إحدى القرى ضاق الوعاظ ورجال الأمن بإصلاحها ذرعاً، وكان لا يمر يوم دون أن يحدث بين أهلها مشاجرة وتسفك فيها دماء ويقتل أبرياء، وأستعرت فيها نار الثأر.

وبعد أن استحكم اليأس واشتد البأس نزل بهذه القرية أحد شيوخ الصوفية الصالحين، ولم يمض على وجوده وقت طويل حتى تصافى الناس ونسوا أحقادهم، ونزعوا عاداتهم السيئة، وساروا في الحياة آمنين مطمئنين)).

❁ والذي شهدناه بأنفسنا:

أن الجرائم والخصومات لم تزد هذه الزيادة الكبيرة في عصرنا، إلا بعد انصراف الناس عن مشايخ الصوفية، وقلة نزولهم للبلاد، فقد كان رجال الصوفية – ولا يزالون – لا يسمعون عن خصومة بين طرفين إلا أسرعوا للصلح بين الطرفين بدون إستدعاء من أحد لأنهم يرون أن ذلك واجباً كلفهم به الله ﷻ في قوله عزَّ شأنه

وتعالت أسمائه [الآية (٩) سورة الحجرات] :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾

وكلفهم به النبي ﷺ في معنى قوله:

{ مَنْ لَمْ يَهْتَمْ بِأَمَرِ المُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ }

وكان الله ﷻ بفضله ومنّه وكرمه يوفقهم ويجري الخير على أيديهم لأنهم كانوا يتحرون في سعيهم قوله ﷻ فى الآية (٣٥) سورة النساء :

﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾ .

سابعاً: نصرة المظلوم

ضرب الصوفية المثل الأعلى في التعاون، وهم لذلك تخلقوا بصفة الفتوة، ومفهوم الفتوة عندهم يعنى سعي العبد في أمر غيره.

وعن طريق هذه الفتوة حقق الصوفية أهدافاً نبيلة لمجتمعاتهم ، فقد استغلوا مكانتهم الاجتماعية، وأسدوا إلى الناس الكثير من الخدمات: ..... حين وقفوا في وجه استبداد السلاطين وعمالهم، وتشفعوا لرعاياهم، واستجيبت شفاعتهم، فقد كان لالتفاف الرعية حولهم وتقدير الناس لهم الأثر الكبير في سرعة استجابة الحكام لهم.

❁ فهذا أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول عنه صاحب درة الأسرارص ٣١.:

((فلما توجهنا إلى المشرق، ودخلنا الإسكندرية، عمل ابن البراء عقداً بالشهادة أن هذا الواصل إليكم – يقصد الشيخ أبا الحسن – شوّش علينا بلادنا ، وكذلك يفعل في بلادكم، فأمر السلطان أن يعتقل بالإسكندرية، فأقمنا بها أياماً.

وكان السلطان رمى رمية على أشياخ في البلاد يقال لهم القبائل، فلما سمعوا

بالشيخ أتوا إليه يطلبونه في الدعاء، فقال لهم: غداً إن شاء الله نسافر إلى القاهرة ونتحدث مع السلطان فيكم.

قال: فسافرنا، وخرجنا من باب السدرة، والجنادة فيه والوالي، ولا يدخل أحد ولا يخرج حتى يفتش، فما كلمنا أحد ولا علم بنا.

فلما وصلنا القاهرة أتينا القلعة فاستأذن علي السلطان. قال: وكيف وقد أمرنا أن يعتقل بالإسكندرية، فأدخل علي السلطان والولاة والقضاة، فجلس معهم ونحن ننظر إليه، قال له الملك: ما تقول أيها الشيخ؟

فقال له: جئت أشفع اليك في القبائل، فقال له: اشفع في نفسك، هذا عقد بالشهادة فيك، وجهه ابن البراء من تونس بعلامته فيه، ثم ناوله إياه فقال له الشيخ: أنا وأنت والقبائل في قبضة الله.

وقام الشيخ ، فلما مشى قدر عشرين خطوة حركوا السلطان فلم يتحرك ولم ينطق، فبادروا إلى الشيخ وجعلوا يقبلون يديه ويرغبونه في الرجوع إليه ، قال: فرجع إليه، وحركه بيده، فتحرك، ونزل عن سريره، وجعل يستحلُّه ويرغب منه في الدعاء. ثم كتب إلى الوالي بالاسكندرية أن يرفع الطلب عن القبائل، ويرد جميع ما أخذه منهم، وأقمنا عنده في القلعة أياماً، واهتزت بنا الديار المصرية)).

❁ وكثرت شفاعات أبي الحسن بكثرة المظلومين والمساكين والذين لاجاه لهم، والضعفاء وذوي الحاجات على مختلف ألوانهم، وأخذ يتردد على ولاة الأمور شافعاً ومدافعاً ومحامياً حتى لقد قال ابن دقيق العيد في ذلك: .... جهل ولاة الأمور بقدر الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ لكثرة تردده في الشفاعات، أما ابن عطاء الله فقد قال في ذلك معلقاً على كلمة ابن دقيق العيد:

إن هذا الأمر لا يقوى عليه إلا عبد متخلق بأخلاق الله،.... بذل نفسه وأذلها في مرضاة الله، وعلم وسيع رحمة الله،... فعامل عباد الله ممتثلاً لقول رسول الله ﷺ فى

الحديث الشريف الذى أخرجه أبو داود والترمذى عن عبدالله بن عمروبن العاص :

{ الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحمنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ }.

على أننا لا نترك هذا الموضوع دون أن نشير إلى أن أبا الحسن كان دائماً يدعو الله قبل أن يسير إلى وساطة في الخير، وأدعيته في ذلك عليها طابع العبودة وفيها عبير الخشوع، وذلك ليشعر هو ويشعر الناس أن الأمور كلها بيد الله وأنه ليس إلا منفذاً لمشيئة الله سبحانه وقد تفضل الله عليه فجعله سبباً في الصالحات. ومن أمثلة ذلك: ما روى صاحب درة الأسرار قال:

وقال ﷺ ، وقد أراد أن يمشي للبعض في الدفع عن رجل من الصالحين:

((اللهم اجعل مشي إليه تواضعاً لوجهك، وابتغاء لفضلك، ونصرة لك ولرسولك، وزّيني بزينة الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون. وخصني بالمحبة والإيثار، ورفع الحجاب من الصدور في الليل والنهار، وقني شح نفسي واجعلني من المفلحين. واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)).

❀ وكذلك كان الشعراني:

فمع أنه كان زعيماً روحياً وإماماً شعبياً، ومجاهداً عظيماً، في تحرير العقول الإسلامية من الجمود والأساطير لم يشغله ذلك الجهاد عن سبيله في إنقاذ الجماهير من ظلم الولاة واستعباد الأمراء وخاصة أنه بلغ منزلة عظمى جعلت الحكام يقصدونه.

فقد حدثوا أن السلطان سليم حين فتح مصر وأقام بقلعة الجبل، وفدت عليه الوفود، وقصده الناس من كل فج، حتى أزمع الرحيل إلى تركيا فقال:

هل بقى أحد من العلماء أو الأولياء لم نره؟

فقالوا له: ما بقى إلا رجل عظيم ولكنه صغير السن لم تجر عادته أن يقابل أحد من الولاة أو يحضر مجالسهم.

فقال السلطان سليم: أنا أذهب إليه.

وذهب السلطان سليم ، وقابل الشعراني وأحبه ، واعتقده ، وقبل شفاعته في العفو عن القاضي محي الدين عبد القادر الزوكي رأس الكتّاب بديوان القلعة، وكان قد غضب عليه السلطان وتوعده وأخذ منه السجلات، ويقال أنه أهدر دمه، فخشي على نفسه ولجأ إلى الشعراني ، فاستجار به فأمنه، وانتهز فرصة زيارة السلطان سليم له فكلمه في شأنه فأجابه ورده إلى سابق عمله.))

❁ وفي عصرنا هذا كان الشيخ محمود أبو هاشم ﷺ وهو من قرية بني عامر محافظة الزقازيق :

يذهب إليه الناس طالبين قضاء مصالحهم، فيطلب منهم أن يأتونه في الصباح، فيخرج معهم منذ الصباح متنقلاً بين دواوين الأعمال المختلفة في المحافظة وغيرها ، حتى يقضي لهم جميعاً مصالحهم ، ولا يرجع إلى بيته إلا بعد قضاء كل ما وصل إليه من مصالح الناس، وكان قرة عينه في رؤيته للبسمة تعلو الوجوه فرحاً بقضاء المصلحة، وظل هذا دأبه حتى لقي ربه ﷻ .

❁ والذي دفع الصوفية إلى ذلك :

هو قوله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام فيما أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد :

{ مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ خَيْراً لَهُ مِنِ اعْتِكَافِهِ عَشْرَ سِنِيْنَ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْماً ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلاَثَ خَنَادِقَ كُلُّ خَنْدَقٍ أَبْعَدُ مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ }

ثامناً: إصلاح المنحرفين

وللصوفية دور إيجابي كبير داخل المجتمعات...

وهو جذب عدد كبير من المنحرفين عن السلوك السوي، وإصلاح نفوسهم وتهذيبها، وتحويلهم من عناصر شر داخل المجتمع إلى عناصر خير، أي أن التصوف نجح في تنقية المجتمع من بعض عناصر السوء، وكتبهم تزخر بآلاف الأمثلة :

❁ ممن كان لصاً يقطع الطريق، كالفضيل بن عياض:

فتاب الله عليه، وأقبل على الجد والاجتهاد حتى لحق بمرتبة الأفراد، وصار الملوك والأمراء يستأذنون في الدخول عليه، ويلحون في طلب النصيحة منه.

❁ أو كان من أهل اللهو والسوء كالشبلي عندما كان والياً:

فندم على ما سلف من سوء عمله وسقطاته، فتجرد من ثيابه وخرج من جميع ما كان عنده وأمر أهله بالخروج عما كان بأيديهم، وتصدق بكل ما لم يعلم له مالكاً، وأمر أهله وأولاده وبناته بالتجرد وخير دليل على صدق توبته أن رُؤى عند موته مهموماً فسُئل عن سر ذلك فقال: إن أشد شئ عليّ الآن درهم اغتصبته من رجل أثناء ولايتي، وقد فتّشت عن صاحبه كثيراً فلم أجده، فتصدقت عنه بألوف، ومع ذلك لا أظن أن ذلك يُغني عني شيئاً، وهذا هو الذي أهمني الآن وأنا ملاق لربي ﷻ .

❁ وهناك العديد ممن سلك الطريق كانوا في لهو دائم يعملون في الطرب والغناء كالسيدة رابعة العدوية، فتركوا ذلك وتابوا إلى الله وأقبلوا على العبادة.

❁ وفي زماننا أيضاً عدد كبير من هؤلاء ممن يسمون بالفنانات التائبات كشادية وشمس البارودي وهناء ثروت وشهيرة وسهير رمزي ومديحة يسري وغيرهن.

على أية حال لقد ضم الصوفية إلى صفوفهم بهذه الطريقة أفراداً من كل طبقات المجتمع، كما سلك الطريق أيضاً بهذه الوسيلة أفراد من الجنسين.

كما كان لهذا المسلك أثر إيجابي عظيم يتمثل في الأوقاف الكثيرة التي أوقفها هؤلاء التائبون للزوايا والمساجد والتكايا والمستشفيات ودور العلم والهيئات الخيرية المختلفة حيث أنهم كانوا يرون في ذلك خير وسيلة لتكفير ذنوبهم، كما أنها صدقة جارية تبقى لهم.

ولو فحصنا بدقة ممتلكات الأوقاف لوجدنا أن معظمها قد جاء بهذه الطريقة، ولوجدنا أن أغلبها أيضاً كان ملكاً للصوفية مما يدل على الدور العظيم الذي كان للصوفية في هذا المجال.

تاسعاً: عمارة المساجد

أولى الصوفية الدعوة إلى الله عز وجل :

جُلّ اهتمامهم فقد كانوا يذهبون إلى شتى بقاع الأرض ناشرين لدين الله عز وجل ، وقد دفعهم ذلك إلى بناء المساجد لربط قلوب المسلمين الجُدد بهذه المساجد، ولدورها الديني والثقافي في حياة المجتمع، هذا فضلاً عن أن كثيراً منهم كان يقوم ببناء المساجد استجابة لقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ التوبة

ولم يقم الصوفية ببناء المساجد فقط....

وإنما قاموا أيضاً بالوظائف اللازمة لعمارتها ، وقد أظهروا تنافساً كبيراً في ذلك، فمنهم من كان يقوم بتعهدها ورعايتها وتنظيفها وخدمتها.

ومنهم من تولى وظيفة المؤذن، ومنهم من كان يقوم بإمامة الناس في الصلاة، كما تولى كثير منهم وظيفة الوعظ والخطابة في المساجد، وكان لهم تأثير قوي في نفوس الناس لأنهم ينطقون عن عقيدة راسخة، وإيمان صادق، وتطبيق عملي لما يقولون، فقولهم يأخذ طريقه فوراً إلى القلوب، ويكون له تأثيره المطلوب.

وقد سئل أحد الصوفية: ما بالك إذا وعظت أبكيت السامعين، وواعظ المدينة يعظ فلا يبكي أحد؟

فقال: ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

ومثل هذا الواعظ هو الذي نحتاج إليه الآن.....

وعمله هو قمة التكافل الاجتماعي الذي يأخذ بيد الناس إلى الطريق السوي، ويقودهم إلى الطريق المستقيم، فليس التكافل في النواحي المادية فقط، بل هو في النواحي الروحية أيضاً حيث يحرص الناجي على أن يأخذ بيد أخيه عن طريق حثه على الخير، ومنعه عن الشر.

عاشراً: العلاج النفسي

جاء الإسلام لهداية البشرية من الضلال إلى نور الحق....

وكان من أولى مهامه إرساء قواعد مجتمع مثالي في علاقة أفراده بخالقهم، وفي علاقاتهم مع بعضهم البعض، في علاقاتهم بالمجتمعات الأخرى، ومن أجل تحقيق هذا الهدف، فقد حث القرآن على التمسك بالصفات الحميدة، والخصال النبيلة، والعمل من أجل خير الدنيا والآخرة مما يزيد الجماعة قوة وتماسكاً.

فإذا خلد الإنسان إلى نور الإيمان وعرف أن دنياه قصيرة، وأن آخرته هي الأبقى، وأن ما يكابده في رحلته في الدنيا إلى الآخرة من نفع وضر إنما هو لصالحه، وذلك لتربية نفسه، وتعويدها على مكارم الأخلاق، والصبر على الفاجعات، حظى هذا المجاهد بعون

الله ورحمة الله وعطاء الله وحب الله، وهو في ذلك لا يخسر شيئاً في دنياه ولا في آخرته، وإنما على العكس من ذلك تكسب نفسه السكينة والطمأنينة والأمن، فتُقبل على ما هو خير وأبقى من حب الفضائل وأعمال الخير، ونبذ ما هو لعب ولهو.

ولقد اهتدى الصوفية إلى أن ذلك هو الطريق الحق للصحة النفسية في الدنيا والآخرة، ورأوا أن حصول ذلك يكمن في تخلية النفس من نزعاتها الشهوانية وأهوائها النفسية، وأوصافها المذمومة، وتحليتها بالأوصاف المحمودة، وبذلك يمكن شحن فراغ النفس بعد التخلية، بمفاهيم إيجابية جديدة، ومبادئ سامية قويمة، حتى تتغير حال النفس وتتطبع بالمثل العليا والأخلاق الفاضلة، وتسلك طريقاً أكثر أمناً وأعظم أملاً.

وتحققوا أن ذلك لا يتحقق للإنسان إلا بالتربية السليمة، والتنشئة على محبة الفضائل، وبالتمسك بمكارم الأخلاق، وبالتبصر بطريق الله، وبالصبر على المكاره وتحمل الفاجعات، والتزهد فيما عند الناس، والصبر على الإبتلاءات والرضا بالاختبارات، وبهذا الطريق وحده تتفوق النفس على أنانيتها، وتقوى على شيطانها، فلا تنزع إلى الأهواء، ولا تميل إلى الشهوات.

وإذا استقام الإنسان فإنه يلهم بالحقائق – فضلاً من الله ومنة – فيحيا بالخشية قريباً من الله، وينجو بالخوف من وعيد الله، ويقبل بالرجاء في وعده تعالى، فتطمئن نفسه بحب الله، فلا تنشغل بسواه، وبذلك تنسى غرورها وتكبرها، وتجبرها، وتعاليها، فينصلح حالها، وتبتعد عن النقائص والآفات، وعن الوساوس والهواجس والأمراض.

ولا يتم ذلك للإنسان :

إلا بواسطة الطبيب الروحاني المربي فهو الذي يساعد مرضاه ويوجههم بعد كشف العيوب للتخلص منها. فهو الذي يروض نفس الطالب ليجعلها قابلة لتغيير طبعها وتحسين أخلاقها، وذلك عن طريق الأدب مع الله، والتوكل عليه تعالى، حيث ترضى بما يأتيها من خير وشر، وتصبر على الإمتحانات والإختبارات.

وبذلك يصقل معدنها من دنسها ونقصها. ويعمل المربي جاهداً على الأخذ بيد الطالب، ويحذره من عثرات الطريق، ويعرفه أن موافقة الشهوات تقود إلى الإنتكاس والإنحراف والمعاصي والذنوب، إذ أنه مازال في اختبار، إذا نجح فيه وصل إلى شاطئ الأمان، وبه يدخل إلى طريق الله، أما إذا شعر بالعُجْب والرضا فإن ذلك يدل على الفشل والنكسة، وعليه أن يبدأ من جديد في مخالفة نفسه الأمارة.

فالمربي قريب من مريده، يسير معه خطوة خطوة، وعلى الطالب أن يصارح طبيبه بخواطره النفسية، ويكشف له عن باطن نفسه أولاً بأول، وألا يكذب عليه، حتى يتمكن من معاونته وعلاج ما بقى من نفسه من شهوات وأهواء ويساعده على القضاء على أمراضه الباطنة.

ويجدر القول أن الطبيب المربي:

يحدد لكل طالب ما يناسبه من رياضات ومجاهدات وأوراد ونصائح، بل يحدد له ما يصلح له من أعمال وأفعال، كالعزلة والخلوة والصيام والذكر وقراءة الأوراد وتزكية النفس لأعمال البر والخير والإحسان، وكل طالب يُقبل على العلاج حسب ما تيسر له من بناء نفسي واستعداد للمجاهدة ومثابرة لتقبل الطريق إلى الله. وليس ما يطبق على هذا يصلح للتطبيق على غيره.

ولا يزال مع الطالب حتى يتقدم شيئاً فشيئاً في مراحل الشفاء، فتصفو نفسه، وتترقى من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، تتكامل شخصيته، وتصل إلى مراتب السمو الأخلاقي فيعرف طريقه، وتهنأ نفسه، ويعيش في كنف الله راضياً، ويشهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهكذا نجد أن الطريق إلى علاج النفس من أمراضها واضح وضوحاً تاماً عند الصوفية، لأن الطبيب المربي عارف برعونة النفس وجنوحها.

لذلك فهو يبدأ مع الطالب بأن يطلب منه التخلي عن الحظوظ الدنيوية المؤقتة، والتوبة عن الآثام والذنوب. وإذا صدق المريد عرف طريقه، واستنار بأنوار الحق، فتستجيب نفسه إلى العلاج، وتتخلص من الكبر والعُجْب والأثرة وحب السيطرة والرياء وغيرها.

فالتوازن النفسي في التربية الصوفية يتركز في تعويد النفس على تجنب الحظوظ والأهواء، والبعد عن الرغبات الدنيئة، ومخالفة الشهوات الدنيوية الرخيصة، ورفض الملذات الزائلة، والإقبال على ما هو باق خالد، عند ذلك ترضى النفس بحالها وأحوالها، وتواكب طريق الله مسترسلة معه أبداً لا تستهدف إلا محبته وقربته تعالى.

وهكذا نجد أن الصوفية نجحوا فيما فشل فيه علم النفس الحديث ، ويصور هذا الفشل الدكتور حسن الشرقاوي في كتابه (نحو علم نفس إسلامي) صـ ٤٣ فيقول:

((إن علم النفس الحديث بمدارسه المختلفة قد تخبط في وصف أمراض النفس، وحاول علاجها بطرق سلبية، وأساليب تخديرية هي بمثابة مسكنات لأمراض سرطانية، ما يلبث أن يزول تأثيرها فيرجع المريض إلى حالته الأولى من المرض والعصاب.

وقد أستخدم لذلك أساليب وطرق عقيمة كالإيحاء، والتنويم المغناطيسي، والتنفيس، واللعب، والتداعي الحر، وتفسير الأحلام، والأباطيل. وغير ذلك من الطرق السطحية.... !! ، وحتى لو افترضنا تخلص المريض عن طريق هذه الطرق من بعض أمراضه الباطنة، فإنه ما يلبث أن يشحن مرة أخرى بأمراض أكثر ضراوة تزيد من تفاقم حالته)).

ثم يؤكد الدكتور حسن الشرقاوي صحة النتائج التي وصلنا إليها في هذا الباب فيقول صـ ٤٤ من نفس المرجع:

((وإذا كان علم النفس يريد حقاً أن يتعرف على حقيقة النفس البشرية، ويسعى إلى حكم رشيد على الشخصية الإنسانية، فعليه أن يغير من وسائله وغاياته، ويبدل نظرته المحدودة ليصبح قادراً على الوصول إلى نتائج إيجابية تفسر السلوك الإنساني تفسيراً صادقاً وسليماً.

ولن يتمكن علم النفس من الوصول إلى ذلك إلا إذا اتبع منهجاً إسلامياً.... ، قد استقي مادته من علم الله.... ، وأخذ من آياته البينات نظرياته وأفكاره... ، فيعمق بذلك أبحاثه ودراساته... ، ولا يتناقض مع نفسه في تبرير فروضه المتخيلة، وتحليلاته السطحية الفاترة)).

أما عن دور الصوفية في علاج الحالات التي تنتاب النفس البشرية كاليأس والقنوط والوساوس والكبت والعقد النفسية والأحلام وغيرها ، فهذا أمر يحتاج إلى تفصيل واسع ليس هنا مكانه.

ولكن الذي نود أن نشير إليه أن الصوفية :

هم أصحاب الباع الطويل في علاج الحالات النفسية ،ووصف أحوالها وأطوارها ، وقد كانت – ولا تزال – بيوتهم مصحّات نفسية تستقبل المرضى النفسيين في كل وقت وحين وتقدم لهم العلاج وواجبات الضيافة بالبشر والترحاب.... ، وكل ذلك ابتغاءاً لوجه الله ﷻ ، وطلباً لمرضاته سبحانه وتعالى، لأنهم يعتقدون أن تلك مهمتهم، وهذه حقيقة رسالتهم.

ب- الدعوة إلى الإسلام

انتشر الإسلام وسطع نوره في معظم أنحاء الدنيا بطرق ثلاث:

١- عقب الفتوحات الإسلامية وبعد انتهاء الحرب، وذلك نتيجة جهود المبشرين من الصحابة والتابعين الذين كان لأخلاقهم الإسلامية وسلوكهم الحميد الأثر الكبير في إقناع الآخرين بحقيقة هذا الدين.

٢- التجار والمهاجرون المسلمون الذين استقروا في بلدان كثيرة والذين استطاعوا أن يعرفوا شعوب الأرض بمحتوى الدعوى الإسلامية.

٣- الجهود الكبيرة التي كان يقوم بها متبعوا الطرق الصوفية التي انتشرت في كل من آسيا وأفريقيا، والتي كان لها دور بارز في تأسيس الكثير من المراكز الدينية التي أسهمت بدور فعال في جذب الكثيرين إلى حظيرة الإسلام.

ولما كانت الدعوة إلى الإسلام لا تقوم بها جهة أو هيئة منظمة، بل تعتمد على جهود الأفراد التطوعية :

فلقد كان للصوفية العبء الأكبر في هذا المجال وقد تحدث في هذا الأمر الإمام مُحَّد أبو زهرة في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) فقال صـ ٧٧:

((الدعاية الصوفية كانت تقوم على أمرين:

أحدهما – من القدوة والاختلاط، والأخلاق الإسلامية والتسامح والرفق في المعاملة، والمثل الطيبة الواضحة في المعاملة الحسنة.

وذلك أن أئمة الصوفية كالقطب عبد القادر الجيلاني، وأبي الحسن الشاذلي والمرسي أبو العباس، وابن عطاء الله السكندري، كانوا على أخلاق إسلامية طيبة، وكانوا على سماحة تدني البعيد، وتثبت القريب. وبهذه الأخلاق التي سرت إلى بعض مريديهم وأتباعهم كانوا يجذبون إلى الإسلام طوائف من غير المسلمين الذين يختلطون بهم، فإن المعاملة الحسنة، والاختلاط الذي يكون بعشرة طيبة يجذب النفوس، وتسري بها العقائد

الفاضلة، فتسري العقيدة العالية إلى ما دونها كما يسري الماء العذب من المكان المرتفع إلى المكان المنحدر.

وقد كان هؤلاء الآحاد من المتصوفة الذين لا يشعبذون بل يتعبدون ويختلطون بأهل أفريقيا الوثنيين، والمجوس والوثنيين في آسيا، فيؤثرون بمعاملتهم، وبسعة صدورهم، وعقولهم بأكثر مما يؤثر القول، وقد كانت تقترن بهذه الأخلاق دعوات أحادية أحياناً.

الثاني من الأمور التي كانت تقوم بها الدعاية الصوفية:

مجالس الوعظ التي كان يعقدها الأئمة من الأقطاب، فقد كانت مجالس عامة يحضرها المسلمون، ويحضر فيها غير المسلمين فيتبعون الشيخ في مواعظه ثم يعلو الاتباع حتى يتبعوه في عقيدة الوحدانية)).

ثم تحدث عن الشيخ عبد القادر الجيلاني وكيف كان يحضر مجالس وعظه اليهودي والنصراني، والمجوسي والوثني، وما كان المجلس ينفض إلا على إسلام كثيرين.

ومما يذكر في هذا المجال ما قام به فضيلة المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود – الصوفي – من التزامه بواجب الصوفي إلى جانب واجبه الآخر كشيخ للإسلام مما كان له أثره في أن أعلن على يديه أربعة آلاف ماليزي وعشرة آلاف ياباني، وما لا يحصى من الأندونيسيين الإسلام أثناء زيارته لهذه البلاد سنة ١٩٧٤م ، وقد ذكرت ذلك الصحف في حينه وتراه مسجلاً في مجلة الأزهر عدد شوال ١٣٩٧هـ.

ويشير إلى هذه الحقيقة أيضاً الدكتور محي الدين الألوائي في مقال له بعنوان (الدعوة الإسلامية وتطوراتها في شبه القارة الهندية) بمجلة الأزهر ذو القعدة ١٣٩٧هـ قائلاً:

((ولم نر في تاريخ الدعوة الإسلامية الطويل في شبه القارة الهندية جماعة أو هيئة رسمية أو غير رسمية أنشئت لغرض الدعوة والتبليغ حسب منهج تبليغي منظم، وكل ما رأيناه في مجال الدعوة هو الجهود الفردية من الدعاة المخلصين من العلماء والوعاظ

الصوفية الذين اتخذوا من مجالسهم العلمية إما في منزلهم أو في التكايا أو في المساجد مراكز لبيان محاسن الإسلام وإبرازها ناصعة واضحة أمام الناس، كما كانوا يقومون برحلات وجولات في سبيل نشر دعوة الحق بطريق الموعظة والإرشاد، وفي جميع الأحوال كانوا قدوة حسنة وحية في حياتهم الخاصة والعامة للتحلي بالأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة والإخلاص والوفاء، كما كانوا يهتمون بتربية الناس على الطباع المستقيمة التي يدعو بها الدين الحنيف)).

وأهم الطرق الصوفية التي كانت أحد العوامل المهمة في نشر الإسلام القادرية في القرن السادس الهجري التي كان يتزعمها سيدي عبد القادر الجيلاني والتي أسست لها مراكز في غينيا والسودان الغربي، وامتدت أيضاً من السنغال إلى مصب نهر النيجر.

وكانت التجانية أيضاً من أهم الفرق الصوفية بزعامة الشيخ أحمد التجاني، واتخذت من مدينة فاس بالمغرب مركز لنشاطها إلى جانب المراكز الأخرى التي انتشرت في أرجاء أخرى من القارة وكما ذكر مُحَمَّد فتح الله الزيادي في كتابه (انتشار الإسلام) صـ ١٣٦ : ((وهاتان الفرقتان كان لهما دور كبير وبارز في نشر الإسلام بين الأفريقيين بطرق سلمية بحتة وبإقناع بالحجج والبراهين، ودونما استخدام أي سيف أو ضغوطات أخرى)).

ويقول أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) صـ ٣٦٥:

((وفي غرب أفريقيا كانت هناك طائفتان قائمتان بصفة خاصة على نشر الإسلام، هما: القادرية والتيجانية)).

ويتحدث أيضاً عن أثر الطريقة الادريسية والميرغانية ، .. فيقول عند حديثه عن الحركات التي عملت على نشر الإسلام في أفريقيا صـ ٣٦٤ من نفس المرجع:

((ومن أسبق تلك الحركات، حركة يعزي قيامها إلى السيد أحمد بن إدريس، وقد أرسل قبل موته عام ١٨٣٥م أحد أتباعه ويدعى مُحَمَّد عثمان الأميرغني في رحلة إلى أفريقيا لنشر تعاليم الإسلام)).

ويقول الإمام مُحَمَّد أبو زهرة في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) صـ ٨٠:

((وكان للصوفية فضل كبير في هذا فإن أتباع أبي الحسن الشاذلي، والمرسي أبي العباس، ونشاط ابن عطاء الله السكندري كان لهم دخل بالقدوة والمسلك في أفريقيا، والفضل الواضح الأثر كان للتيجانية والسنوسية في القرون الأخيرة.

فقد كانت التيجانية لها عناية شديدة بالدعوة إلى الإسلام، في غرب أفريقيا ووسطها، حتى إنك ترى الكثرة الكاثرة في ساحل الذهب وساحل العاج، وغانا، وغينيا، والسنغال، والكونغو، ونيجيريا من المسلمين الأقوياء في تدينهم)).

ويذكر كذلك أنه استجابة لدعوة السنوسية القوية المستمرة دخل عدد لا يحصى بألوف الألوف في نيجيريا وغانا وغينيا والسنغال والكونغو وتشاد وأوغندا وغيرها من وسط أفريقيا.

ويُرْجع أسباب الحروب التي شنها الاستعمار على الصوفية بكل الطرق المحللة في قانون الأخلاق والمحرمة على سواء، يرجع ذلك إلى: إحساس الدول التي باشرت استعمار أفريقيا كفرنسا وإنجلترا وإيطاليا بخطر الدعوة الإسلامية التي يقوم بها الصوفية على مطامعهم الاستعمارية، وفشل المبشرين الأوربيين في مباراتهم في ذلك.

أما في آسيا :

فقد انتشر الإسلام في القوقاز وداغستان عن طريق دعاة مسلمين كان في مقدمتهم الشيخ الشافعي أبو مسلمة، ثم ساعد ظهور الطريقة النقشبندية في إذكاء روح الدعوة إلى الإسلام واستمرار انتشاره. وتحدثنا الروايات التاريخية أنه عندما أضطهد

الأمويون الشيعة من أتباع زيد بن علي (زين العابدين) فضّل هؤلاء الفرار من ظلم الأمويين ولجئوا إلى الصين حيث استقروا هناك، وعملوا على نشر الإسلام في بعض المناطق التي زاروها في رحلاتهم التجارية، وكان لسلوكهم الحميد وتصرفاتهم الإسلامية الأثر الكبير في إقناع الكثيرين من الصينيين باعتناق الإسلام.

وكذلك كان انتشار الإسلام في ماليزيا والملايو وأندونيسيا وغيرها من بلاد شرق آسيا نتيجة لجهود المخلصين من التجار وأتباع الطرق الصوفية.

وهكذا الأمر أيضاً بالنسبة لانتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا:

فقد ذكر كثير من المفكرين الذين أسلموا حديثاً كجارودي الفرنسي وهوفمان الألماني وغيرهم أن الذي جذبهم إلى الإسلام الروح التي وجدوها في الصوفية وافتقدوها في الحضارة الأوربية المادية .

وقد أجرت مجلة منار الإسلام التي تصدرها دولة الإمارات العربية استطلاعاً عن دخول غير المسلمين للإسلام في الدول العربية، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن أكثر عدد من الأوربيين يدخل الإسلام في الدول العربية يتم في دولة المغرب، ويرجع ذلك إلى حلقات الذكر التي يقيمها المتصوفة هناك، فتجذبهم بروحانيتها، فيلتفون حولها ليشاهدوها، ولشدة تأثرهم بها ينخرطون فيها فجأة وبدون مقدمات، ويكون ذلك مقدمة لإعلانهم الدخول في الإسلام.

ونختم حديثنا في هذا الموضوع بقول الإمام مُحَمَّد أبو زهرة رحمة الله تعالى عليه في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) صـ ٨٧:

((إن البلاد الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها تؤثر فيها الدعوات الصوفية وأعمال الصوفيين، فإذا قاموا بحق الدعوة استجاب الناس لهم، إن كانوا مخلصين،

وخلاصة القول أننا نريد أن تتوجه الصوفية إلى الدعوة إلى الإسلام في ربوع الشعوب الإسلامية كلها، لا في مصر وحدها)).

ويقول أيضاً فى نفس المرجع :

((إن مشايخ الطرق الصوفية في كل الأقاليم الإسلامية.... لو اتجهوا إلى ما اتجه إليه أسلافهم في الماضي، ونظموا الدعوة إلى الإسلام في مجتمعاتهم، لكانوا قوة في الدعوة إلى الإسلام منتجة مثمرة)).

ج- الصوفية والعلوم العصرية

لقد كانت خشية الله هدفاً سامياً من أهداف الصوفية... والعارفون بالله أخشى الناس لله، والمعرفة أساسها العلم، وليس العلم الديني فقط، بل العلم بما تحويه الدنيا من عوالم تخطف البصر وتلفت الذهن وتبعث على التأمل.

ولذا فقد نادى الصوفية بأن يستغل المريد قدراته الممنوحة له في الوصول إلى الحق، وبرز منهم علماء أجلاء في مختلف العلوم والفنون، ولم تقف مجهوداتهم عند التبحر في علوم الشريعة وما ورائها من أسرار، ولكنهم برزوا في الكثير من علوم الحياة من تاريخ وتقويم وهندسة وطبيعة ورياضيات وغيرها ، ويقول في ذلك الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني في كتابه (التصوف والحياة المعاصرة) صـ ١٢٦ :

((يرى الشعراني أن العلم الظاهري ضرورة لتعمير الحياة، بل يرى أنه وسيلة للتقرب إلى الله عند أهل الحق. ويقول في ذلك في كتابه ((درر الغواص)) إن أهل الحق

يشهدون جميع العلوم حتى الحساب والهندسة وعلوم الرياضيات والمنطق والعلم الطبيعي لها دلالة وطريق إلى العلم بالله)).

ويرد في كتابه ((آداب العبودية)) على من يرى في دراسة هذه العلوم حجباً عن الله بأن الذي يشهد ذلك إنما هو محجوب عن موضع الدلالة فيها عن الحق، لأن جميع العلوم التي يراها أكثر الناس حجاباً إنما هي عند أهل الله لا حجاب فيها.

وللاستدلال على سبق الصوفية إلى العلوم التجريبية أسوق ما أورده الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله في كتابه ((تفسير الجواهر)) عند قوله تعالى:

﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، قال :

((ألهم الله الرجل الصالح الشيخ الخوَّاص في القرن العاشر الهجري أن يُلقي بعض مسائل للشيخ عبد الوهاب الشعراني وتلك المسائل تناسب الآية التي نحن بصددها، وتناسب العلوم التي كشفت حديثاً ولم تكن معلومة في ذلك العصر.

وإنما فعل ذلك ليرد على جهلة المسلمين في عصره الذين يقولون أن العلوم لا لزوم لها، وفي الوقت نفسه حجة على من يدعي من الصوفية جهلاً أن الإسلام براء من هذه العلوم، لقد أظهر الله على يد الخواص بعض العجائب العلمية ليثير في المسلمين روح التعلم، وليكون ذلك علامة على صدق هذا الدين ومعجزة لصاحب الشرع عليه أفضل الصلاة وأتم السلام)) .

أما هذه المسائل التي أشار إليها الجوهري:

فتتلخص في أن الخوَّاص أخبر تلميذه الشعراني بأن كل شئ في الوجود حي يُدْرك حتى الجمادات وفي أن الأشجار تتعاشق ويطلب بعضها بعضاً للقاح، وعلق الجوهري رحمه الله على ذلك بقوله:

((إن كلام الصوفية هذا هو ما كشفته العلوم الحديثة الآن:

فتعاشق الأشجار الذي قال به الخواص هو نفس ما أثبته العلم الحديث في نظرية التلاقح، وأما حياة الجماد فهو أمر خفي لم يذكر علماء الحاضر منه إلا قولهم: كل الجمادات متحركات، وهذا أمر صحيح مبرهن عليه.

ومعنى ذلك أن كل قطرة ماء، أو قطعة حجر مركبة من ذرات صغيرة، والذرات الصغيرة ترجع إلى جواهر فردة، والجواهر الفردة ترجع إلى عناصر أولية كالأوكسجين والأيدروجين، وهذه العناصر متى تحللت ترجع إلى الكهرباء، وما هي إلا تموجات وبينها مسافات متباعدات، يدور بعضها على بعض كما تدور السيارات حول الشمس (أى الكواكب السيارة) ، فالعوالم كلها متحركة دائماً لا سكون لها، حركات تلك الذرات لا فتور فيها، فهي لا تهدأ من يوم أن خلق الله العالم إلى أن يفنى، والخلاصة أن كل موجود حي)).

ثم نبه الجوهري إلى النتيجة العظيمة التي استخلصها في بحوثه فقال:

((إن كشف العصر الحاضر أتى بثلاثة أرباع ما قاله شيوخ الصوفية من باب الإلهام ....!!... ، وقد نبه هؤلاء الشيوخُ المسلمون ولكن مع ذلك بقوا غافلين لم يفطنوا لما يقوله الشيوخ)).

والحقيقة أن الإلهام من أوصاف وصفات وخصائص العالم المسلم:

إذ أن الله سبحانه وتعالى، يقذف في قلبه إذا كان عدلاً مستقيماً، ببعض المعاني أو الإلهامات في ذلك العلم الذي يشتغل به، فيأخذ العالم هذه المعاني والإلهامات، ليطبقها علمياً أو يمتحنها تجريبياً، ليستوضح مغاليقها، ويستكشف غوامضها لينتفع بها الناس في حياتهم الدنيوية.

فالعالم الصوفي المسلم يُلهم بالفرض العلمي من الله ﷻ ، ومن سنة الرسول ﷺ ، ثم يحاول امتحان هذا الفرض تجريبياً وعملياً.

وإذا ما عرجنا إلى العلماء في العصر الحديث، فإننا نجد أن أكثر المستحدثات والمستكشفات الجديدة، في أي فرع من فروع العلم العملية والتطبيقية، إنما تقوم أساساً على إلهام يلهم به الباحث فيحاول تطبيقه عملياً ليظهر في صورة مخترع جديد.

وما النظريات الحديثة في مجال التكنولوجيا، إلا نوعاً من إلهامات العلماء، تمتحن فيثبت صدقها ونفعها للناس.

وهكذا نجد أن الصوفية :

وفقوا بين العلم والعمل، وبين السعي في الحياة الدنيا وبين السعي للآخرة، ولم يقفوا حجر عثرة في وجه التفكير الحر والرقي العلمي، كما أنهم لم يشجبوا الأخذ بالتقدم العمراني والتكنولوجي في الدول التي سبقتنا إلى الحضارة المادية، وإنما طلبوا منا أن نتوخى الحذر، وأن نزن كل ما نلتقطه بميزان عدل، فنرفض الذي يخالف ديننا وأخلاقنا، ونأخذ بالذي يتوافق مع مفاهيمنا وقيمنا الحياتية.

ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا ترك المشتغلون بالدين الخمول والتبطل والانعزال، وشاركوا في الحياة العامة مشاركة فعالة، وبدأوا في تطبيق الفكر الإسلامي في ميادين الحياة العملية، حيث يمكن أن تتغير النظرة إلى الإسلام بما هو جدير به من إجلال واحترام. ويبين الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه (الإسلام والعقل) صـ ٢١٦ الفرق بين النظرة الأوربية إلى العلم والنظرة الإسلامية إليه فيقول:

((وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادي، فإن الإسلام: لا يقف عند ذلك، وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة، ألا وهو: القلب أو هو الروح والبصيرة ، إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشراقية، أو الكشفية، أو الإلهامية ، ويجمع الإسلام الاتجاه العلمي الحديث إلى الاتجاه البصري في قوله(٣٦ الإسراء) :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾

فالسمع، والبصر:... هما أساس العلم المادي علم التجربة، والملاحظة.

أما القلب:... فإنه أساس العلم الإلهامي.

إن الله سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة... ، ويوجهه أيضاً إلى الاستشراف للهداية والنور القلبي..، عن طريق الخلق

الكريم، والتقوى والإخلاص، وحب الإنسانية، والمعاونة في الخير.

وإذا كان الإسلام أوسع نظرة في الجانب العلمي عن الحضارة الحديثة، وأدق وأشمل، فإنه يختلف معها إختلافاً جذرياً حاسماً في مسألة الإرادات والنوايا، وفي أمر الأسباب والبواعث، وفي اتجاه الغايات والأهداف.

إن الحضارة الحديثة تقول: العلم لا صلة له بالأخلاق، أو تقول: العلم لا أخلاقي ، والعلم في نظرها لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الإسلام: يجعل أسس العلم متسمة بالخير، ويجعل غايته منغمسة في الخير ويجعل من العلم قربى إلى الله، ويجعل منه عبادة لله ، ومن هنا كانت حضارة الإسلام: حضارة رحمة وهداية، لا حضارة تدمير وتخريب:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

د- الصُّوفيَّة وريادة العلوم

أولى الصوفية للعلم اهتماماً كبيراً ....

حتى كان يشار لكثير منهم كالجنيد والقطب الجيلاني والشاذلي وغيرهم بأنك إذا حدثته في علم تجده يجده إجادة تامة كأنه لا يعرف غيره، فإذا انتقل معه إلى آخر تجده متبحراً فيه كذلك وكأنه تخصصه الذي عكف عليه طوال حياته.

وقد روي عن جماعة كثيرة منهم أنه كان يحضر مجلس درسه الفقهاء والنحويون وأصحاب علم التفسير وأصحاب الحديث ورواة الأدب واللغويون وغيرهم وكل يستزيد في علمه أثناء إلقاء الشيخ لدرسه.

ولذا فلا نعجب أن نجد الشعراني يشترط للشيخ في طريق الله أن يكون عنده ((علم العلماء، وتدبير الأطباء، وسياسة الحكماء)) لكن الذي نود أن نشير إليه هنا أهم المجالات التي بلغ فيها الصوفية دور الريادة لأنهم أول مَنْ تكلم في هذه العلوم، ولهم الفضل في إنشائها ونقلت عنهم إلى غيرهم.

❁ فمن ذلك علم الكيمياء الذي يعد جابر بن حيان مؤسسه الحقيقي باعتراف أساطين علماء الغرب، وقد اعترف جابر بأن الفضل في ذلك ينسب للإمام جعفر الصادق حيث أنه هو الذي لقنه مبادئ هذا العلم، وتولى توجيهه وإرشاده، وكان يعرض عليه نتائج ما توصل إليه، فيقره على ما أصاب فيه، ويصحح له الخطأ، ويبين له السبيل الأمثل للوصول إلى النتائج اليقينية مما يعد معه هذا العلم صوفياً في نشأته.

❁ أما علم النفس فلا يزال دور الريادة فيه للصوفية إلى يومنا هذا.

لقد فهم الصوفية النفس البشرية فهماً طيباً من خلال تعمقهم في آيات الله البينات، وإقتدائهم بالرسول ﷺ في العلاج النفسي مما يعجز عنه أعظم الأطباء في

العصور القديمة والحديثة على السواء، ولقد عالج الرسول ﷺ أمراض نفسية يعجز علاجها على أعظم أطباء هذا العصر، عالج أمراض الصرع الروحاني والأرق والوساوس والاكتئاب والزمت والحصر والقلق المزمن والحزن والمصائب والكروب والهم والغم والفزع والخوف والجزع والغضب والطمع والحسد والحقد والعين والسحر.

❁ وهذه العلاجات التي ذكرناها إنما هي خاصة بالطب النفسي فحسب، لكن الرسول ﷺ عالج أيضاً الطب البدني وربط بين الطب النفسي والطب البدني في علاجاته.

❁ ومن ناحية أخرى فإن الصوفية لم يهتموا بالطب النفسي العلاجي فحسب، كما هو في العيادات النفسية في العصر الحديث، إنما اهتموا أيضاً بالطب النفسي الوقائي، أي قبل أن يصل المريض إلى الحاجة الماسة إلى العلاج، لذلك كانت الأمراض النفسية في صدر الإسلام وكذلك لدى الصوفية نادرة الحدوث.

فقد كان الصوم والصلاة والاستعاذة والاستغفار وكظم الغيظ والصبر والذكر الدائم، عبارة عن طب وقائي يمنع تراكم الأمراض النفسية من خواطر شيطانية ووساوس وكروب، يمنعها من النفاذ إلى قلب الإنسان، ومن ثم يصبح قلب المسلم على الدوام مستفرغاً ومحصناً من ولوج الآفات والأمراض التي تسبب له تراكمات وأزمات نفسية، ولذلك يقول الدكتور حسن الشرقاوي في كتابه (المسلمون علماء وحكماء) صـ ١٤٦ :

((ولا ريب أن المسلمين وعلى رأسهم الرسول ﷺ وهو الهادي البشير هم الرواد الأوائل للطب النفسي الوقائي والعلاجي على السواء، ولقد تبع الرسول في هديه النبوي ثلة من العلماء والحكماء أمثال: الحسن البصري، اليافعي، المكي، المحاسبي، وحجة الإسلام الغزالي وغيرهم كثير)).

أما عن تحليل خلجات النفس ووصف أمراضها، وبيان عيوبها فذلك أمر وصل فيه الصوفية إلى الغاية، لأنهم يتحدثون في ذلك عن تجربة صادقة عميقة تقوم مقام المنهج الاستقرائي في هذا المجال، ولذلك لا يستطيع دارس لعلم النفس بشتى فروعه أن يستغنى عن كلام الصوفية في هذا الشأن.

❀ زعم العلماء الغربيون أنهم اكتشفوا علماً جديداً:

هو علم الإنسان الاجتماعي، وأسموه بالأنثروبولجيا وذلك في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وهدف هذه الدراسات سواء كانت الأنثروبولجيا البنائية، أو الثقافية، دراسة المجتمعات المحدودة والبسيطة خوفاً من اندثارها وذلك بقصد الوصول إلى نظرية تفسر الحياة في تلك المجتمعات.

ويقول د.حسن الشرقاوي في كتابه (المسلمون علماء وحكماء) ص ١٣٩ :

((ولو رجعنا لعدة قرون أي للقرن العاشر الهجري، لوجدنا أن الإمام الشعراني قد قام بدراسة مسحية على الطوائف الصوفية في مجتمع القاهرة:

ولقد أختار عينات عشوائية ممثلة للطرق الموجودة في المجتمع والقاهرة؛ عبارة عن مائة مريد من المنخرطين في الطرق الصوفية.

واستهدف في دراسته إثبات صحة الفرض الذي وضعه، وهو أن هناك في عصره اندحار في أخلاق الصوفية عن العصور السابقة عليه، ولقد استعان الشعراني بالملاحظة المباشرة وغير المباشرة ووصف أخلاقيات المريدين في عصره وصفاً دقيقاً يدل على انخراطه في الطريق الصوفي وفهم دقيق للمارسات والأذواق والمشارب والمواجيد الصوفية ، ثم عقد مقارنة بين صوفية عصره وبين الصوفية من السلف الصالح، وأظهر في نتائج بحثه بأدلة دامغة وبراهين قاطعة اندحار وارتكاس الأخلاق في عصره عن العصور السابقة عليه.

مما يثبت أن الغرض الذي وضعه في دراسته كان صحيحاً وأن الدراسة الحقلية والمسحية أثبتت صدقه.

ونستخلص من ذلك أن إدعاء الغربيين أن الأنثروبولجيا بشقيها البنائية والثقافية يرجع الفضل في اكتشافها إلى الغربيين قول مرفوض، ودعوى ينقصها البرهان والدليل، فإن الإمام الشعراني قد سبق هؤلاء العلماء الغربيون على الأقل بخمس قرون في الدراسات الأنثروبولجية وتفوق عليهم في هذه الدراسات.

إذ أنه أدخل المعامل الروحي الذي يفتقر إليه أغلب علماء الأنثروبولجيا المعاصريين، فهو عندما درس المجتمع الصوفي في القاهرة عاش بين أفراده ملاحظاً ومتذوقاً لمشاربهم، متفهماً لمصطلحاتهم وإشاراتهم ومعانيهم ولغتهم، مقارناً بينهم وبين الصوفية من السلف الصالح، مما أعطى لدراسته ثراء وعمق يعجز عنه أي عالم أنثروبولجي معاصر)).

❁ أما في مجال التربية :

فيعتبر الصوفية بحق من أفضل الذين عالجوا موضوعات التربية على الإطلاق ذلك لأنهم لم يهتموا بالجانب الظاهري في السلوك فحسب، وإنما ركزوا على الجانب الباطني أيضاً.

اهتم الصوفية إذن بالظاهر والباطن جميعاً. فهناك التكاليف والفرائض والواجبات المقررة شرعاً وعقلاً، كما أن هناك الإخلاص والصدق والنية وهي أمور تتعلق بأعمال القلوب ، فالتربية الإسلامية تقوم على أساس صحيح يواكب الفطر السليمة والعقول الرشيدة والنفوس المستقيمة، ومهما درسنا فلسفات التربية في الغرب الليبرالي والشرق الشيوعي، فإننا لن نجد منهجاً تربوياً صالحاً للتطبيق لكل زمان ومكان مثل منهج التربية الإسلامية.

ومهما جربت الأمم والشعوب مناهج بشرية ونظم إنسانية في فلسفات التربية، فلن نجد أي منها يستطيع أن يلبي حاجات الفرد والبيئة والمجتمع لخلق الإنسان الصالح، مثلما نجد ذلك في منهج التربية الإسلامية، لذلك يعتبر أقطاب الصوفية رواداً أوائلاً في مناهج التربية ونظمها مثل :

- الإمام أبو طالب المكي صاحب قوت القلوب.
- والغزالي في الإحياء.
- والمحاسبي في الرعاية.
- وعبد القادر الجيلاني في الغنية.
- وأبو الحسن البصري في أدب الدنيا والدين.
- والإمام مُحَّمد ماضى أبو العزائم في شراب الأرواح ، ومعارج المقربين، والنور المبين ، ...... وغيرهم كثير.

ولذلك يقول لدكتور حسن الشرقاوي في كتابه (المسلمين علماء وحكماء):

((فإن البشرية في مسيس الحاجة الآن إلى الإستعانة بمنهج التربية الإسلامية الذي استقاه العلماء المسلمون من القرآن الكريم والسنة المحمدية، ليعرفوا تماماً أنه الحق الذي يصلح فكراً وسلوكاً وتطبيقاً)). (صـ ١٢٧).

- أما علم الأخلاق فيعتبر برمته علماً صوفياً:

ولذلك نجد تعريفات التصوف معظمها يدور حول هذه المعنى مثل قول سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه:

((التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء)).

وقول الحريري :

((التصوف: الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دنئ)).

فالتصوف هو الذي يوصل الإنسان إلى التكامل الأخلاقي المنشود، بينما نجد في القرن العشرين رغم التقدم المادي الهائل، انتكاس واندحار في العملية التربوية والأخلاق، بحيث لا يمكن أن يقال أن الأخلاق تتقدم تقدماً طردياً متوازياً مع التقدم التكنولوجي.

إن لدى الصوفية تراثاً حضارياً عظيماً ما زال مدفوناً في دهاليز المكتبات العربية والإسلامية يحتاج إلى باحثين مهرة ومفكرين أكفاء ليزيلوا عنه تراب النسيان وينفعوا به العامة والخاصة من الناس من مسلمين وغير مسلمين ، ولا أظن إنني استطعت أن ألم بكل المجالات التي يجاهد فيها الصوفية لأن القوم من فتوتهم لا يحبون أن يطلع على عملهم إلا الله ﷻ .

❀ وعن المجالات الأخرى التي أغفلنا ذكرها لنأخذ مثالاً واحداً لما تقوم به زوايا الصوفية من خدمات اجتماعية وهي زاوية الشعراني ﷺ :

فلقد استطاع ﷺ في عصره أن يزوج أربعين رجلاً من مريديه قام عنهم بالمهر ونفقات الزواج، وحرص على تزويد زوجاتهم بكل شئ يخطر على العقل من شئون النساء ولوازمهن.

وأرسل أفواجاً من تلامذته للحج إلى الأرض المقدسة.

وكان يقوم بتزويد العلماء والفقهاء في مصر وغيرها بالغذاء والكساء، وأما طلبة العلم فقد كانت لهم إعاشة كاملة على نفقة الزاوية مما يجعل الصوفية أول من حقق مجانية التعليم ، هذا فضلاً عن ضيوف الشعراني وزواره الذين قُدّروا بحوالي مائة زائر يومياً يقدم لهم كل واجبات الضيافة.

والحمد لله تقوم الزوايا الصوفية في العصر الحاضر بأنشطة اجتماعية عصرية :

من حضانات ومدارس إسلامية، وتحفيظ للقرآن الكريم، ومستوصفات طبية، ومشاغل للأعمال اليدوية والصناعات الصغيرة، ودراسات الكمبيوتر، وحل للمشاكل الأسرية، وتزويج للفقراء، ورعاية للأيتام، وإعانة على أداء الحج والعمرة، وإحياء لمشروع القرض الحسن وغيرها من الأنشطة التي يضيق النطاق عن حصرها.

ونأمل من المسلم المعاصر :

ألا ينظر إلى الأمور بأفق ضيق، أو برأي مُسْبق، بل عليه أن يقرأ ويشاهد بفكر مفتوح، لا يتحكم فيه الهوى ولا الغرض ليعرف الحق لأهله فيسعد في دنياه وآخرته.

هذا وقد اكتفينا بالإيجاز في بعض النقاط لأن هذه الدراسة فى إعتقادنا معالم على الطريق فقط ، حيث أن كل نقطة منها تحتاج إلى دراسة أو دراسات وافية بشأنها ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

تم الجزء الأول بحمد الله
ويليه الجزء الثاني
الشيخ المربي

الجزء الثاني

الشيخ المزني

﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ
عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ
مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن
لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ ﴾ الكهف

قال الإمام أبو العزائم رضي الله عنه:

لأهل الله أسرار خفيـــــــة وأحوال تُرى فيهم عليَّـــــة
وأنوار ترى فيهم جهـــــاراً يرون بها حقائقهم جليَّـــــة
وعلم غامض يُعطى بفضـــل لأنهموا تهنوا بالمعيَّـــــة
معية ربهم حال التجـــلى بأفئدة من الدنيا خليَّـــــة
صَفُوا لله من مَيْل وحــظّ فكان القرب منه لهم عطيَّـــــة
حباهم بالشهود وقد صفاهـم وناولهم من الراح الشهيَّـــــة
صفت ألبابهم فسموا ونالـــوا مقام القرب من رب البريَّـــــة
رأوه بأعين مُلئت يقينـــــاً عيون بصيرة صارت مضيَّـــــة
بلا كيف ولا كمٍّ ولكـــن بأسرار تعالت معنويَّـــــة
ولم يحجبهم كون ووهــم عن الأنوار فافهم يا أخيَّـــه
هم الأفراد ناولهم فغابـــوا به عن زينة الدنيا الدنيَّـــــة
قلوبهم بنور الله عمـــرت فقاموا بالأوامر والوصيَّـــــة
عبيد أخلصوا لله دينـــــاً وقاموا صادقين بحسن نيَّـــــة
فلم تشغلهموا ديناً وأخـــرى عن الإخلاص للذات العليَّـــــة
رأوا مولاهم أحداً تعالـــى وأنفسهم به صارت غنيَّـــــة
عليه توكلوا وإليه فـــرُّوا فواجههم بأنوار سنيَّـــــة
ويكرمهم ويرفعهم مقامـــاً ويمنحهم به الرتب العليَّـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الولي الحميد، تولى عباده الصالحين، بمواهب لطفه وأنسهم بمشاهد قربه، فأفردوه ﷻ بالقصد، وخصّوه سبحانه وتعالى بخالص الودّ، فأتحفهم بعنايته، واصطفاهم لولايته، وأنزلهم منازل أهل محبته، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد كوثر أهل الشهود، وحوض المعاني العالية، والأسرار الراقية لأهل محبة الودود، وآله وورّاثه الناهلين من هذا البحر المورود، والمخصوصين بهذا الفضل والجود، وكل من تبعهم بإحسان ووفّى لهم بصدق العهود، فلحقته بهم السعادة في يوم الخلود.

وبعد،

إن الدعوة إلى الله ﷻ تتجدد في كل زمان ومكان، لأنه ما من زمان، إلا وتتجدد فيه أحداث، لم تكن على عهد السلف، وتظهر فيه شئون تقتضيها سعة العمران، ولما كانت تلك الأحداث والشئون، لا بد وأن يُنظر إليها بعين الشريعة، ليثبت حكمها، من حيث الحِلّ والحرمة، والندب والكراهية، والوجوب والمنع، وكان لابد لكل زمان من أفراد، يصطفيهم الله لنفسه، فيفقههم في الدين، ويلهمهم الصواب في القول والعمل، ويقيمهم مقام رسله صلوات الله وسلامه عليهم، فتنطوي النبوة في صدورهم، إلا أنه لا يوحى إليهم.

ولذلك نظائر في الأمور المحسوسة، فإننا لو عرضنا أمراض هذا العصر، على ابن سينا، وابن بختيشوع، وغيرهما من كبار الأطباء في العصور الماضية، لجهلوا هذه الأمراض، ولما علموا لها دواء، فكما أن الله سبحانه يُحدث في كل زمان، أطباءا للأجسام، لطفاً

بالخلق، ورحمة بهم، فهو سبحانه أرحم الراحمين بعباده، فيجدد لهم رجالاًيستنبطون الحكم على كل أمر حدث أو شأن تجدّد، وهم ورثة رسول الله ﷺ ، سر قوله ﷺ (ابن النَّجَّار عن أَنَسٍ رضِيَ اللَّهُ عنهُ.جامع الأحاديث والمراسيل):

«الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ يُحِبُّهُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ إِذَا مَاتُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» .

ومعلوم أن الأنبياء لم يورثوا درهماً، ولا ديناراً، وإنما ورثوا نوراً وهدى، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم ، وقد قال فيهم ﷺ (عن ابن عمر رضِيَ اللَّهُ عنهُمَا. جامع الأحاديث والمراسيل):

«إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ضَنَائِنَ مِنْ خَلْقِهِ يَغْذُوهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، يُحْيِيهِمْ فِي عَافِيَةٍ، وَيُمِيتُهُمْ فِي عَافِيَةٍ، وَإِذَا تَوَفَّاهُمْ إلى جَنَّتِهِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ تَمُرُّ عَلَيْهِمْ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمظْلِمِ وَهُمْ مِنْهَا فِي عَافِيَةٍ» .

و عن عياض بن سليمان(المستدرك للحاكم) ، وكانت له صحبة قال ﷺ:

«خِيارُ أُمَّتِي فيما أَنْبَأَني الْمَلأُ الأَعْلى قَوْمٌ يَضْحكونَ جَهْراً في سَعَةِ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ ﷻ وَيَبْكونَ سِرّاً مِنْ خَوْفِ شِدَّةِ عَذابِ رَبِّهِمْ ﷻ يَذْكرونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ في الْبُيوتِ الطَّيِّبَةِ المساجِدِ وَيَدْعونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ رَغَباً وَرَهَباً وَيَسْأَلُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ خَفْضاً وَرَفْعاً وَيُقْبِلونَ بِقُلُوبِهِمْ عَوْداً وَبَدْأً فَمَؤُونَتُهُمْ عَلَى النّاسِ خَفيفَةٌ وَعَلى أَنْفُسِهِمْ ثَقيلَةٌ يَدُبّونَ في الْأَرْضِ حُفاة على أَقْدامِهِمْ كَدَبيبِ النَّمْلِ بِلا مَرَحٍ وَلا بَذَخٍ

يَمْشونَ بالسّكِينَةِ وَيَتقَرَّبونَ بِالْوَسِيلَةِ وَيَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَيُقَرّبونَ الْقُرْبانَ وَيَلْبَسونَ الْخلقانَ عَلَيْهِمْ مِنَ الله تَعالى شُهودٌ حاضِرَةٌ وَعَيْنٌ حافِظَةٌ يَتَوَسَّمونَ الْعِبادَ وَيَتفَكّرونَ في الْبلادِ أَرْواحُهُمْ في الدّنْيا وَقُلوبُهُمْ في الآخِرَةِ لَيْس لَهُمْ هَمٌّ إلا أَمامَهُمْ أَعَدّوا الْجهازَ لِقبورِهِمْ وَالْجوازَ لِسبيلِهِمْ وَالاسْتِعْدَادَ لِمقامِهِمْ»، ثم تلا رسول الله : {ذَٰلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيد}.

هم قوم صفت قلوبهم، فلم يحقد أحدهم على الآخر، لأن كل واحد منهم عون للآخر على مقصوده، قال الله تعالى [الآية (٢) سورة المائدة] :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾

وكل واحد منهم مرآة لأخيه، يشهد فيها ما منّ الله به عليه من المنن فيشكر، أو ما ألم بنفسه من العيوب فيتطهر منها، أو من الأمراض فيتداوى منها.

فالأخ منهم يحن إلى أخيه أكثر من حنينه إلى الماء البارد في اليوم الصائف، لأن لقاء أخيه: إما مزيد من المواهب، وإما تخلص من الأمراض والقطيعة والبعد، لم تقع أبصارهم إلا على محاسن إخوانهم، وفضائل أصحابهم، لاشتغال كل واحد منهم بعيوب نفسه عن عيوب أخيه، إذا أغضبتهم اجتهدوا في أن يرضوا الله فيك، وسعوا في أن يداووك من فساد أخلاقك، ويرغّبوك في ربك، فهم يدرأون السيئة بالحسنة، وإن أرضيتهم اجتهدوا في أن يرضوا الله فيك، فلا أذيتك لهم تخرجهم عن مراقبة ربهم، ولا إرضائك لهم يلفتهم عن مواجهة مولاهم سبحانه، اجتمعت قلوبهم، وإن تفرقت أبدانهم، وتآلفت أرواحهم، لأنها يوم الميثاق تعارفت، قد بلغ بهم الحب في الله، حتى منحهم الله من المواهب، ما غبطتهم عليه الملائكة والأنبياء.

يروي صاحب الحلية عن ذي النون قوله في وصفهم:

((هم قوم ذكروا الله ﷻ بقلوبهم، تعظيماً لربهم ﷻ ، لمعرفتهم بجلاله. فهم حجج الله تعالى على خلقه. ألبسهم النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيّبهم بطيب أهل مجاملته، وكساهم حُللا من نسج مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مسرّته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهي معلقة بمواصلته، فهمومهم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من قربه، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته، ثم قال :

إن أتاكم عليل من فقري فداووه، أو مريض من فراقي فعالجوه، أو خائف مني فأمنوه، أو آمن مني فحذروه، أو راغب في مواصلتي فهنئوه، أو راحل نحوي فزوّدوه، أو جبان في متاجرتي فشجعوه، أو آيس من فضلي فعدوه، أو راج لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محب لي فواظبوه، أو معظم لقدري فعظموه، أو مستوصفكم نحوي فأرشدوه، أو مسئ بعد إحسان فعاتبوه، ومن واصلكم فيّ فواصلوه، ومن غاب عنكم فافتقدوه، ومن ألزمكم جناية فاحتملوه، ومن قصّر في واجب حقي فاتركوه، ومن أخطأ خطيئة فناصحوه، ومن مرض من أوليائي فعودوه، ومن حزن فبشّروه، وإن استجار بكم ملهوف فأجيروه.

يا أوليائي لكم عاتبت، وفيّ إياكم رغبت، ومنكم الوفاء طلبت، ولكم اصطفيت وانتخبت، ولكم استخدمت واختصصت، لأني لا أحب

استخدام الجبارين، ولا مواصلة المتكبرين، ولا مصافاة المخلّطين، ولا مجاوبة المخادعين، ولا قرب المعجبين، ولا مجالسة البطالين، ولا موالاة الشّرهين.

يا أوليائي، جزائي لكم أفضل جزاء، وعطائي لكم أجزل عطاء، وبذلي لكم أفضل البذل، وفضلي عليكم أكثر الفضل، ومعاملتي لكم أوفى المعاملة، ومطالبتي لكم أشد المطالبة.

أنا مجتبي القلوب، وأنا علام الغيوب، وأنا مراقب الحركات، وأنا ملاحظ اللحظات، أنا المشرف على الخواطر، أنا العالم بمجال الفكر، فكونوا دعاة إليّ، لا يفزعكم ذو سلطان سوائي، فمن عاداكم عاديته، ومن والاكم واليته، ومن أذاكم أهلكته، ومن أحسن إليكم جازيته، ومن هجركم قليته)).

هذه الأخبار التي أوردناها في مدح مقام الشيوخ في التربية الروحية، والتنويه بقدرهم عند الله، ولا غرو في ذلك فقد بين رسول الله ﷺ مهمتهم فقال (كتاب الأولياء لابن أبي الدنيا عن حَزْمُ بْنُ أَبِي حَزْمٍ) :

" وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَئِنْ شِئْتُمْ لأُقْسِمَنَّ لَكُمْ بِاللَّهِ ، أَنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللَّهَ إِلَى عِبَادِهِ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ بِالنَّصِيحَةِ "

وهذا الذي ذكر رسول الله ﷺ ، هو رتبة المشيخة، والدعوة إلى الله، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله، ورتبة المشيخة والدعوة من أعلى الرتب في طريق الصوفية، ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله.

فأما وجه كون الشيخ يحبب عباد الله إلى الله، لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ ، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله، قال تعالى (٣١آل عمران):

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾].

ووجه كونه يحبب الله تعالى إلى عباده، لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس: انجلت مرآة القلب، وانعكس فيها نور العظمة الإلهية، ولاح فيها جمال التوحيد، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى [الآية (٩) سورة الشمس]:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾

وفلاحها بالظفر بمعرفة الله.

وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها، وحقيقتها، وماهيتها، ولاحت الآخرة بنفاستها، بكنهها وغايتها، فينكشف للبصيرة حقيقة الدارين، وحاصل المنزلتين، فيحب العبد الباقي، ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية، وجدوى المشيخة والتربية.

فالشيخ من جنود الله تعالى، يرشد به المريدين، ويهدي به الطالبين ، فعلى المشايخ وقار من الله، وبهم يتأدب المريد ظاهراً وباطناً، قال الله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ ٩٠ الأنعام

فالمشايخ لما اهتدوا، أهلّوا للاقتداء بهم، وجعلوا أئمة المتقين ، فإذا أتى الفقير إلى الشيخ ليأخذ بيده:

- يأمره بالتوبة ورد المظالم، وقضاء الدين بقدر الاستطاعة.
- ويحذره من الرجوع إلى ما كان عليه.

- ثم يعلمه ما يلزمه في دينه، من طهارة وصلاة، وما يتعلق بذلك إن كان جاهلاً، وما تيسر من علم التوحيد .
- ، ثم يأمره بلزوم الطاعة، من صلاة وصيام وذكر، وغير ذلك، ويشير على كل واحد بما يليق به.
- ثم يأمره بالصحبة، ولزوم مجالسة الشيخ، والاجتماع مع الإخوان، فطريق التربية، ليست طريق الإنفراد، وإنما هي طريق الإجتماع والإستماع والإتباع فمهما انفرد المريد عن الإخوان، لم يكن منه شئ.
- ثم يذكره أولاً بما يصلح جوارحه الظاهرة : ... التقوى والإستقامة.
- فإذا صلحت جوارحه الظاهرة، أمره بفراغ القلب، والإكثار من ذكر الله ﷻ ، وفتح له شيئاً من علم الحقائق.
- ولا يزال به حتى تصفو ذاته، وتطهر من رعوناتها، بإزالة الظلام منها، وقطع علائق الباطل عن وجهتها، لتطيق حمل السر.
- فإذا تحقق للمريد الانقياد ظاهراً وباطناً لشيخه، وتحقق الشيخ من صدق محبة الفقير، ذكّره بأسرار شهدتها لطائف قلبه، وتجملت بها سريرته، فاجتمع عليه قوّتا السماع الظاهر، المذكر للجمال الباطن، والسرّ الكامن، الذي هو حقيقة ما سمع، ورفع هذا الحجاب، لأن الحظوظ والأهواء الحاجبة، إنما تكتسب من الحواس الظاهرة، فإذا صغت الحواس إلى الذكرى، ووافقت الحقيقة، زال المانع، وظهرت أنوار الملكوت، فكان الملكوت كأنه عند الذكرى رؤيا، لما ينبلج في القلب من الأنوار الكاشفة لحجاب الحظوظ عن القلوب، فيشرق عليه من تلك الذكرى أنوار تكشف له عوالم الملكوت، فيشهدها بعين قلبه،

فيكدح بانشراح صدر في نيل الفوز، موجهاً وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، لا يلتفت وراءه، ولا يمنة ولا يسرة، خوفاً من ضياع نَفَس وطرفة وحركة بغير ربح، وقرب وتقرب، وعمل صالح نافع للجميع.

- فلا يلبث إلا وقد زكت نفسه، واتصلت بعالم الغيب، عالم الملكوت الأعلى، وظهرت له الآيات في الأرض وفي السموات.

- ثم يشرق له نور بين يديه، وعن يمينه، فيرى أكمل الآيات، وأجلى التجليات في نفسه، ويشهد أنه الآية الكبرى، والمثل الأعلى، ويقوي اليقين بالتمكين بعد التلوين، فيحضر بعد الغيبة، ويقرب بعد البعد، ويسكن بعد الحركة : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ١٥ الرعد ، لديها فالدنيا عنده آخره، لأنه ليس في الدنيا ولا من أهلها، وإن كان فيها بالجسم، فقلبه معلق بالملأ الأعلى.

- فإذا بلغ هذا المقام، نال الفلاح، وتوالت عليه البشرى من الله تعالى، في الدنيا والآخرة، وكان مع الله، والله سبحانه معه وعنده.

هذه الأسرار الحقيقية، والأنوار القدسية: .... هبات إلهية، ومزايا ربانية، يختص الله بها من يشاء، ممن أهلهم لسابقة الحسنى، وفطرهم على الإحسان، حتى أنه سبحانه، حصّنهم بحصون العناية، عن الميل إلى مقتضى البشرية، ولو إلى ما لابد منه لقوام الهيكل الإنساني، مما يلاحظهم به من مواجهتهم بأنوار جمالاته.

فيكون الرجل لشدة حضوره الفطري قبل الكشف، أقرب الناس إلى مكارم الأخلاق، وجميل الصفات، التي هي من شيم العبد الكامل، بدون وازع ولا باعث إلا أنوار الفطرة المودعة في جبلته، المجبولة على الخير بسابقة الحسنى، وتراه ممزوجاً من صغره بالرحمة والشفقة والحنانة بجميع الخلق، وخصوصاً لأقاربه وذوي رحمه، مسالماً للناس،

يكره ما يؤذي الخلق، كما يكره أن يؤذيه الخلق، لا وجهة له في ذلك إلا سجية وعاطفة إلهية.

حتى إذا كُشفت له عن عوالم أسرار الملكوت، وغيب مشاهد الجبروت، كان على أكمل خلق، وأتم وصف، لا يمنعه خُلق إبليسي، ولا وصف بهيمي، عن تمتعه بمظاهر الأسرار الربانية، فيكون كامل الرياضة، مستوفي المزايا، فيترقى إلى مكانات الأبدال، الذين بدّل الله سبحانه معالمهم بمعالمه، ومشاهدهم المقيدة بمشاهداته المقدسة، حتى تنجلي تلك الصفات الكاملة في المرآة الكاملة، فتترقى إلى مقامات الأفراد، الذين أفردهم الحق لذاته، بدون خطور أقل خاطر لسواه على قلوبهم، ولا شهود كائن ما غيره، ويترقى إلى مقامات وراثة الرسالة [الآية (٢٩) سورة الأنفال].:

﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾

والمتمكن في هذا المقام :هو ميزاب الرحمة، وباب الهداية، ومفتاح الأسرار.

وهو الذي يسميه الأبدال بالغوث الفرد، الذي يغيث الله سبحانه به عباده المؤمنين، ليبيّن لهم غيوب العلم المكنون، الذي هو العلم بالله تعالى، ويكشف لهم عن أسرار الآيات والأحاديث، ويومى لهم إلى أسرار الكون، وآياته الظاهرة، وما يشير إليه باطنه، وهذا الرجل هو الصدّيق الأكبر، الممنوح الهداية والتوفيق [الآية (٨٨) سورة هود]:

﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾

وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: عَنِ الْحَسَنِ (حلية الأولياء) ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

{ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ الْغَالِبُ عَلَى عَبْدِي الاشْتِغَالُ بِي جَعَلْتُ نَعِيمَهُ وَلَذَّتَهُ فِي ذِكْرَى فَإِذَا جَعَلْتُ نَعِيمَهُ وَلَذَّتَهُ فِي ذِكْرِي عَشِقَنِي

وَعَشِقْتُهُ ، فَإِذَا عَشِقَنِي وَعَشِقْتُهُ رَفَعْتُ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَصِرْتُ مَعَالِمًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلا يَسْهُو إِذَا سهى النَّاسُ ، أُولَئِكَ كَلامُهُمْ كَلامُ الأَنْبِيَاءِ ، أُولَئِكَ الأَبْطَالُ حَقًّا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ بِأَهْلِ الأَرْضِ عُقُوبَةً وَعَذَابًا ذَكَرْتُهُمْ فَصَرَفْتُ ذَلِكَ عَنْهُمْ }

ولله در الإمام أبي العزائم ﷺ إذ يقول في شأنهم:

هم رجال فوق التراب ولكن	شاهدوا الوجه في مقام الوصال
همة القوم فوق عالين تجلى	للرجال الأنوار في كل حال
ما رآهم من قد رآهم ولكن	شاهد الجسم في مباني الظلال
من رآهم حقيقة نال وصلا	يعرف الله بالصفا لا المقال
يشهد الحق ظاهراً بالتجلي	يفنى حقاً عن سافل الكون عال
فاطلبنهم بالروح والزم ثراهم	وافتح الكنز بالجمال العالي
واصحبنهم بالروح بل آثرنهم	بجميع المحبوب أهل ومال
سلمن للرجال في كل حال	واترك العقل في رضا الأبدال

ويقول أيضاً ﷺ في أخلاقهم التي يتحلّون بها في ذواتهم وأنفسهم:

((الصبر مطيتهم، وجمال الأخلاق رائدهم، والحلم سفيرهم، والحياء وزيرهم، والخشية من الله قوامهم، ووجهه الكريم قبلتهم، وفضله ورضوانه مبتغاهم، سرورهم إقبال الخلق على الله، فهي تجارتهم التي يبذلون لأجلها النفس والنفيس،.وهم كما وصف الله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ .... إلى قوله أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ الفرقان.

وقد اشتاق إليهم رسول الله ﷺ ، ووصفهم بإخوانه، فهم أبداله وخلفاؤه ﷺ وخلفاء ربنا سبحانه وتعالى، قاموا مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام بالرحمة والعاطفة والرأفة، والحرص على المؤمنين، والزهد فيما سوى الحق، يحبّبون عباد الله، في الله ورسوله ﷺ ، ويرغّبونهم فيما عنده سبحانه وتعالى، بين خوف لا يبلغ درجة اليأس، وطمع لا يؤدي إلى أمن من مكر الله ،

أخلصوا لله سرائرهم، فجمّل الله ظواهرهم وبواطنهم، وأخلصوا له المعاملة، فأكرمهم سبحانه بالمواجهة والمنازلة، نظروا الدنيا بعين شهدت الحق فاحتقروها، وسكنوا فيها بأبدان قلوبها في الملأ الأعلى فاستوحشوها، وأقاموا فيها بآمال غايتها الأنس بالله فهجروها، فهم في الدنيا وليسوا فيها، ظهر الحق لهم جلياً، فاتخذوا الله ولياً، وعلموا مرتبتهم فتولوا خالقهم، علّموا الناس بأعمالهم قبل أقوالهم، وبأحوالهم قبل أعمالهم، فالرجل منهم واحد في الخلق، وهو أمة عند الله تعالى.

هذه هي صفات الدعاة إلى الله تعالى وأحوالهم، فمن ظفر بواحد منهم، فلقد وصل إلى الله تعالى، وعرفه سبحانه)).

وقد تحدثنا في هذا الجزء الثاني من الكتاب عن الدعاة إلى الله ﷻ ويطلق عليهم (المرشدون أو الشيوخ) :

- فبيّنا أوصافهم.
- ووضّحنا منهاجهم.

- وذكرنا الآداب التي يجب أن يتحلوا بها في أنفسهم.
- والآداب التي تنبغي للمريدين معهم.
- وكشفنا أحوال الأدعياء، حتى لا ينخدع بهم الصادقون من المريدين.

وذلك على هدى من كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ ، وأحوال السلف الصالح ، وهدفنا من وراء ذلك :

بيان الحق وأهله، وإظهار الصادقين من الأدعياء والمبطلين، ومجابهة المغرضين الذين ينكرون الحق – مع شدة ظهوره – وقوله ﷺ فيما رواه مسلم في الصحيح عن سعيدِ بنِ منصورٍ وغيرِهِ ، كما روى عن ثَوْبَانَ ﵁ :

«لا يزالُ طائفةٌ من أُمَّتِي ظاهرينَ على الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أمرُ الله وهُمْ كذلكَ»..

((ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب)).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

البَابُ الأول
الشَيْخُ الْمُرَبِّي

أوصافه وعلاماته

أخلاقه

علومه ومعارفه

الشيخ الكامل

الحاجة إلى الشيخ

أوصاف الأدعياء

نصيحة صادقة

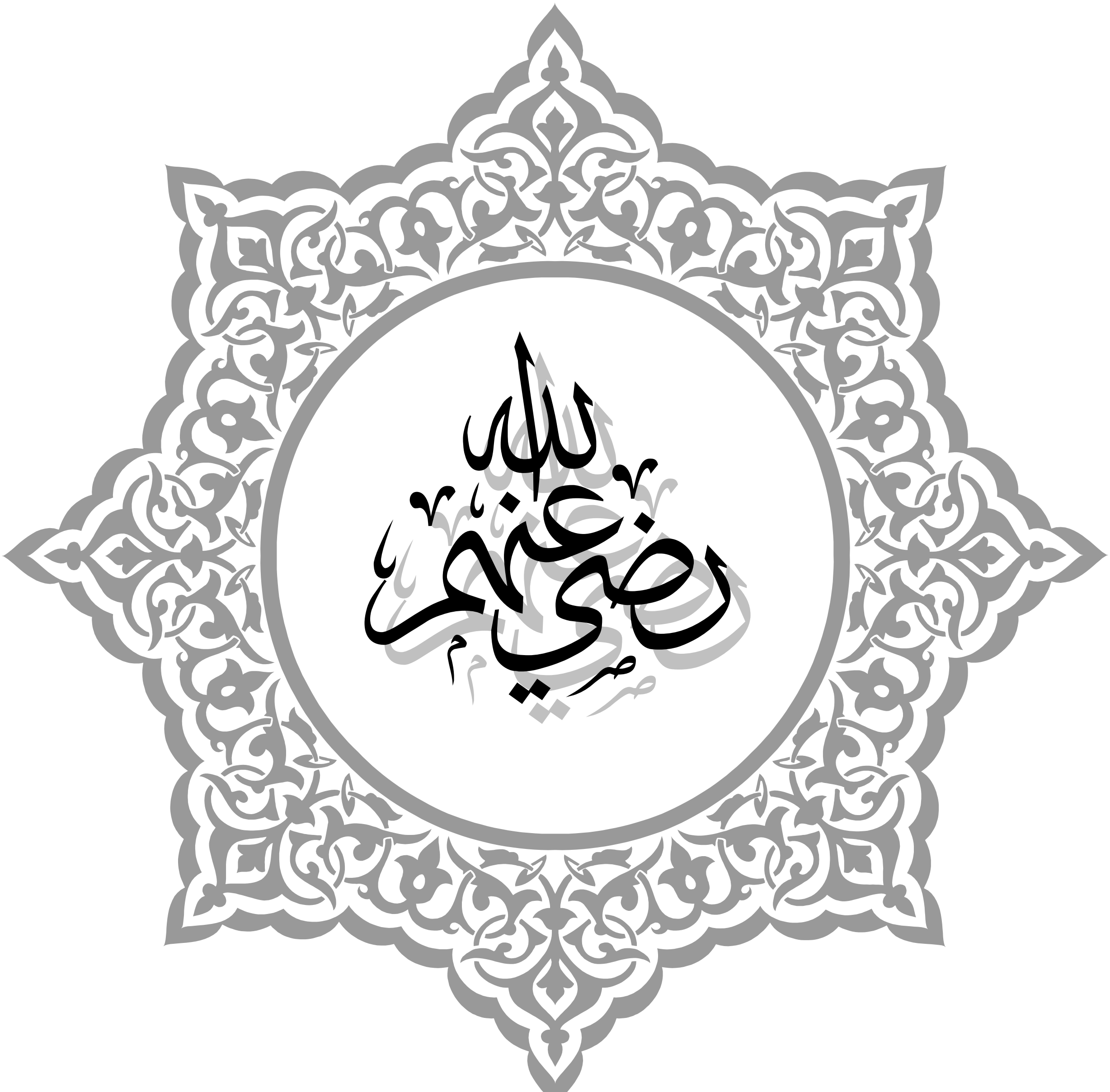
رضي الله عنهم

أوصافه وعلاماته

هو الرجل العالم العامل....

الذي وهبه الله ﷻ النور الكاشف للظلمات والشبهات، ومنحه الفقه في دين الله، وتأويل المتشابهات، وفك رموز الخفيات من آيات القرآن، وحديث رسول الله ﷺ ، وهو الفرد الذي تتنزل عليه الفيوضات والالهامات، من العلوم الوهبية اللدنية، زيادة على ما حصّله من العلوم الكسبية والاجتهادية.

وهو العبد الذي آتاه الله رحمة في قلبه بعباد الله، حتى قام يبذل كل ما لديه، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ويبين لهم معالم الدين الحنيف، ويجدد آثار السنة المطهرة، ويعيد إلى الأذهان، ما خفى من هدى الأئمة، وما اندرس من آداب وأحوال وسلوك السلف الصالح رضي الله عنهم.

وللمرشد صفات كثيرة يُتعرف بها عليه، أشار إليها الله ﷻ في قوله:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ الكهف

فقد كشف الله ﷻ عن بعض صفات هذا الرجل بهذه الآية الكريمة....وهي تقص علينا من أخبار موسى وفتاه عليهما السلام، وهما يبحثان عن العبد الذي يطلبه سيدنا موسى ليتعلم منه مالم يكن يعلم.

وقد كان سيدنا الخضر مثلاً لهذا الرجل الذي يجدد الله به معالم الدين، وسنة سيد المرسلين في كل عصر من الأعصار، حتى تقوم الساعة.

وقد غصّت كتب السادة الصوفية بالشرح والتفصيل لمقام الشيخ المربي، أو

المرشد الرباني بما لا يسع ذكر كل ما قيل في هذا الشأن هنا، ولذا فنكتفي بذكر أبرز الصفات التي يتحلى بها، والتي ذكرناها في كتابنا (الشيخ محمد علي سلامة سيرة وسريرة) ص ١٥٧ وما بعدها وهي كما يلي:

١- هو رجل يبين للناس كلام الله ﷻ ، وحديث رسوله ﷺ ، بما يناسب عقولهم، مع الرحمة بهم، وذلك بالحكمة الرشيدة، والبصيرة النافذة، سر قوله سبحانه:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ ١٠٨ يوسف

٢- هو رجل بلغ في كمال إتباعه لسيدنا رسول الله ﷺ مقاماً لا يقدر معه أن يلتفت عن رسول الله عليه أتم الصلوات والتسليمات طرفة عين ولا أقل، ولا أن يخالفه في أي شئ مهما كان صغيراً.

٣- هو عبد من عباد الله المخصوصين لذاته، والمفردين لحضرته جل شأنه، وقد أتاه الله رحمة من عنده تسع الناس في عصره، فهو يعطي كل واحد منهم نصيبه من هذه الرحمة التي وهبها الله له.

٤- هو رجل علمه الله علماً من لدنه سبحانه وتعالى، وهذا العلم ينفع الله به الناس في زمانه، لأنه علم قريب العهد بالله، قد أُكرم به من حضرة اللدنية الإلهية مباشرة بدون واسطة، وهي حضرة القرب الأقرب من الله ﷻ ، وهذا العلم تقوم به الحجة على المعاندين والمجادلين، وتتضح به الطريقة والمحجة للمؤمنين والمسترشدين.

٥- هو رجل ورث عن رسول الله ﷺ علوم الشريعة وعلوم الطريقة، وعلوم الحقيقة.

٦- هو رجل جعله الله خبيراً بمعاني تجليات الحق تبارك وتعالى، وعليماً

بأسراره وغيوبه القدسية، وجعله الله حفيظاً على هذه الأسرار والغيوب، فلا يبيح منها شيئاً إلا لأهلها بقدر طاقتهم، وحسب حاجتهم، قال الله تعالى:

﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ الفرقان

٧- هو رجل قلبه مع الله ورسوله دائماً أبداً، وإن كان جسمه مشغولاً بالأعمال الكونية، أو بهداية الناس إلى الله، فهو مع الحق بسره، ومع الخلق بجسمه.

٨- هو رجل قائم لله بالحق، لا يتزحزح عنه قدر أنملة، وإن خالفه الناس أجمعون، ولو اجتمعوا على أن يغيروا من موقفه، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٩- هو رجل أذل نفسه للمؤمنين والمؤمنات، وأعزها على أهل الكفر أجمعين، فلم يقدروا على إذلاله وإهانته.

١٠- هو رجل يرجع الناس إلى أمره جميعاً، عند اختلافهم حول محدثات الأمور، من المشاكل التي لم يجدوا لها حلاّ في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ ، ولا في أقوال الأئمة المجتهدين، لأنه أعلم أهل زمانه بدين الله، سر قول الله تعالى:

﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ ٨٣ النساء

لأن الله أقامه مقام رسول الله ﷺ وألهمه الحكمة والصواب، وفصل الخطاب.

١١- هو رجل فات المقامات، وتخطى المنازل بالنسبة للناس جميعاً في عصره، فلم يفته سابق منهم، ولم يدركه لاحق منهم، والله أعلى مقامه فوقهم جميعاً، وأخفاه عنهم، فإنهم يرونه مثلهم، ولكنه عند الله عظيم.

١٢- وهو رجل واحد في الأمة، وله أبدال كثيرون يبلغون الناس ما علمه

الله له، وما ألهمه به من الفقه في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ ، مما يحتاجه أهل عصره في حل مشاكلهم، وتزكية نفوسهم، قال الإمام علي رضي الله عنه:

((اللهم لا تُخل الأرض من قائم لك بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، وإما باطناً مستوراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناناته))

وقال سيدنا رسول الله ﷺ عن أبي هريرة المستدرك للحاكم وسنن أبي داوود.:

{ إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ إِلى هِذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائَـةِ سَـنَةٍ ، مَنْ يُجَدِّدُ لَها دينَها }

وعن هذا الرجل يقول العارف بالله تعالى الشيخ مُحَمَّد علي سلامه في كتابه (قطرات من بحار المعرفة) ص ١٣٢:

((هذا الرجل هو بغية كل مؤمن، ومقصد كل محسن، وأمل كل فرد من أهل الصفاء والإخلاص، وإن الكل يبحث عنه، ويسعى في طلبه، اقتداء بسيدنا موسى عليه السلام، وعملاً بأمر رسول الله ﷺ في حديثه الشريف الذي يقول فيه (رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب من حديث أنس رضي الله عنه).:

{ أُطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصينِ }

والعلم الذي أمرنا رسول الله ﷺ بطلبه، إنما يكون عند العالم العامل، وعند الفرد الكامل، وهو علم الإيمان، وعلم تزكية النفوس، وعلم الوصول إلى الله عز وجل ، وقال ﷺ أيضاً فيما رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة :

{ إسْتَرْشِدُوا العاقِلَ تَرْشُدُوا وَلا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا }

والعاقل هو الذي يعقل عن الله عز وجل آياته، ويعقل عن رسول الله ﷺ وصاياه وإرشاداته)).

وقد قال في شأنه أيضاً الإمام أبو العزائم ﷺ:

والعارف الفرد محبوب لخالقه فات المقامات تحقيقاً وتمكيناً
في كل نفس له نور يواجهه من حضرة الحق ترويحاً وتعييناً
معناه غيب ومبناه مشاهدة والفرد معنى وليس الفرد تكويناً
يمشي على الأرض في ذلّ ومسكنة هام الملائك شوقاً منه وحنيناً
لا يعرف الفرد إلا ذو مواجهة صافي فصوفي فأحيا النهج والدين

أخلاقه

أما الأخلاق التي يجب أن يكون عليها الداعي إلى الله ﷻ أو المرشد الرباني:

فهي أخلاق الله ﷻ ، وأخلاق رسوله الأعظم ﷺ .

ولما كان هذا الباب بحر لا ساحل له، فنكتفي بالإشارة إلى ما يمكن ملاحظته على ظاهر المرشد منها، فمن ذلك ما ذكره الإمام أبو العزائم في (مذكرة المرشدين) ص ١٠٢ :

١- أن يكون حكيماً، رحيماً، حريصاً على النفوس، معتقداً عند الناس، مشهوراً باتباع السنة والكتاب والعمل بهما، متباعداً عما ينفر القلوب، من كل الأعمال والأحوال والأخلاق، وأن يكون متمكناً من أصول التوحيد، طبيباً حاذقاً بأمراض النفوس ودوائها، خبيراً بمداراة الناس، فاهماً منزلة كل إنسان، له معرفة بسيما الناس التي تدل على خفى طباعهم وغرائزهم، ومكنون أخلاقهم.

٢- أن يألف الناس، ويتحمل أذاهم، حتى يألفوه ويرغبهم في الأخلاق الكريمة.

٣- أن يجاهد نفسه ليعمل أولاً بعلمه، ثم يدعو الناس إلى ذلك.

٤- ألاّ يفرق بين الناس بسبب الفقر أو الغنى أو الجاه أو النسب، في الإقبال عليهم والبشاشة لهم.

٥- لا يستحي إذا كان لا يعلم أن يقول لا أعلم، كما لا يستحي أن يطلب العلم ممن فوقه، دون التعصب لشيخه.

٦- بذل ما في اليد للناس، تأليفاً لهم وعدم التطلع إلى ما في أيديهم.

٧- ترك الجدال مرة واحدة إلا ما كان، لبيان حكم من الأحكام الشرعية، مختلف فيه ويكون بالتي هي أحسن.

٨- الصبر على جفوة من يدعوهم، والإحسان إلى المسئ، وصلة القاطع، وتأليف النافر.

٩- التباعد بالكلية عن تنفير الخلق، وعن نية السوء، أو قصد الشر، أو العزم عليه، أو التكلم بما لا يليق من قبيح الكلام، في غيبة الناس أو في مواجهتهم، والتباعد كذلك عن سماع الشر في حق الناس.

١٠- المسارعة إلى فعل الواجبات، والفضائل والمكرمات، ومنافستهم في ذلك، حتى يقلدوا الداعي.

١١- الشفقة عليهم، والاجتهاد في دفع المصائب عنهم، وتخفيف آلامهم، ومشاركتهم في مهماتهم مشاركة عملية بالمال والنفس.

١٢- الاجتهاد في تنبيههم لترك المعاصي التي يقع فيها بعضهم، وعمل الفضائل التي تركها بعضهم، بطريق محفوظ من أن يتوهم أحدهم، أنه مقصود بالذات، خشية من التنفير، بل يكون بتنبيه عام، يبين فيه قبح المعصية، وسوء عاقبتها، وحسن الفضيلة، وجميل مآلها.

١٣- الغضب لله، والرضا لله، والحب في الله، والبغض في الله.

١٤- دعوة الخلق كل على قدر عقله.

١٥- مداراة الناس، والتباعد عن سماع الشر في حق الناس، وذكر محاسنهم، وستر عيوبهم في غيبتهم.

١٦- أن يتحصن بالحصون الشرعية عن دواعيها، وفي ذلك أمور كثيرة فصلها الإمام أبو العزائم ﷺ في وصيته الجامعة لإخوانه في كتابه (مذكرة المرشدين) ص ٣٤ حيث يقول:

((الواجب علينا أن نتباعد عما يريبنا، أو يوقعنا في الريبة عند الناس:

- بأن نتحصن بالحصون الشرعية، فلا نتكلم أمام الناس بخصوصياتنا، ولا بخصوصيات المرشد، ولا نفضل طريقتنا أو أستاذنا على الطرق الأخرى، وعلى الرجال، لأن ذلك يوقع المسلمين في فتنة وشغل في غير الحق.

- ، وأن نحافظ على إخواننا المسلمين من الوقوع في غيبتنا، وظن السوء بنا بترك الأعمال التي لو عملناها لا تضرنا، ولكنها تلفت المسلمين إلى ذمّنا مثل: ..أن نترك الصلاة في المساجد بالتلذذ بها في الخلوة، ومثل أن نترك الكلام مع الناس اشتغالاً بالأنس بالله، ومثل أن نترك العمل في الدنيا توكّلاً على الله، ومثل الخلوة بالأجنبيات تحصناً بمراقبة الله تعالى، وإعتقاد أنه لن يضره ولن يضرها ذلك، لعلمه بنفسه ومعرفته بالكبائر المحرمة شرعاً، فإن ذلك موجب لوقوع الناس في الشر، وفساد اعتقادهم في الطريق وأهله، ومثل ترك الملابس، أو تكلف لبس

المرقعات، مما يجعل الناس يقعون فيه، فإن ذلك مخالف لطريقتنا ومبدأنا، لأننا نحب إقبال الخلق على الله ودعوتهم جميعاً إلى الحق.

- ومن كان هذا طريقه وحاله، فالواجب عليه أن يؤلّف الخلق أجمعين، لا فرق بين المسلم وغيره، من المجوسي واليهودي والنصراني، وإن تأليفهم يكون بالمحافظة على وصايا القرآن الشريف، وكمال الإقتداء بسيدنا ومولانا مُحَمَّد ﷺ في السر والعلن.
- وبأن يخفي مواجيده وأحواله وأسراره عن العامة حتى يكون مع الخاصة)).

ولله در ابن عجيبة رضي الله عنه إذ يقول:

إذا لم يكن في الشيخ خمس فوائد ... وإلا فدجّال يقود إلى الجهـل

بصير بأحكام الشريعة عارف ... ويبحث في علم الحقيقة عن أصل

يبادر للورّاد بالبشر والقرى ... ويخضع للمسكين في القول والفعل

فهذا هو الشيخ المعظم قدره ... جدير بتمييز الحرام من الحل

وقال أيضاً رضي الله عنه:

((لابد للشيخ، أن يكون له علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية)).

فهذه الأخلاق، هي التي يجب أن يكون عليها، المتصف بصفات الداعي إلى الله، أو النائب عنه، لأنها من أخص صفات رسول الله ﷺ ، والخادم إذا ناب عن سيده يلزمه أن لا يخالفه، فإن خالفه هلك وأهلك.

فمن أقامه الله بدلاً عن الصديقين والشهداء، ونائباً عن العلماء الربانيين، وغلبته

نفسه فغضب، أو شتم آخر أو سبّه، أو كرهه بقلبه أو ظن في أخيه سوءاً، أو قطع أخاً له لغرض من أغراض الدنيا، أو لعلّة من علل الحظوظ، أو تهاون بواجب، أو ترك المنافسة في عمل الخيرات، ونافس في عمل الشرور، فكأنه يريد أن لا يقبل فضل الله ونعمته، لأن هذا الفضل العظيم يُمنح بالفضل من الله تعالى، ويدوم ذلك الفضل بمراعاة تلك المعاني، ونعوذ بالله من حال عبد يتفضل الله عليه، فيأبى فضل الله، وينعم الله عليه فيرد نعمة الله.

علومه ومعارفه

لابد للشيخ أن يكون عارفاً بالعلوم التي يحتاج إليها، وبذوق أسرار الأحوال والمقامات، وذلك بأن يكون حَلّ في منازل السائرين، وهي مقامات اليقين، بحيث يتم له سلوكها ومعرفتها: ذوقاً وحالاً ومقاماً، كتصحيح التوبة بشروطها، وأركانها، وتحقيق الورع والزهد، والخوف والرجاء، والتوكل والصبر، والرضى والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة.

وأن يكون قطع مهامة النفوس، وجال في ميدان محاربتها، في قطع شهواتها، وعوائدها، وما تجنح إليه من رعونتها ومألوفاتها.

وقطع أيضاً مفاوز البعد الذي بينها وبين خالقها، الناشئ عن وهمها وجهلها، وذلك بقطع ركونها إلى الكرامات، وخوارق العادات، أو طلب الخصوصية، أو غير ذلك من القواطع القاطعة عن مقام الإخلاص، واللحوق بخواص الخواص.

ويكون أيضاً أختبر وعرف كل ما يحبس عن السير، من الوقوف مع المقامات، والقناعة بظهور الكرامات.

وفي الحكم لابن عطاء الله ﷺ:

((ما أرادت همة عارف أن تقف مع ما كُشف لها، إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولا تبرّجت ظواهر المكونات، إلا ونادته حقائقها: إنما نحن فتنة، فلا تكفر)).

وعرف أيضاً، ما يحجز ويمنع من الوصول إلى صريح العرفان، على وفق المشاهدة والعيان، وهو أمران:

إما الملل من المجاهدة والسير، والركون إلى الراحة والكسل، وإما الإستغناء عن الشيخ، والخروج عنه قبل الترشيد؛ فإن ذلك يحجز بينه وبين التحقيق، ويخرجه عن سواء الطريق، ويرجع إلى مقام العموم.

وحصل له الفرق بين الروحانية والبشرية، والسلوك والجذب، والفناء والبقاء، وأحكم أحكام التخلية والتحلية، وكل شرب من مشارب القوم وأذواقها، كان فيه ناهلاً وشارباً.

فإذا حصّل هذه المراتب، وذاق هذه الأذواق: استحق أن يكون شيخاً مربياً.

قال صاحب العوارف :

((ومن شرائط أهل الولاية، أن يكون عالماً بالأوامر الشرعية، عاملاً بها، واقفاً على آداب الطريق، وسالكاً فيها، وكاملاً في عرفان الحقيقة، وواصلاً إليها، ومخلصاً لجميع ذلك، حتى يتم له السلوك، ويشرف بعالم الوصال، فالله الله أيها الطالب، الحذر من صحبة الأشرار، فإنهم قطاع الطريق، واعتصموا بحبل القرآن، والأحاديث النبوية)).

وقال أبو الحسن الشُشتري ﷺ:

((لا يُقتدى في طريقنا هذه بظاهر، ولا بباطن، وإنما يُقتدى بمن جمع

بينهما مع الزهد الظاهر، والايثار، والورع، والعلم بالمنازلات والأحوال، والمقامات والخواطر)) .

وقال الجنيد ﷺ :

((من لا يكتب الحديث، ويحفظ القرآن، لايُقتدى به في هذا الأمر، فيجب على المريد ألا يقتدي إلا بالعالم المتجرد عن الدنيا، العامل بما يعلم)).،ثم قال : **((ولا يتخيل لطالب هذا الأمر أنه يبلغه بذكائه، أو ينظر في كتب الصوفية، أو الحكماء، ويعمل ويجتهد ويصلي، لا والله ما الأمر هين)).**

وهكذا نجد أن أهم شروط الشيخ، أن يكون حصّل علم الظاهر، وعلم الباطن.

أما العلم الظاهر:

فالمطلوب منه تحصيل ما يحتاج إليه في نفسه فقط، ويحتاج إليه المريد في حال سيره، وهو القدر الذي لابد منه من أحكام: الطهارة، والصلاة ونحو ذلك ، إذ كثير من العلوم الظاهرة، لا مدخل لها في السير والسلوك إلى ملك الملوك، كالدماء، والحدود، والطلاق، والعتاق.

وأما العلم الباطن:

فالمطلوب فيه التبحر التام، إذ المقصود بالذات في الشيخ المصطلح عليه عند القوم هو هذا العلم، لأن المريد إنما يطلب الشيخ ليربيه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة، فيكون عنده علم تام بالله، وصفاته، وأسمائه، ومتعلقاتها، وأحكامها، وتفاصيلها، وفوائدها، وحكمها، وأسرارها، وعلم تام بآفات الطريق، ومكايد النفس والشيطان، وطرق المواجيد، وتحقيق المقامات، وقد حصل له ذلك على سبيل الذوق والوجدان،

بحيث إذا استخبر عن آفات الطريق وعلاماته، وعن حقيقة المقصد، يخبر بحقيقة الأمر على ما هو عليه، وحصلت له مع ذلك قوة وتمكن من رفع الموانع، وقطع العلائق الظاهرة والباطنة، وبصيرة نافذة ينظر بها في قابلية المريدين والمسترشدين، واستعداداتهم، ليحمل كل أحد على شاكلة قابليته، ويعين له طريقاً قريباً يفضي منها إلى ربه.

قال الساحلي:

((من الشروط التي لابد منها في الشيخ، أن يكون عنده من الكتاب والسنة، ما يقيم به ما لابد منه في الرسوم الشرعية، وما يبنى عليه وظائف سلوكه، وإذا انضاف ما يفتح الله به عليه من الحكمة في باطنه، فإنه يكون له في ذلك نور يمشي به في الناس، ويهديه إلى فهم خطابات الكتاب والسنة)).

وكذلك لابد للشيخ، أن يكون ماهراً بأحوال القلوب، عارفاً بعللها، عالماً بعلاجها، يعلم ما كان منها ليس فيه إلا قصد واحد، وهمّ واحد، ومحبة واحدة، وهو الذي أشار إليه الجنيد ﷺ، حين قالوا له:

كيف يصل العبد إلى التحقيق؟ ، فقال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد.

وهذا القلب، سهل العلاج، قريب الصحة، فهو حين سلم من تشعيب الهموم، ولم يبق له إلا هم واحد، لم يبق فيه إلا مرض واحد، وهو حجاب الوهم، فعلاجه في ترقيته، ورفع حجابه، بخلاف القلب الذي تشعبت فيه الهموم، فهو أصعب في العلاج، لتركيب أمراضه، وتراكم علاجه.

قال بعضهم:

((القلب كالمعدة، والمعدة بيت الداء، فإذا كثرت عليها الأخلاط مرضت وفسدت؛ وعلاجها الحمية من الأخلاط، وكذلك القلب إذا كثرت عليه الهموم والخواطر، سلمت فكرته، وانصقلت مرآته)).

وقد قال ﷺ (رواه ابن ماجة عن ابن مسعود رضي الله عنه).:

{ مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمّاً وَاحِداً هَمَّ الْمَعَادِ كَفَاهُ اللَّهُ سَائِرَ هُمُومِهِ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَي أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ}

وقد أشار إلى ذلك ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه فقال:

((لا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق؛ فمداواة الأمراض الظاهرة، التزام التوبة، والتقوى، والاستقامة؛ فإن صعبت عليه فيلزم صحبة الشيخ، ومداومة الجلوس بين يديه، أو تكرار المجئ إليه، فإنّ نظر الشيخ ترياق، فإن صحبه ولم يشف من مرضه، فليعلم إن صدقه ضعيف، أو شيخه ضعيف، فإن الشيخ إذا كان له نور يمشي به في الناس جامعاً بين جذب وسلوك، لا يمكن أن يصحبه العليل بالصدق، ولم يشف من ساعته)).

فلابد للشيخ أن يكون قد أحكم علم تشريع القلوب، واطلع على أسباب فسادها، وصلاحها، وصحتها، وسقمها، عارفاً بعلاج أمراضها وعللها؛ علم ذلك ببصيرة نافذة، ومكاشفة غيبية.

قد عالج نفسه وطهّرها، وطهر قلبه من صدأ الحس، وصفّي مرآته من صور الأكوان، فإذا فعل ذلك، فإن قلبه يصير كالزجاجة الصافية، فينطبع فيه بواطن المريدين، فيعالجهم بما يتجلى فيه من أمورهم، بإذن الله.

فيقع الشفاء بمجرد المواجهة والمقابلة، ولذلك يقول الشيخ محي الدين بن عربي ﷻ:

((الشيخ إذا لم يكن صاحب ذوق، وأخذ الطريق من الكتب، لا من أفواه الرجال، وقصد يربي المريدين طالباً للرياسة، فإنه يهلك من تبعه، لأنه لا يعرف مورد الطالب ولا مصدره، فلابد أن يكون عند الشيخ: دين الأنبياء، وتدبير الأطباء، وسياسة الملوك، وحينئذ يقال له: أستاذ)).

الشيخ الكامل

وما ذكرناه هو بعض من علوم الشيخ الكامل الذي يقول فيه سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷻ:

((كل شيخ لم تصل إليك الفوائد منه من وراء حجاب، فليس بشيخ)).

ويخبر عن حاله فيقول:

((والله إني لأوصّل الرجل إلى الله من نفس واحد)).

ويخبر عن هذا الحال أيضاً سيدي أبو العباس المرسي ﷻ فيقول:

((والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه، وقد أغنيته)).

وفيهم يقول السهروردي ﷻ في العوارف:

((إن نظرة العلماء الراسخين، والرجال البالغين، ترياق نافع، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق، فيستنشق بنفوذ بصيرته، حسن استعداد الصادق، واستئهاله مواهب الله تعالى الخاصة، فيقع في قلبه محبة الصادق المريد، وينظر إليه نظرة محبة عن بصيرة،

وهُمْ من جنود الله تعالى، فيُكسبون بنظرهم أحوالاً سنية، ويهبون أثاراً مرضية، وماذا ينكر المنكر من قدرة الله سبحانه وتعالى، وكما جعل في بعض الأفاعي من الخاصية، إذا نظر إلى الإنسان يهلكه بنظره، هو قادر بأن يجعل في بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسب حالاً وحياة)).

ويقول الإمام أبو العزائم ﷺ:

من نظرة يرتقى المطلوب مرتفعاً   قدس الجلالة في حال المناجاة

وقال ابن عطاء الله في لطائف المنن:

((إنما يكون الاقتداء بولي، دلّك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته، في وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد، فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك، وكمائنها، ودفائنها، ويدلك على الجمع على الله، والفرار مما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله: يوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك: الهرب منها، وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الاقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه)).

وقال الشيخ أبو مدين ﷺ:

((الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالتعظيم)).

((الشيخ مَنْ هذّبك بأخلاقه، وأدّبك باطراقه، وأنار باطنك باشراقه)).

((الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه)).

وقال ابن عطاء الله في (لطائف المنن):

((ليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذي سرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك من نهض بك حاله ، شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى ، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك، حتى تجلت فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله، فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة، وقال: ها أنت وربك ، هنالك محل الولاية من الله، ومواطن الإمداد من الله، وبساط التلقي من الله)).

هذا الشيخ الكامل يتفضل الله ﷻ عليه بأحوال النبوة، وعلوم الرسالة، فيجمله بالعطاء الذي تفضل به على نبيه ﷺ في قول ﷻ :

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ البقرة

فقد دلت هذه الآية على العلوم التي بُعث بها رسول الله ﷺ ، وأمره الله بتبليغها، وننقل هنا ما كتبناه في توضيحها في كتابنا ((الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي)) ص ١٥١:

((١- علم الآيات: ويقصد به العلامات الدالة على قدرة الله ﷻ في الأكوان، وفي الإنسان، وهي المشار إليها بقول الله ﷻ [الآية (٥٣) سورة فصلت] :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

وفي ذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ:

{ **تركنا رسول الله ﷺ ، وما في السماء طائر يطير بجناحيه، إلا ذكر لنا عنه علماً** }.

((٢- علم تزكية النفوس: ... وهو العلم الذي به تصفو النفوس، من شوائب الرياء، وعلائق الحقد ، وأدران الحسد، وبواعث الحظ والهوى، حتى تنال مقام الإخلاص، ولا تُحقق العبادة الغاية منها، إلا بعد تزكية النفس وتصفيتها، لقول الله ﷻ [الآيتان (١٤، ١٥) سورة الأعلى]. :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾

وهذا هو الطور الهام الذي جاهد فيه رسول الله ﷺ الأصحاب حتى فطرت نفوسهم على الصفاء والوفاء، وذلك لمدة اثنى عشر سنة، حتى تأهلت النفوس، لعبادة حضرة القدوس، فبدأ نزول العبادات بالصلاة في العام الثاني عشر من بعثة رسول الله ﷺ ، ثم توالت بعد ذلك بقية العبادات.

((٣- علم الكتاب: .. وهو علم الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأخلاق، والأسر والمجتمعات، والسلم والحرب، وهو ما يسمى الآن بعلم الفقه.

((٤- علم الحكمة: ... وهو العلم الذي يلهمه الله ﷻ للإنسان، فيكون حكيماً في تصرفاته، بليغاً في أحواله وهيئاته، مُسدّداً في أقواله وتحركاته حتى يكاد الناس – غير الحاسدين والحاقدين – لا يرون فيه عيباً في أحواله وأفعاله، وهذا نتيجة التوفيق، ولأنه عزيز لم يُذكر في القرآن كله إلا مرة واحدة، وعلى لسان نبي من أنبياء

الله ﷻ في قوله تعالى (الآية (٨٨) سورة هود).:

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾

وقد أخبر الله ﷻ أن صاحب الحكمة قد أعطاه الله البر والفضل الكبير في قوله ﷻ [الآية (٢٦٩) سورة البقرة].:

﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾

((٥- العلم اللدني (الوهبي):. وهو ما ينتج عن الإخلاص في تنفيذ الأعمال، والصدق في المتابعة لسيدنا رسول الله ﷺ ، حيث يفاض على صاحب هذا القلب، علوم وهبية، وأسرار روحانية، لم ولن تسجل في كتاب وهي من باب قول الله ﷻ :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٢٨٢ البقرة)

أو من كنز فضل الله ﷻ المرموز إليه بقوله سبحانه[٦٥ الكهف]:

﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾

أو فتح وفيض من قول رسول الله ﷺ (رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس):

{ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عِلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } .

وهذا العلم هو الذي يقول فيه سيدي أبو يزيد البسطامي لعلماء الظاهر:

((أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، ونأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت فنأخذه فأي وقت شئنا)).

وهو ما أشار إليه الإمام أبو العزائم ﷺ في قوله:

هو العلم لا يجلي بغير الحقائق وعلم بكشف فيه قرب لخالق

وما العلم إلا ما يعلمه العلي وأي (يعلمكم) دليل لصادق

وفي أول الرحمن نور لمهتد بها علم القرآن جذب الموفق

وما العلم والأعمال من غير خشية سوى ألة صماء سؤل المنافق

وهذا العلم حقائق صادقة، تجيش في صدور العارفين، فينقلونها بأفواههم إلى خاصة المحبين كما يقول الإمام علي ﷺ:

((يحفظونه في صدورهم، حتى يودعوه في قلوب أشباههم وأمثالهم)).

ولما كان العلماء ورثة الأنبياء، وأكمل الناس وراثة، هم أئمة أهل الطريق، لأنهم الذين يقومون بتربية مريديهم، وتهذيب سلوكهم، وتجميل أخلاقهم، كان لابد لمن يقوم هذا المقام، أن يكون متجملاً بعلوم الرسالة التي وضحناها حتى يكون صورة أكملية، يضئ للسالكين ويهذب المريدين، وينير للواصلين ويجمل المتمكنين وهذا هو الإمام الذي يقول الله ﷻ فيه[الآية (١٧) سورة الكهف] :

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾.

ومن نقض علماً من هذه العلوم، عليه أن يسعى ليتكمل من مرشد رباني في هذا العلم، ولا يتكبر في ذلك لقول الله ﷻ :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

ولما كانت الآية قد وضحت أن هذا الرسول من أنفس أهل زمانه، فكذلك لابد أن يكون هذا المرشد العالم العامل حياً، يُحي به الله النفوس لأهل زمانه، ومن هنا قال

الإمام أبو العزائم ﷺ:

((الله حي قيوم ، ولا يصل إليه واصل إلا بعبد حي قائم)).

وليس معنى ذلك إنكار أحوال العارفين السابقين؛ فإن من ينكر ذلك فقد بان عن طريق القوم. ولكن لما كان فضل الله واسع، وعطاؤه متجدد، اقتضت إرادته أن يصطفى في كل زمان، وفي كل مكان من يؤهله للكشف والتبيان عن أمراض النفوس في عصره، ويلهمه بتحضير الدواء الناجح لهذه الأمراض من القرآن والسنة، ومن هنا قيل: ((لكل زمان دولة ورجال)) ، ولذلك عندما سئل الإمام أبو العزائم رضي الله تعالى عنه، عن سيدي أبي الحسن الشاذلي، وهو الإمام الأعلى لأهل طريقته، وإليه ينتهي نسب الطريقة الروحاني، قال:

((لو بُعثت في عصر أبي الحسن الشاذلي لكنت تلميذاً له، ولو بعث أبو الحسن الشاذلي في عصري لكان تلميذاً لي)).

وهذا لأن النفوس لا تتأثر إلا بالمجالسة والمؤانسة، والإنسان الذي يطلب الكمالات الدينية، لابد أن يجالس، ويجانس، من رأى فيهم هذه الكمالات في عصره وزمانه.

وقد كان هذا دأب الصالحين في كل زمان ومكان:

فهذا سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه، بعد أن انتقل شيخه الكبير سيدي علي الخواص إلى الرفيق الأعلى، ولاحظ لصدقه، أنه لم يتكمل في طريق القوم بعد، انتقل إلى صحبة سيدي مُحَمَّد الشناوي ﷺ، فتكمل على يديه)).

الحاجة إلى الشيخ

المرشد الكامل أمل المؤمن وبغيته، وطلب المحسن ومقصده....

لأن صحبته تؤثر على نفسه تأثيراً مباشراً وعميقاً، وتجعل المؤمن يتشبه به في سيره وسلوكه، وأخلاقه، وآدابه، وتأثير الصحبة على النفوس أمر لا يستطيع أحد أن يتجاهله، قال ﷺ (رواه أبو داود عن أبي هريرة):

((الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))

فأصحاب الهمم العالية من المؤمنين، وأصحاب العزيمة الصادقة من المخلصين، والذين تنبعث من نفوسهم الرغبة الصادقة في الوصول إلى ما كان عليه السلف الصالح من أحوال ومقامات، يلزمهم البحث عن المرشد الحي من أجل الترقي في هذه المقامات، والرفعة إلى أعلى الدرجات، لأن المقامات غيب خفي، لا يستطيع السالك أن يلجها بنفسه، أو يدخلها بمفرده، لعدم علمه بمزالقها وعقباتها، فلزمه أن يبحث عن المرشد الحي القائم الذي خبر عن هذا الطريق، وسلك دروبه ومفازاته، اقتحم صعابه وعقباته، ورده الحق إلى الخلق، ليدعوهم إلى حضرة ذاته، كما قال ابن البنا السرقسطي في منظومته:

إنما القوم مسافرون ... لحضرة الله و ظاعنون

فاحتاجوا فيه إلى دليل ... عالم بالسير و بالمقيل

قد سلك الطريق ثم عاد ... ليخبر القوم بما استفاد

فهو ينزل السالك في المقامات، على قدر قواه الروحانية، من غير إرهاق ولا اجحاف، لأنه يعرف أمراض النفوس، وكيفية علاجها.

كما أن حاله يشرق على النفوس فيزكيها، وعلى القلوب فيطهرها، وعلى الأرواح فيرقيها، وعلى الجوارح فتقشعر من خشية الله، وتلين إلى طاعة الله ورسوله، وفي ذلك يقول الإمام أبو العزائم ﷺ في كتابه (مذكرة المرشدين) ص ٥٧ :

((يلزم لمن أراد أن يسلك طريق الله تعالى – لتحصل له النجاة والفوز والسعادة والوصول – أن يبدأ أولاً بالبحث عن الرجل الحي العالم بكتاب الله، وبسنة رسول الله ﷺ ، والعالم بتزكية النفوس، وتخليصها من أمراضها ورعوناتها، والعالم بالأخلاق المحمدية المتجمل بها الممنوح الحال الذي به يجرد النفوس من أوحال التوحيد العالم بعلوم اليقين، ومشارب الأبرار، ومشاهد المقربين، العالم بحقيقة التوحيد الخالص من الشرك الخفي والأخفى.

فإذا وُجد هذا الرجل، فهو إمام أهل عصره جميعاً والواجب عليهم جميعاً أن يتركوا الحظ والهوى، والعلو في الأرض، والتعصب للأباء والأجداد؛ إقبالاً على الله تعالى، وتحقيراً لكل لذة يعقبها العذاب، وكل سيادة تنتج الشقاء، وكل شهرة تؤدي إلى حرمان الرحمة والغفران، وكل وظيفة تبعد عن دار الكرامة والإحسان الأبدي)).

وقد كان السلف الصالح ﷺ، يسافرون آلاف الأميال، بحثاً عن هذا الرجل : .... فهذا الإمام أبو الحسن الشاذلي ﷺ، يأتي من تونس إلى مصر بحثاً عنه، ثم إلى بلاد الشام، وبلاد العراق، وهناك أخبره الشيخ أبو الفتح الواسطي، أن شيخه في بلاد المغرب، وقال له: ((جئت تبحث هنا عن القطب، والقطب عندكم)) فرجع إلى تونس، فالتقى هناك بسيدي عبد السلام بن مشيش ﷺ.

فالشيخ قد أحكم علم البدايات، وعلم النهايات؛ ليربي بهما المريد في بدايته ونهايته؛ لأن لكل منهما حكم يخصه: .. فعمل البدايات عمل الجوارح، وعمل النهايات عمل القلوب.

وكذلك يكون عالماً بالأمور التي يخاف على المريد فيها، فيأمره بالبعد عنها،

كالركون إلى العز والتعظيم، أو إلى الدنيا والميل إلى شئ منها، ومن أسبابها، ومخالطة أهلها، وسماع حديثها ، .... فالتحقق بالصفاء،........ والتمكن في مقامات الصوفية .... يتحقق بأركان أربعة:

معرفة الله تعالى، ومعرفة أسماءه وصفاته وأفعاله، ومعرفة النفوس وشرورها ودواعيها، ومعرفة وساوس العدو ومكائده ومضاله، ومعرفة الدنيا وغرورها، وتفتينها، وتلوينها، وكيفية الاحتراز منها، والتجافي عنها.

ثم بعد ذلك لابد من دوام المجاهدة، وشدة المكابدة، وحفظ الأوقات، واغتنام الطاعات، ومفارقة الراحات، والتلذذ بما أيّدوا به من المطالعات، وصيانة ما خُصّوا به من الكرامات.

فلا عن المعاملات ينقطعوا، ولا إلى التأويلات يركنوا، لأنهم رغبوا عن العلائق، ورفضوا العوائق، وجعلوا الهموم همّاً واحداً، وزايلوا الأعراض طارفاً وتالداً، اقتدوا بالمهاجرين والأنصار، وفارقوا العروض والعقار، آثروا البذل والإيثار، وهربوا من مرامقة الأبصار، أن يومي إليها بالأصابع ويشار، لما أنسوا بها من التحف والأنوار، فبغيتهم أن يكونوا من الأتقياء الأخفياء، والغرباء النجباء، فإذا صحت عقيدتهم؛ سلمت سريرتهم وفي ذلك يقول ﷺ (رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود):

((إِذا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالىٰ عَبْداً اقْتَناهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِزَوْجَةٍ وَلاَ وَلَدٍ))

وقال أيضاً ﷺ (رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة) :

{ إِنَّ أَغْبطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ ٱلْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلاَةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ في السِّرِّ وَكانَ غَامِضاً في النَّاسِ لاَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ، وَكانَ رِزْقُهُ كَفَافاً، فَصَبَرَ عَلَى ذٰلِكَ»، ثُمَّ نَقَرَ بِيَدِهِ فَقَالَ: «عَجِلَتْ مَنِيَّتُهُ، قَلَّتْ بوَاكِيهِ، قَلَّ تُرَاثُهُ }

والحاصل أن من سياسة الشيوخ، إعانة النفوس، بما يقتضيه حالها، على ما هو المراد منها، ثم إن الطباع مختلفة وأحوال السالكين مفترقة، فمنهم من تنتعش قواهم بالمعارف والعلوم، فيذكر له منها ما يقوي حاله، بوجه يشوق ولا يشوش.

ومنهم من ينتعش حاله بالتذكير والوعظ، فيكون تذكيره، عوناً له على سلوكه، ورفعاً لهمته، ومنهم من تنتعش قواه بالمذاكرة في العلوم، واستخراج دقائق الفهوم، فيكون ذلك منهضاً له في حاله، فيؤتي كل أحد بما يُنعشه، وإليه تشير الآية الكريمة:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

فأهل الصدق يكفي فيهم الدعاء إلى الله بالحكمة، وهي الهمة القوية.

وأهل الاعتقاد والتسليم، يكفي فيهم الدعاء بالموعظة الحسنة.

وأهل الانتقاد يجادلهم بالتي هي أحسن، فإن سبقت لهم سابقة نفعهم التذكير، وإلا فإنما أنت نذير.

ومن الناس أيضاً من ينتفع بالحكايات وذكر الكرامات، ومنهم من يتأثر بالشعر والسماع .. وهكذا.

وإذا كان الشيخ طبيب القلوب، بما علم وعرف من أحوالها، وعالج من أمراضها، وبما شاهد وذاق من أنوارها وأسرارها، فلابد أن يكون له اطلاع على القلوب، واستشراف على النفوس، فيعلم ما كان منها غثّاً ضعيفاً من العلم والعمل والحال، خالياً من اليقين، خراباً من النور، فيعامله معاملة الجائع الذي أصابه هزال، فيعطيه من الأذكار ما يقويه على حاله، ومن الأعمال ما يغنيه عن أشكاله، ويمد باطنه من مدد الهمة ما يسد به فقره، ويجبر به كثره.

ويعلم أيضاً ما كان منها سميناً بعلم أو عمل أو حال، أو بنور يقين أو معرفة، أو غير ذلك. فيعامله بالترقية والتربية اللائقة به وإذا كان سمنه مفرطاً، ردّه إلى الوسط، فخير الأمور أوسطها. وقد ردّ رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص عن صيام الدهر، وقيام الليل، لكنه غلبت عليه القوة فتمسك بذلك، ثم ندم.

ويكون أيضاً حال هذا الشيخ حال الطبيب، يدرك القلب الصلب، وهو القاسي من كثرة الذنوب والغفلة، فيحمله على التوبة، ويوقظه من الغفلة، ويأمره بما يلين قلبه، كالصيام، وصحبة الفقراء، وقيام آخر الليل، وغير ذلك مما يزيل علته وقساوته.

ويدرك القلب اللين بالخشوع والخضوع فيأمره بالترقي إلى مقام الإحسان، ويطوي عنه مسافة أعمال الجوارح، من أعمال أهل الإسلام والإيمان، وهكذا يعامل كل قلب بما يناسبه.

قال في العوارف: ((ينبغي للشيخ أن يتفرس في المريد، ويعامله على حسب صلاحيته واستعداده، ثم قال: ينبغي للشيخ أن يعتبر حال المريد، ويتفرس فيه بنور الإيمان، وقوة العلم والمعرفة، فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض، وأعمال القوالب، وطريق الأبرار.

ومن المريدين من يكون مستعداً صالحاً للقرب، وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب ، ولكل من الأبرار والمقربين نهايات وبدايات، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن، يعرف كل شخص، وما يصلح له.

ومن العجب أن الصحراوي يعرف الأرضين والغرس، ويعلم كل غرس وأرضه، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها، حتى المرأة تعرف قطنها، وما يتأتى منه من الغزل: دقته وغلظه، ولا يعلم الشيخ حال المريد، وما يصلح له.

كان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم، ويأمر كل شخص بما يصلح:

فمنهم من أمره بالإنفاق، ومنهم من أمره بالإمساك ، ومنهم من أمره بالكسب، ومنهم من أقره على ترك الكسب، كأصحاب الصفة.

فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس، وما يصلح لكل أحد.

أما في رتبة الدعوة فكان يعمم الدعوة، لأنه مبعوث لاثبات الحجة، وإيضاح المحجبة، فيدعو على الإطلاق، ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره)).

ويعلم الشيخ أيضاً كيفية تركيب العقاقير والأغذية، فمن رآه يليق به ذكر واحد: لقّنه له بسيطاً، ومن رآه يليق به ذكران أو ثلاثة، لقنه كذلك.

ومن رآه يصلح للفكرة، أمره بها، ومن رآه يصلح للفكرة والنظرة ركبها له، وكذلك الذكر مع الفكرة يركبهما لمن يقدر عليهما، وهكذا.

ويعلم أيضاً كون القلب: هل هو سليم أو سقيم، وهل هو أهل للخدمة أو للمحبة، فإن القلب الذي لا يطيق أنوار المعرفة، لا يصلح لصاحبه إلا الاشتغال بالخدمة ، قال الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه:

((وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة، حتى إن الطبيب لا يعالج العليل، ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة، فيعرف درجتها، هل هي ضعيفة أو قوية، فإذا عرف التفت إلى أحوال البدن، وأحوال الزمن، وصناعة المريض، وسنه، وسائر أحواله، فيعالج بحسبها، فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطب نفوس المريدين، ويعالج قلوب المسترشدين، ينبغي ألا يهجم بالرياضة، والتكاليف، في فن مخصوص، وطريق مخصوص، ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد، لقتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة، لقتل أكثرهم، وأمات قلوبهم)).

وهكذا يتضح لنا، أن سلوك الطريق وخصوصاً لمريد الكشف والتحقيق ، لا يكون من غير التزام الطاعة والانقياد، لشيخ محقق مرشد، لأن الطريق عويص، وأدنى زوال يقع عن المحجة، يؤدي إلى مواضع في غاية البعد عن المقصود، وهذا ما جعل الصوفية يؤكدون على ضرورة اتخاذ الشيخ، في نصحهم للمريدين ، فهذا الشيخ أبو الحسن الششتري ﷺ يقول:

((ولابد أن يتحكم لمن يأمره وينهاه ويبصره، فإن الطريق عويص: قليل خطاره، كثير قطاعه، وقد يظن السالك أنه على جادته، وهو قد ولّى ظهره لموضع توجهه منه، فإنه إذا خرج منه أنملة فقد خرج وانقطع، وانصرف سيره على آشعة تلك الأنملة، فإنه طريق دقيق، ونفس متصرفة في البدن، وهي الراحلة عنه، وعادة مألوفة، وشيطان هذا الطريق فقيه بمقاماته ونوازله)).

وقال أبو عمرو الزجاجي ﷺ:

((لو أن رجلاً كُشف له عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجئ منه شئ)).

وقال إبراهيم بن شيبان ﷺ:

((لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ، أو إمام، أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه عن آمر له يريه عيوب أعماله، ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات)).

وقال الشيخ أبو مدين ﷺ:

((من لم يأخذ أدبه من المتأدبين: أفسد من يتبعه)).

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه:

((كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ، لا يُفرح به، ولو كان وافر العقل، منقاد النفس، واقتصر على ما يلقى إليه شيخ التعليم فقط، لا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المربي، لأن النفس أبداً كثيفة الحجاب، عظيمة الخداع، فلابد من بقاء شئ من الرعونات فيها، ولا يزول عنها ذلك بالكلية إلا بالانقياد للغير، والدخول تحت الحكم والقهر)).

وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه من لطائف المنن:

(من لم يكن له أستاذ يصله لسلسلة الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط: لا أب له، دعى: لا نسب له، فإن يكن له نور، فالغالب غلبة الحال عليه، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب، ولم يقده زمام التربية والتدريب)

وقال الشيخ أبو عثمان الفرغاني رحمه الله :

((المجذوب: المتدارك الراجع من عالم الحق إلى عالم الخلق، لا يكمل ولا يصلح للاقتداء، إذا لم يكن له مرشد يهديه إلى دقائق المقامات، وإن كان على بينة من ربه، وبصيرة في سلوكه، فإن في المقامات الإسلامية الإيمانية، دقائق لا تدرك إلا من حيث الخلقية، والاطلاع عليها متوقف على اطلاع من اطلع عليها بنظر خليقته، فلا يكتفي بالبينة الحقيقية التي للمجذوب، فكان محتاجاً إلى المرشد)).

وروي عن أبي يزيد رضي الله عنه أنه قال:

((من لم يكن له أستاذ، فإمامه الشيطان)).

وقال الشيخ أبو علي الدقاق ﷺ :

((الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق ولا تثمر)) كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته، نفساً فنفساً، فهو عابد هواه، لا يجد نفاذاً)) .

قال القشيري:

((وهو كما قال، ويجوز أن تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين، والغرس إذا نقل من موضع لآخر، يكون أحسن وأكثر ثمره لدخول التصرف فيه، ثم قال: وسمعت كثيراً من المشايخ يقول: من لم ير مفلحاً لا يُفلح)).

وبالجملة فكلام أئمة القوم في ضرورة إتخاذ الشيخ كثير، ولكن ربما يقول قائل: .. فأين مَنْ هذا وصفه؟

وقد أجاب على ذلك الشيخ ابن عطاء الله ﷺفي كتابه (لطائف المنن) فقال:

((فاعلم أنه لا يعوزك وجود الدالين، وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم، جِدّ صدقاً تجد مرشداً، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى، قال الله سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ ﴾، فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله، اضطرار الظمآن إلى الماء، والخائف إلى الأمن، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها، إذا فقدته، لوجدت الحق منك قريباً، ولك مجيباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك، ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك)).

أوصاف الأدعياء*

إن الذي جعل كثيراً من الناس يهاجمون الصوفية...

وينعون على التصوف وأهله، هو ظهور كثير من الأدعياء، الذين اتخذوا الطريق مغنماً ومكسباً، فزينوا ظاهرهم للناس لخراب سرائرهم، وباعوا الدّين بالدنيا، وعملوا أعمال الآخرة بالدنيا، فذهبت أنوار الطريق، ومحيت أسراره، وانطمست معالمه، وجُهلت أحوال أهله، وحُجبت الامدادات السماوية، والفيوضات الربانية، التي كانت تُفاض على القلوب العامرة باليقين، والأبدان العاملة بسنة سيد المرسلين، والعقول الجائلة في الفكر في آيات السموات والأراضين، والأنفس السابحة في ملكوت السموات والأرض، والأرواح المواجهة لقدس الجبروت، فأصبحت أجسامهم بلا أرواح. كل ذلك بالاشتغال بالدنيا عن الآخرة، فكثر الحفاظ والمرشدون، وقلّ الراغبون والطالبون، يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم، يجلسون مجالس الأنبياء، والقلوب قلوب الشياطين.

فقد اشتغل هؤلاء بأمور لا تمت إلى طريق القوم بصلة، وجعلوها أساس الطريق:

- منهم من جعل لطريقته زياً خاصاً بها، إذا لبسها المريد صار من أهل هذا الطريق، وإن كان لم يتحقق باطناً بأحوال أهلها.
- ومن الدعاة الجهلاء من يجلسون في وسط العامة: ... فيذكرون اسم ولي من أولياء الله، يبثّون عنه الأقاصيص المفيدة بأنه ينفع ويضر، وأن من اتبعه يكثر ماله وولده، وأن من زار قبره تُقضى حوائجه، ويموت أعدائه، ويذكرون لهم من الكرامات، ما هو حق وباطل، حتى يرغب الناس.

* وقد فصلنا هذا الموضوع في كتابنا (الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي) ص ١٥٤.

- فيكون الضرر بذلك من جهتين : من جهة أنهم يتبعون طريقة لعاجل فان، فيكونون ممن يعبدون الله على حرف، ومن جهة أخرى أنهم يتبعونه لينتفعوا به من الجهة التي لا يمكنه أن ينفع نفسه ولا غيره منها، لأن النافع هو الله، ويحرمون النفع من الجهة التي يُنتفع منها، لأن الله أقامه سبباً للنفع فيها، وهي جهة تلقي العلوم، وفهم فقه القرآن الكريم، وتزكية النفس، وفهم أسرار التوحيد، وكشف حِكم الأحكام، أو التجمل بعلوم اليقين، مما به السعادة الأبدية، التي لا تُذكر الدنيا بجانبها بشئ، إلا كما يذكر العدم من الوجود، وقد يحصل ضرر ثالث لا يقل عن هذين الضررين، وهو أن يكون الرجل الذي يدعون إليه متوفياً، وليست له كتب علمية ينفع بها من يقتدى به، فيحصل الضرر لمن اتبعه، بحرمانه من طلب الرجل العالم، الذي جعله الله نوراً، وأوجب الانتفاع بعلمه، والاقتداء بعمله.
- ومنهم من يشغلون أنفسهم بالمفاضلة بين فلان وفلان، أو التعصب لشخص على آخر لحظ، أو هوى مستكن في نفسه.
- ومنهم من ينتسبون للعلم أو الطريق، ويجعلون العلم أو الطريق باباً من أبواب جلب الدنيا.
- ومنهم من يستعملون المخدرات في مجالسهم، ليفسدوا على الناس القوى التي بها إدراك الحكمة العالية، ويخدعون بها أهل التسليم، ليستدرجونهم، إلى أن يتمكنوا من قلوبهم، فيتصرفون في أموالهم، ويلعبون بعقائدهم.
- ومنهم من يأمر أتباعه بترك العلم والتعليم، وترك الوظائف والرواتب، بل وترك الأعمال الشرعية، موهماً أن ذلك يحجب عن الأنوار، ونعم فإنه يحجب عن الأنوار الإبليسية.

- ومنهم من سلم لأهل الجذب الذين أفناهم الحب عن سوى المحبوب، وبلغت بهم الرياضية والتزكية مبلغاً جعلهم روحانيين، حتى صاروا بحيث يعملون أعمالاً لا تقبلها العقول، كترك الأكل زمناً، وكبغض الدنيا وما فيها، وكتحمل الحر والبرد، وكالفرار إلى الصحاري وغير ذلك، فسلموا لهم معتقدون أنهم مرشدون، وتركوا أهل العلم بالله والمعرفة، وهؤلاء المنجذبون بكليتهم إلى الجناب العالي، ليسوا أئمة للمتقين، ولا هداة للمسلمين، ولكنهم مُنحوا الحب والوجد والمعرفة لأنفسهم خاصة، وهم أبدال الأنبياء وليسوا أبدالاً للرسل، وقد قال في شأنهم سيدي محي الدين بن عربي ﷺ :

لا تقتدي بمن زالت شريعته ... ولو جاء بالأنبا عن الله

وقد نبه إلى هذه الحقيقة الإمام أبو العزائم ﷺ فقال في كتابه: ((الشفاء من مرض التفرقة)) ص ٢٥ :

((وإن كثير من السالكين يميلون إلى الذين اختطفتهم العناية فيقلدونهم فيضلون، وليس المجذوب إماماً للمتقين، وإنما هو رجل اختطفته العناية من الأزل، ومن اقتدى بالمجذوب في سيره لم ينتفع بحال من الأحوال)).

ثم يوجه ﷺإلى كيفية معاملتهم فيقول في كتابه: ((مذكرة المرشدين)) ص ٦٤ :

((وإني ليسرني أن المسلم يعامل هؤلاء معاملة الأطفال الرضع، فيرحمهم، ويشفق عليهم إكراماً لله ورسوله، ولا يقتدى بهم، فإن اقتداءه بهم، يصير به هالكاً، لأن لهم مواجيد ومشاهد ملكوتية، ومكاشفات عن حضرة العزة والجبروت، بها سكروا، وإليها جُذبوا، وفيها فنوا، وعن سواها غابوا، فمن اقتدى بهم وقلّدهم – مع ما هو فيه من طمس البصيرة، وفساد السريرة، والحجاب عن مشاهد القدس – فقد هلك وأهلك غيره)).

فإن المجذوب الحقيقي، الصادق في حاله مع الله، لابد أن يرده الله إلى بشريته في أوقات الصلاة، حتى يؤديها، ولا يخرج عن الشريعة طرفة عين مع كمال جذبه، أما من يتخطى حواجز الشريعة، فقد يكون إنسان عنده خلل في قواه العقلية، فهو معتوه، ولا يمت إلى الجذب الحقيقي بصلة.

فالجذب هو تعلق القلوب بشدة بالحبيب المحبوب، ولما كان المقصد هو رضاء المحبوب، فكان أول شئ يفعله المجذوب، أن ينفذ ما طلبه منه علام الغيوب، في كلامه المكتوب، ومن لم يفعل ذلك فهو مغلوب أو معيوب، لا يجب على العقلاء إتباعه أو تقليده، ولو أخبرهم بصريح الغيوب.

- ومنهم من يتمسكون في إمامة الطريق بابن الشيخ ولو كان ليس مؤهلاً لهذا المقام، فقد اختلط عندهم أمر الوراثة الإلهية، بالوراثة الشرعية، فجعلوا الإبن الصلب، الذي ورّثته الشريعة ما خلّفه الأب من مقتنيات الدنيا، هو الذي يرث الأحوال الوهبية، والعلوم اللدنية، وغفلوا عن أن هذه وراثة الكتاب التي يصطفي الله ﷻ لها من يشاء من الأحباب، وإليها الإشارة بقوله سبحانه:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ فاطر

وفي ذلك يقول الإمام أبو العزائم ﷺفي كتابه: (مذكرة المرشدين) ص ٦٤:

((وبعض أهل الطريق – إذا مات المرشد، أو مات الشيخ المأذون بالطريق – يسلمون لأحد أولاده أو أقاربه، وهذا أمر حسن، لو أن من سلّموا له يكون على شئ من العلم والعمل والحال، واجتهد في تحصيل ما به كمال نفسه، ونفع غيره، وحافظ على الاقتداء بالمرشد محافظة حقيقية في القول والعمل والحال، أما إذا سلموا لابن المرشد، أو

أحد أقاربه، وكان صبياً لم يبلغ الحلم، أو كبيراً على غير استقامة، بعيداً عن معرفة الطريق وأهله، فإنهم بذلك يكونوا عرّضوا من اقتدوا به للهلاك، وأهلكوا أنفسهم، لأنهم بذلك يجعلوه يغتر بنفسه، ويتكبر على العلم، ويحتقر العلماء، ولا يزيده الإقبال عليه، إلا غروراً وبُعْداً عن الله، وكأنهم بذلك أساءوا إلى مرشدهم، فإنه جملهم بالعلم والعمل والحال، وهم لم يحسنوا إليه في أولاده وأهله، وكان الواجب عليهم، أن يجتهدوا في تربية ابن الأستاذ، أو من يكونوا من أهله، تربية حقيقية، علماً وتهذيباً وعملاً؛ حتى يكون لسان صدق لوالده، وارثاً لعلومه وأحواله.

وإني لأعجب من رجل لا يرضى أن يجعل الحصرم من العنب زبيباً، ويرضى أن يجعل الطفل الصغير، المؤهل للتربية والتهذيب والتعليم مرشداً عظيماً، ويظن أنه يحسن صنعاً ...، إلى أن قال رضي الله تعالى عنه: ... إن الله سبحانه وتعالى، حكم في كتابه العزيزفي ميراث الأرض خاصاً لمخصوصين، وحكم في ميراث السماء أنه فضله يؤتيه لمن يشاء، فحكم سبحانه تعالى في خير الدنيا بما هو واضح، وحكم في ميراث الأنبياء والمرسلين، والفضل العظيم، بأنه لمن يشاء:

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقد سار على هذا النهج الصوفية العظام:

كالشيخ منصور الباز البطائحي ﷺ، الذي آثر بالخلافة من بعده، ولد أخته سيدي أحمد الرفاعي ﷺ، مفضلاً إياه على ولده، رغم غضب زوجته من ذلك، ولكنه أثبت لها ولأتباعه، صدق فراسته، عندما أحضرهما معاً، وطلب من كل واحد منهما على حدة، أن يحضر حملاً من حشائش الأرض، فذهب ابنه وعاد بسرعة، بكم هائل ينوء بثقله، ليثبت مهارته وجدارته، وأبطأ سيدي أحمد الرفاعي، حتى أرسل الشيخ في استدعائه، فجاء وليس معه شئ ، فسأله الشيخ أمام الحشود المنتظرة، لم لم تُحضر ما طلبت منك ؟ ، فقال ﷺ: كلما هممت بقطع نبتة، سمعتها تذكر الله ﷻ ،

فأستحي من الله أن أقطعها، فأقام بذلك الحجة على صدق فراسة شيخه ﷺ.

وهذا الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ- مع كثرة ولده – يسلم الراية من بعده، لسيدي أبي العباس المرسي، وسيدي أبو العباس المرسي ﷺ- مع صلاح أبنائه – يعطي الخلافة من بعده، لسيدي ياقوت العرش ﷺ.

- ومنهم من يتمسك بأن مشيخة الطريق، لا تحق إلا لمن انتسب ظاهراً إلى الدوحة النبوية الطاهرة، وإن كان غير كفء للقيام بهذه المهمة، ويستندون في ذلك إلى الحديث الشريف الذي يقول: ((**أبقيت فيكم ثقلين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وأهل بيتي**)). وقد بيّن حقيقة ما يقصده سيدنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث رجل من أهل البيت الطاهرين هو الإمام أبو العزائم رضي الله عنه في كتابه (الفرقة الناجية) ص ٢١ فقال: بعد ذكر الحديث: ((والمراد بأهل البيت حملة العلم بالله سبحانه وتعالى، الذين كاشفهم الله تعالى بظاهر القرآن وباطنه، وحدّه ومطلعه، ممن جملهم الله بحقيقة النسب المحمدي الروحاني بدليل قوله ﷺ : ((**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْت**)) (رواه الطبراني والحاكم عن عمرو بن عوف)، وتبنّيه ﷺ زيداً رضي الله عنه، وقوله ﷺ : ((**أدخل الإسلام بلالاً في نسبي**)) (رواه النسائي وابن ماجة وأحمد والدرامي والحاكم عن أنس) فالمعّول في طريق القوم على الاتصال بالنسب الروحاني، والسر النوراني، فإذا تجمل المريد بصفات شيخه الروحانية من حبّ ووجد وصدق وورع وزهد واخبات وخشوع، وتوكل ورضا وتسليم وغيرها، تُفاض عليه الجمالات الوهبية، والكمالات المحمدية، والأنوار العرفانية، لثبوت نسبه الروحاني، واتصاله بأصله النوراني. وهذا هو النسب الذي يقول فيه ﷺ : ((**نحن معاشر الأنبياء، لا نوّرث درهماً ولا ديناراً، وإنما نوّرث علماً ونوراً**))، ولما كان العلماء ورثة الأنبياء، فالوراثة الحقيقية في هذه المعاني والكمالات الروحانية، لا

تكون لمجرد الأنساب الطينية، وإنما لاتصال الأرواح النورانية، والتشابه في الكمالات المحمدية، والانتظام في رحاب أهل المعية القرآنية، وممن ورث مقام القطبانية، ولم يكونوا من الدوحة النبوية الطاهرة بالنسب الظاهر، خلق كثير، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، سيدي أبو العباس المرسي الخزرجي الأنصاري، وسيدي ياقوت العرش الحبشي وسيدي أبو الحسن البكري الصديقي وغيرهم كثير.

- ومنهم الذين يوهمون الناس، أنهم وصلوا إلى مقامات المعرفة، ويأمرونهم بإتباعهم، ويؤثّرون عليهم تأثيراً بليغاً، حتى يتصرفون فيهم كما يحلوا لهم، وذلك لسلب أموالهم.
- ومنهم الذين يشربون المسكرات بحجة هداية العاصين.
- ومنهم الذين يجمعون بين النساء والرجال في مكان واحد.
- ومنهم الذين يطلبون من مريديهم التسليم للشيخ على أي حال كان، وفيهم يقول الإمام أبو العزائم ﷺ في كتابه (دستور السالكين) ص ٦٠: ((بعض من لا بصيرة لهم في الدين، ومن لم يسبق لهم تحصيل العلم، يقتدون ببعض أدعياء الطريق، فيُدخلون في قلوبهم أن التسليم للشيخ – مهما كان وعلى أي حال كان – خير، ولا يصل السالك إلى الله إلا بالتسليم للشيخ، ثم يعملون أمام المريدين صريح الحرام، أو يقولون صريح الكفر، ويأمرون بترك الفرض والسنة، وينهون عن الأعمال الشرعية، فيسلم لهم أهل الجهالة تسليم الأعمى، لاعتقادهم أنهم أهل الحقيقة، وأنهم ارتقوا عن الشريعة، ويضربون مثلاً يدل على كمال جهالتهم فيقولون: ((إن كان شيخك حمار امسك ذيله)) مبالغة في التسليم الأعمى، وكم من فئة من الناس استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله)).

نصيحة صادقة

إخواني أهل الطريق...

كيف يسلم السالك، طالب النجاة من هول يوم القيامة، بصحبة من يهلكه بمخالفة سنة رسول الله ﷺ ؟

إن هذا ليس بتسليم، وإنما جهل بالحق، وحظ جلي لا خفي، وللتسليم مقدار مخصوص، فإن خالف المرشد ما كان عليه رسول الله ﷺ ، وقف المريد عن الاقتداء به، حتى يستبين له الحق فيه، أو يسأله عن مأخذه من كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى:

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ القيامة

والعاقل لا يقلد إلا من بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً، مبيناً لنا محاب الله ومراضيه، والمرشد يبين لنا ما خفي من بيان رسول الله ﷺ ، وما كان عليه الأئمة الهداة من الصحابة والتابعين.

وانظروا إلى هذا الإمام الصادق، أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه: عندما سأل تلاميذه قائلاً: من أنا؟ قالوا: أنت أبو يزيد.

قال: أنا مُحَمَّد رسول الله، يعني لا تنظروا إلي بعين العصمة، ولكن انظروا إلي بعين البصيرة، فإن كنت على ما كان عليه رسول الله ﷺ فاصحبوني، وإن خالفت رسول الله فقوموني.

هذا أساس الطريق، فإن الحق فوق الخلق، فاقبلوا الحق ولو من الغريب البعيد، البغيض الدنئ، ولا تقبلوا الباطل، ولو من الولي العالم الورع الزاهد.

وأهل السلوك يعرفون الرجال بالحق، ولا يعرفون الحق بالرجال.

إخواني أهل الطريق، كان الرجل من أهل الطريق، يمشي فيجتمع الناس عليه، فيردّهم الناس عنه بالسياط، فلا يرتدون، ويمر بعده أمير المؤمنين، والجند يضربون الناس بالسياط، ليجتمعوا عليه، فلا يجتمعون.

كان أمير المؤمنين يزور أهل الطريق في بيوتهم، فيسمع منهم القوارص من الوعظ حتى يبكي، وفي زيارة أمير المؤمنين هارون لفضيل، وما واجه به ابن جريج أبا جعفر المنصور، وما كتبه بعض الصحابة لأمير المؤمنين عمر، كل هذا دليل على أن أهل الطريق، كانوا أئمة للأمراء، وسادة للخلفاء، لأنهم خافوا الله، فأخاف منهم كل شئ، وأقبلوا على الله، فأقبل بقلوب الخلق عليهم، وجمّلوا سرائرهم لله، فجمل الله علانيتهم لعباده. أنتم تسمعون من أسرارهم، وكراماتهم، ما دونه أهل التاريخ عنهم، خصوصاً من ترجموا لأهل الطريق، واعتنوا بآثارهم، كانوا إذا جلسوا في مجلس، لاحت أنوار الحكمة، وظهرت أسرار المعرفة، وامتلأت القلوب إيماناً، وذُكر الله لرؤيتهم، وكره الناس الدنيا وما فيها، ورغبوا في الآخرة وما فيها.

وكم أسلم يهودي ونصراني ومجوسي عند سماع عباراتهم، وعلم أحوالهم، وبيان أخبارهم.....هكذا كان الطريق، وكان أهل الطريق، حتى بلغ من التعظيم لهم في القلوب، أن الناس كانوا إذا أقسموا يقولون: وحياة أهل الطريق.

وقد أشار إلى ذلك الإمام الشعراني ﷺ في كتابه (الأنوار القدسية) فقال:

((وقد أدركنا بحمد الله جملة من أشياخ الطريق أول هذا القرن وكانوا على قدم عظيم في العبادة، والنسك، والورع، والخشية، وكفّ الجوارح الظاهرة والباطنة عن الآثام، حتى لا تجد أحدهم قط يعمل شيئاً يكتبه كاتب الشمال، وكان للطريق حرمة وهيبة، وكان الأمراء والملوك

يتبركون بأهلها، ويقبّلون بطون أقدامهم، لما يشهدونه من صفاتهم الحسنة. ، وقد رأيت بعيني السلطان الغوري، وهو يقبّل يد سيدي محمد بن عنان، ورأيت السلطان طومان باي الذي تولى بعده يقبّل بطن رجله، وطلعت مرة مع سيدي الشيخ أبي الحسن الغمري للسلطان الغوري في شفاعة، فقام للشيخ وعضده من تحت إبطه وقال: يا سيدي عززتني في هذا النهار، فأنا ومملكتي كلها لا نفي حق طريقك)).

إخواني أهل الطريق....

اعلموا أن المزاحمة والمنافسة إنما تكون في الفرار من الدنيا إلى الآخرة، وفي التخلي عن الرزائل النفسانية، للتجمل بالفضائل الروحانية، في عمل الخير النافع لجميع الإخوان، وفي السبق في عمل القربات، والمسارعة إلى المنافسة في رفعة الدرجات عند الله، لا عند الخلق، وفي إحتقار نفسه ليعظمه الله، وفي الرضا بالفقر ليغنيه الله، وفي التواضع لعباد الله ليرفعه الله، وفي بغض الشهرة والسمعة والرياسة خوفاً من القطيعة عن الله، وفي إعتقاد أن الدار الدنيا فانية زائلة، في ذلك تكون المنافسة والمزاحمة، ينافس في ذلك أهل الله الصالحون، وأحباب الله المقربون [الآية (٢٦) سورة المطففين] :

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ،

وليست المنافسة والمزاحمة في جمع ما يفني من المال، وما لا ينفع من الشهرة والسيادة، وما لا يدوم من ملاذ المأكل والمشرب والمنكح والملبس والمسكن.

إن الطريق المستقيم يا إخواني:

واحد لا يتعدد، وإن تعددت أنواع السير عليه، سرعة وبطء، وتأنّياً وإقبالاً .... والسالكون عليه وإن تفاوتت هممهم، وتنوعت عزائمهم، إلا إنهم لا خلاف بينهم، لأنهم

كلهم على اعتقاد واحد، ورأي واحد ومذهب واحد، سارعوا إلى وجهة واحدة، وتعاونوا على مقصد واحد، وتنافسوا في مراد واحد.، إنما الخلاف بينهم :

- أن هذا على الطريق الحق إلا أنه توسط وعمل بالقلب والجسم في حالة وسط.
- وأخوه معه على الطريق الحق، إلا أنه عمل الواجب البدني، ووقف عنده، وزاد في عمل القلوب على الواجب القلبي.
- والآخر على الطريق الحق، إلا أنه يجاهد نفسه ليتخلى.
- وأخوه معه إلا أنه ينافس ليتحلى.
- والكل في حيطة واحدة، وهي المدينة التي أشار إليها ﷺ بقوله(متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير):

{ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }

واسمعوا يا إخواني أهل الطريق إلى هذه النصيحة من الإمام أبي العزائم ، والتي ذكرها في كتابه (مذكرة المرشدين) ص ١٠٨ :

((يا أيها العلماء والمرشدون، والخلفاء عن الطريق، وأبناء الأشراف، وورثة أهل العلم بالله والفضل، أنتم الأنجم في أفق العامة، فإذا هوت تلك الأنجم، كيف تكون حالة الناس، وإذا كُسفت تلك الكواكب، فبم يهتدي الناس؟

هلا اقتديتم بسلفكم الصالح، فزكيتم أنفسكم، وجاهدتموها، حتى أطاعتكم فملكتموها قبل أن تملككم، فكنتم بدور هدى كما كان سلفكم،

وأنجم دلالات كما كان أبائكم، ومشايخكم، ومن سبقكم وأئمة للمتقين من أهل عصركم وذريتكم.

يا خلفاء الطريق: .... أنتم تسيرون مع من معكم إلى أين؟ وتعملون لمن؟ ....، فإن قلتم نحن سائرون إلى الله، ونعمل لله، أقول لكم: يا إخواني، الطريق الذي سلك عليه السائرون إلى الله، معلوم لا يُجهل، معروف لا يُنكر، فهل عليه سلكتم؟ وعلى جادته نهجتم؟ ومن الميل عنه تحصنتم؟ إن كان ذلك، فلم الإختلاف بينكم؟ ولم الشغل في المنافسة فيما لا ينفع؟ .... عجباً لكم !! .... لو أنكم على الطريق المستقيم، والنهج القويم سرتم، وبحصون آمنة تحصنّتم، لنزع الله ما في صدوركم من غلّ، ولأشهدكم من جمال آياته، وعجائب قدرته، وغرائب حكمته، ما به تبتهج أنفسكم، فتسكن إلى الله، وتطمئن قلوبكم فتحب الله، وتلين أعضاءكم لطاعة الله)).

ولله در الإمام أبو العزائم ﷺ إذ يقول:

ما اختلاف الطريق والقصد واحد
والصراط السوي للمتـــــواجد
ذا لأن النفوس مختلفـــــــات
كل نفس لها سبــــــيل وشاهد
واختلاف الطريق في السير ينبي
باختلاف النفوس بل والمــوارد
والمراد المحبوب أفرد بالقصد
علياً هو الإله الواحـــــــــد

والنفوس المرضي تسير الهوينى
للأيادي أو للعطا والموائـــــد
أو لأجر تسعى ونيل حظـــوظ
في جنان النعيم بين الولائــــد
بين باك من خوف نـــار وراج
جنة الخلد في عناء يجـــاهد
بين ورع فيما يزول لقصـــــد
فوزه بالقبول تهجد عـــــابد
ذاك سر التفريق والوجه قصدي
من ألست وطالب الغير جاحد
أفرد المجتبون وجهاً عليـــاً
باليقين القوي محو العوائـــد
شاهدوا باليقين في الكون نوراً
كان بدءاً يراه كل شاهـــــد
لم تعقهم عناصر وحـــــدود
كل فرد لله بالله عائـــــــد
قصدهم واحد إليه أنابـــوا
بل له أســـلموا بقلب واحد

البَابُ الثَّانى

أدب المُرادِين والمُرِيدين

أدب الشيخ

أدب السالك في نفسه

أدب السـالك مع شيخه

أدب السـالك مع أخوانه

حافظ على الأدب ولو رقيت إلى أعلى الرتب

الباب الثانى

أدب المُرادِين والمُرِيدين

للأدب عند الصوفية شأن كبير، فقد اعتبروه الأساس الأول في سيرهم وسلوكهم إلى الله ﷻ ، ولذلك قالوا:

((الزم الأدب، وإلا فانتظر العطب))

وقالوا :

((حافظ على الأدب، ولو رقيت إلى أعلى الرتب))

وعللوا ذلك :

بأن صحة الظواهر، تدل على صحة البواطن، فما استُودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر، فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن، فأسّرة الوجه تدل على السريرة، وما فيك يظهر على فيك، وكل إناء بالذي فيه يرشح، وما خامر القلوب، فعلى الوجوه أثره يلوح، فتهذيب الجوارح يدل على تهذيب القلوب، وآداب الظاهر، يدل على آداب الباطن.

حُكي أن الجنيد دخل على أبي حفص النيسابوري، فرأى أصحابه واقفين عند رأسه، كأصحاب الملك. فقال الجنيد: أدّبت أصحابك يا أبا حفص أدب الملوك؟

فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

ولذلك قيل:

من يُحرم سلطان الأدب، فهو بعيد ما تدانا وأقترب.

وقيل:

من تحبسه الأنساب، فإنما تُطلقه الآداب.

وقال أبو حفص ﷺ:

التصوف كله أدب، ولكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب.

فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، مردود من حيث يظن القبول.

وقال ابن عطاء الله:

((من جهل المريد أن يسئ الأدب، فتُؤخَّر العقوبة عنه، فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد، وأوجب البعاد، فقد يُقطع المدد عنه من حيث لا يدري، ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد يُقام مقام البعد من حيث لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يخلّيه وما يريد)).

فإن القوم ما سادوا، وما شرفوا إلا بالآداب مع الله، ومع رسوله ﷺ ومع أشياخهم ومع سائر المسلمون.

فالأدب مع الله بامتثال أمره، واجتناب نهيه، والاستسلام لقهره.

وقال فيه الشيخ زروق ﷺ في شرح الحكم: هو حفظ الحدود، والوفاء بالعهود، والنطق بالملك الودود، والرضى بالموجود، وبذل الطاقة والمجهود.

والأدب مع رسول الله ﷺ باتباع سنته، وإيثار صحبته، والاهتداء بهديه، والتخلق بأخلاقه، والأدب مع الأشياخ، بحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، وصدق المحبة.

والأدب مع المسلمين، بأن تحب لهم ما تحب لنفسك، أو أكثر.

وآداب الأوقات : تعميرها بالطاعات.

فأوقات العبد أربعة كما قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ:

((وقت الطاعة، ووقت المعصية، ووقت النعمة، ووقت البلية، فوقت الطاعة مقتضى الحق منك شهود المنة، ووقت المعصية مقتضى الحق منك تحقيق التوبة، ووقت النعمة مقتضى الحق منك الشكر، ووقت البلية مقتضى الحق منك الصبر.))

فإذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام، والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام وسنذكر بفضل الله ﷻ نبذة مختصرة من آداب القوم، مما لاغنى لسالك طريق القوم عنه فمنها:

أدب الشيخ

لما كانت أهم وظيفة المشايخ.....

حفظ اجتماع البواطن، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا، وبرابطة التأليف الإلهي اتفقوا، وبمشاهدة القلوب تواطئوا، ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب رابطوا، كان لابد لهم من التأليف، والتودّد، والنصح لقوله ﷺ (المستدرك للحاكم عن أبي هريرة ﷺ) :

{ إِنَّ الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ }

فيكلم المريدين كلام الناصح المشفق الوالد لولده، بما ينفعه في دينه ودنياه، وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه، يراجع الله تعالى في معناه، ويكثر اللّجأ إليه أن يتولاه فيه، وفي القول معه، ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله، مستعين به في الهداية للصواب من القول.

يقول الشيخ أبو النجيب السهروردي مُوصياً بعض أصحابه:

((لا تكلم أحداً من الفقراء إلا في أصفى أوقاتك))

ويقول في ذلك الشيخ عبد العزيز الدباغ ﷺ في كتابه ((الأبريز)) ص ٣٩٠:

((إن الولي الكامل غائب في مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، لا يُحْجب عنه طرفة عين، وظاهره مع الخلق، فيستعمل الحق سبحانه ظاهره مع القاصدين بحسب ما سبق لهم في القسمة، فمن قُسم له منه رحمة أطلق عليه ذلك الظاهر وأنطقه بالعلوم، وأظهر له ما لا يكيف من الخيرات، ومن أراد به سوءاً ولم يُقسم له على يده شيئاً، أمسكه عنه، وحجبه عن النطق بالمعارف.))

ثم قال رضي الله عنه:

((وما مّثلت الولي مع القاصدين، إلا كحجر بني إسرائيل، فإذا كان بين يدي أولياء الله تعالى، انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وإذا كان بين أعدائه تعالى، لا تخرج منه ولا قطرة واحدة.))

وكان الشيخ أبو السعود رضي الله عنه يكلم أصحابه بما يُلقى إليه، ويقول:

أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين، وقال: إذا كان القائل يعلم ما يقول، فكيف يكون مستمعاً ؟!

فرجع إلى منزله، فرأى في ليلته في المنام كأن قائلاً يقول له: أليس الغواص يغوص في البحر لطلب الدُّر، ويرجع بالصدف في مخلاته، والدُّر قد حصل معه، ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر، ويشاركه في رؤية الدُّرّ مَنْ هو على الساحل ففهم في المنام إشارة الشيخ في ذلك.

ومن أدب الشيخ: أن يكون له خلوة خاصة، ووقت خاص، لا يسعه فيه معاناة الخلق، حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته، ولا تدّعي نفسه قوة، ظنّاً منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره، ولا يأخذ منه، وأنه غير محتاج إلى الخلوة فإن رسول الله ﷺ مع كمال حاله، كان له قيام الليل، وصلوات يصليها ويداوم عليها، وأوقات يخلو فيها.

كان الجنيد رضي الله عنه يقول لأصحابه:

((لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوسي معكم ما جلست عندكم)).

فإذا رأى الفضل في الخلوة يخلو، وإذا رأى الفضل في الجلوة يجلس مع الأصحاب، فتكون جلوته في حماية خلوته، وجلوته مزيداً لخلوته.

ومن وظيفة الشيخ:

حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ، واستعماله التواضع.

ومن آداب الشيوخ: النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم.

ومن أداب الشيوخ: التعطف على الأصحاب، وقضاء حقوقهم في الصحة والمرض، ولا يترك حقوقهم إعتماداً على إرادتهم وصدقهم.

ومن آداب الشيوخ: أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفاً في مراغمة النفس وقهرها، واعتماد صدق العزيمة، أن يرفقوا به، ويوقفوه على حد الرخصة ففي ذلك خير كثير.

ومن آداب الشيوخ: التنزه عن مال المريد وخدمته، والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه، لأنه جاء لله تعالى فيجعل نفعه وإرشاده خالصاً لوجه الله تعالى.

ومن آداب الشيخ: إذا رأى من بعض المريدين مكروهاً، أو علم من حاله اعوجاجاً، أو أحسّ منه بدعوى، أو رأى أنه داخله عُجْب، أن لا يصرح له بالمكروه، بل يتكلم مع الأصحاب، ويشير إلى المكروه الذي يعلم، ويكشف عن وجه المّذمة مجملاً، فتحصل بذلك الفائدة للكل، فهذا أقرب إلى المداراة، وأكثر أثراً لتألف القلوب، وإذا رأى من المريد تقصيراً في خدمة ندبه إليها، يحمل تقصيره، ويعفو عنه، ويُحرضّه على الخدمة بالرفق واللين.

ومن جملة مهام الآداب:

حفظ أسرار المريدين فيما يُكاشفون ويُمنحون من أنواع المنح، فسر المريد لا يتجاوز ربه وشيخه، ثم لا يُحقّر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب، أو شئ من خوارق العادات، ويعرفه أن الوقوف مع شئ من هذا يشغل عن الله تعالى.

ومن صدق عبودية الشيخ لربه:

أن يتبرى من حوله وقوته، وعلمه، وعمله، وحاله.

فيقول كما قال الإمام أبو العزائم رضي الله عنه:

علمت نفسي أني كنت لا شئ ... فصرت لا شئ في نفسي وفي كُلّي

به تنزّه صرت الآن موجودا ... به وجودي وإمدادي به حولي

ومن أنا عدم الله جملني ... فصرت صورته العليا بلا نيل

ويكون كما قال رضي الله عنه:

وإذا دعاهم أن يدّلوا غيرهم ... قاموا بحول منه لا بفخار

يدعون والرهبوت ملء قلوبهم ... بالهدى هدى المصطفى المختار

وقد قال أبو يعقوب النهرجورى ﷺ:

((من علامة من تولاه الله في أحواله، أن يشاهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مشاهدته، وقلة المراعاة في فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية، ويزداد فقراً إلى الله ﷻ في قصده وسيره)).

وقال أبو عمر إسماعيل بن نجيد ﷺ:

((لا يصفو لأحد قدم في العبودية، حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء، وأحواله كلها دعاوي، فالنفس مجبولة على ضد الخير، لو لا فضل الله علينا ورحمته، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ ٢١ النور، وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [٥٣ يوسف].

وقال بعض السادات ﷺ:

((ما هناك إلا فضله، ولا نعيش إلا في ستره، ولو كُشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم، فلذا تبرّأ الأكابر من أعمالهم الصحيحة فضلاً عن غيرها)).، حتى قال أبو يزيد ﷺ:

((لو صفت لي تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشئ)).

وعن هذا الشيخ الذي تخلق بما ذكرناه يقول سيدي علي الخواص ﷺ:

((علامة الشيخ الذي يجب الأدب معه أن يكون عارفاً بالكتاب والسنة، قائلاً بهما في ظاهره، متحققاً بهما في سره، يراعي حدود الله،

ويوفّي بعهد الله، لا يتأول في الورع، بل يأخذ بالاحتياط في سائر أحواله، يشفق على جميع الأمة، لا يمقت أحداً من العصاة، بل يتلطف به، ويدعوه إلى الخير برحمة ورفق، جوده مطلق على البرّ والفاجر، والشاكر والجاحد، كأن جميع الخلق عائلته)).

أدب السالك في نفسه

الأدب تهذيب الظاهر والباطن، فإذا تهذّب ظاهر العبد وباطنه صار صوفياً أديباً، ولا يتكامل الأدب في العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق ولذلك قال عليه أفضل الصلاة وأتم التسليمات (مرقاة المفاتيح):

{ حَسِّنُوا أخْلاقَكُم }

فإذا تزكّت النفس، تدبرت بالعقل، واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة، وتهذّبت الأخلاق، وتكونت الآداب، ولأهمية الأدب في طريق القوم عبّر عنه كبار الصوفية، بعبارات تستولى على الألباب فقال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: أدب الخدمة، أعز من الخدمة.

وقال الجنيد رضي الله عنه:

من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه، لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب.

وقال أبو علي الدقاق رضي الله عنه:

العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى.

وقال بعضهم:

إلزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحد الأدب ظاهراً إلا عوقب ظاهراً، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال عبد الله بن المبارك:

من تهاون بالأدب، عُوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عُوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة.

وقال أنس بن مالك ﷺ:

الأدب في العمل علامة قبول العمل.

وقال أبو علي الدقاق ﷺ:

ترك الأدب موجب للطرد، فمن أساء الأدب على البساط، رُدّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رُدّ إلى سياسة الدواب.

وقال أبو نصر السّراج ﷺ:

أدب أهل الخصوصية من أهل الدين في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض، والبوادي والعوائق، واستواء السر والعلانية، وحسن الأدب في مواقف الطلب، ومقامات القرب، وأوقات الحضور، والأدب أدبان: أدب قول، وأدب فعل؛ فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعل، منحه محبة القلوب.

وقال النوري ﷺ:

من لم يتأدّب للوقت فوقته مقت.

ولما كانت جميع آداب المريد يعسر حصرها وضبطها في عبارة على وجه التفصيل، فنكتفي بذكر طرف صالح منها، فمن ذلك:

١- الصدق في طلبه للطريق، ومحبته للشيخ، والاكثار من زيارته، لما فيها من زيادة فيض الإمداد، واكتساب الأوصاف المحمودة، والتخلص من الأوصاف المذمومة، مع اقتباس العلم والحال، وفي ذلك من الخير ما لا يعلمه إلا الله ومحّك الصدق في محبة الشيخ أن لا يصرفه عنه صارف، ولا تردّه السيوف والمتالف.

٢- زيارة الإخوان في الله تعالى، لأنها قربة عظيمة، ومنقبة جسيمة، وهي من أفضل السياحة وقد قال ﷺ فيما يرويه الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم، والقضاعي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ»

٣- طلب العلم النافع الذي يقول فيه ﷺ (عَنْ أَنَسٍ سنن ابن ماجة) :

{ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ }

والمراد بالعلم في الحديث العلم بذات الله وصفاته، وأحكامه، وعلوم القرآن، والحديث الشريف، وسير الأنبياء والمرسلين، وحكايات الصالحين وما شابه ذلك.

٤- ردّ المظالم إلى أهلها، والتحلل من حقوق العباد بالكلية؛ كلما أمكن ذلك سواء في العرض أو المال.

٥- التوبة من سائر الذنوب الظاهرة والباطنة، كالغيبة، وشرب الخمر، والحسد، ونحو ذلك.

ويتدرج في ذلك التوبة عن الكبائر، ثم الصغائر، ثم المكروهات، ثم من خلاف الأولى، ثم من رؤية الحسنات حتى يتوب من رؤية أنه صار معدوداً من الفقرا.

٦- ملازمة الجهاد لنفسه، فقد قال الشيخ أبو علي الدقاق ﷺ:

((من زيّن ظاهره بالمجاهدة، زيّن الله باطنه بالمشاهدة، ومَن لم يجاهد نفسه في بدايته لا يشم من الطريق رائحة)).

وكان أبو عثمان المغربي ﷺ يقول:

((من ظن أنه يفتح عليه بشئ من هذه الطريق بغير مجاهدة !!!!!! ، فقد رام المحال)).

٧- الأخذ بأركان الطريق الأربعة: الجوع، والعزلة، والسهر، وقلة الكلام.

٨- مخالفة هوى النفس، فلا يوافقها قط فيما تهواه، لأن رأس مال المريد مخالفة النفس، قال أبو حفص ﷺ: ((من لم يتهم نفسه على دوام الحالات، ولم يخالفها في جميع شهواتها، ولم يجرّها إلى مكروهها في سائر الأوقات، فهو معذور في سائر الحالات)) وقال الإمام البوصيري ﷺ:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محّضاك النصح فاتّهما

٩- أن لا يكون له إلا شيخ واحد، لأن مبنى طريق القوم على التوحيد الخالص، وقد كان أبو يزيد البسطامي ﷺ يقول:

((من لم يكن له أستاذ واحد، فهو مشرك في الطريق، والمشرك شيخه الشيطان)) .

وقال الشيخ محي الدين بن عربي في الباب الأحد والثمانين ومائة من الفتوحات المكية:

((اعلم أنه لا يجوز لمريد أن يتّخذ له إلا شيخاً واحداً، لأن ذلك أعون له في الطريق، وما رأينا مريداً قط أفلح على يد شيخين، فكما أنه لم يكن وجود العالم بين إلهين، ولا المكلف بين رسولين، ولا امرأة بين زوجين، فكذلك المريد لا يكون بين شيخين، هذا كله في مريد تقيد بشيخ بقصد سلوكه الطريق، وأمّا من لم يتقيد فهو متبرك بالشيخ فقط، فمثل ذلك لا يُمنع من الاجتماع بأحد)).

١٠- حذف العلائق الدنيوية، فإن من كان له علاقة دنيوية فقلّ أن يُفلح، ومن هنا قالوا: ((من شرط التائب بُعْده عن إخوان السوء، الذين كانوا أصحابه في المعاصي قبل أن يتوب منها، لأن القرب منهم ربما جرّه إلى الرجوع إلى فعل ما كان تاب منه)).

١١- ومن شأنه أن يُوطّن نفسه على تحمل الشدائد في الطريق، وألا ينصرف عنها، إذا أصابته الأسقام والآلام، والفاقات والبلايا المتلاحقة، بل يثبت على الطريق بالحق، ولا يتزلزل بالمحن فيها.

١٢- ومن شأنه عمله على تنظيف باطنه وظاهره عن الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله ﷻ كالغضب، وعز النفس والكبر والعجب والحسد ونحو ذلك، وكذلك مكابدة خواطره، ومعالجة أخلاقه، ونفي الغفلة عن قلبه بمداومة ذكر الله ﷻ .

١٣- ومن شأنه أن يغض بصره عن رؤية الصور المستحسنة ما أمكن، فإن النظر إليها كالسهم الذي يصيبه في قلبه فيقتله، لا سيما إن نظر بشهوة، فإنه كالسهم المسموم الذي يذيب جسم الإنسان في لمحة. وكان أبو القاسم القشيري ﷺ يقول:

((من أكبر القواطع على المريد، مصاحبة الأحداث والنّسوان، والمساكنة إليهم بميل القلب، ومن ابتلاه الله بشئ من ذلك، فبإجماع

القوم: ذلك عبد أهانه الله وخذله، بل عن مصالح نفسه شغله، ولو بألف ألف كرامة أهّله، ولو لم يكن إلا أنه شغل قلبه بمخلوق، فأدخل فيه الشيطان، وحرم محبة الحق قلبه، وأقبح من ذلك كله، تهوين مثل ذلك على القلب)).

وقد قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني ﷺ في كتابه: ((الأنوار القدسية)) ص ٥١: ((وقد صنّف سيدي مُحَمَّد الغمري كتاباً سماه ((العنوان في تحريم معاشرة الشباب والنسوان)) وحطّ فيه على المطاوعة، أشد الحطّ، وكذلك على الفقراء الأحمدية، الذين يأخذون العهد على النّسوان، ويصير أحدهم يختلي بهن في غيبة أزواجهن، وتقول له: يا أبي، ويقول لها: يا بنتي، وقال: إن ذلك خارج عن قواعد الشريعة، وإن من استحل ذلك أخطأ، واستدل بقوله تعالى للصحابة، في حق زوجات النبي ﷺ [الآية (٥٣) سورة الأحزاب].:

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾

وقال: كيف يدعي جاهل وجاهلة، ونفوسهما عافة على محبة الحرام كالذباب على العسل، أن مثل ذلك لا يضر)).

١٤- ومن شأنه أن لا يقنع بحكايات أهل الطريق، دون منازلة مقاماتهم، ويصير يحكي المقامات حتى كأنه نزلها، فإن ذلك من أكبر القواطع على المريد، وهو من النفاق والخيانة في الطريق.

فإن من يحفظ كلام القوم مثل رسالة القشيري، أو عوارف العوارف، أو كلام الشيخ محي الدين بن عربي، عن ظهر قلب، فهو صاحب علم؛ لا صاحب سلوك، فلا

يُفتح على يديه لأحد، إذا تصدّر للمشيخة، وهذا الأمر قد وقع فيه جماعة كثيرة من أهل عصرنا، فالتبس على غالب الناس أمرهم، وعدّوهم من أهل الطريق، لجهل الناس بمراتب أهل الطريق.

١٥- ومن شأنه أن لا يتصدر لإلقاء الدرس في علم الظاهر والباطن، حتى يشهد له شيخه بالإخلاص فيه، وكذلك لا يجعل له مريدين؛ لأن كل مريدتصدر لإلقاء درس، أو لتعليم الطريق، قبل خمود نار بشريته، والإذن له من شيخه، فقد قُطع به وضلّ وأضلّ، وحُجبت عنه الحقائق، وعُدم الخلق الانتفاع به. وذلك لأن محبة الجاه والصيت الحسن قد أضلته، فصارت مرآة قلبه منطمسة النور، فلا يعرف الحق من الباطل، ولا يدرك أحوال الطريق بذاتها.

١٦- ومن شأنه أن يحافظ على آداب الشريعة، والمشي على ظاهرها ما أمكن، فإن الترقي كله في امتثال أمر الشارِع، كما يجب عليه أن لا يدع الشريعة تعترض عليه في شئ من أحواله.

١٧- ومن شأنه مجاهدة نفسه دائماً في ترك الشهوات، فقد قالوا: من وافق شهوته عُدم صفوته، وقد أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام:

((يا داود .... حذّر وأنذر قومك أكل الشهوات، فإن قلوب أهل الشهوات، عنّي محجوبة)).

١٨- ومن شأنه أن يكون قصير الأمل، وذلك حتى يجدّ في الطاعات، ويجتنب المخالفات، فإن من كان طويل الأمل لازَمه التسويف بالخيرات، والوقوع في المخالفات، وتقول له نفسه: إذا قرب أجلك فتب إلى الله تعالى من جميع المخالفات السابقة فتكون كأنك لم تذنب قط، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له !؟

وهذا من أكبر خداع النفس، والواقع فيه أكثر من الكثير. ومن هنا قالوا: إن الصوفي ابن وقته، لا نظر له إلى ماض، ولا آت.

١٩- ومن شأنه التباعد عن مجالسة أبناء الدنيا، لكثرة غفلتهم عن الله تعالى، واشتغالهم بأمور الدنيا من مطعم وملبس ومنكح وغير ذلك، فيسرق طبع المريد منهم محبة العلائق الدنيوية، والمريد إنما همه في حذف العلائق، ولذلك كانت مجالستهم للمريد سمّ قاتل.

٢٠- ومن شأنه التباعد عن فعل أي شئ يميت قلبه ككثرة اللغو والغفلة، فإن ذلك مجرب لموت القلب، وليس عمل الصوفي إلا بتحصيل ما به حياة قلبه.

٢١- ومن شأنه أن يكون لهجاً بذكر الله ﷻ في سائر أوقاته، ولا ينثني عن ذلك حتى يحصل له الحضور الدائم مع الله، فهناك يستغني عن ذكر اللسان بالشهود القلبي، وما دام لم يحصل له الحضور الدائم، فهو مأمور بذكر اللسان.

٢٢- ومن شأنه اتباع الشرع في سنن الفطرة كنتف الابط وحلق العانة، واتخاذ المشط والسواك والخلال، وكل شئ ندب الشارع إليه فتهيئة أسبابه من السنة.

٢٣- ومن شأنه أن يحذر كل الحذر من الاهتمام بظهور شأنه، وانتشار صيته في البلاد مثل ما انتشر صيت شيخه مثلاً، فقد قال سيدي علي وفا رضي الله عنه: ((يا مريد الله لا تهتم بإظهار شأنك، اهتماماً يحملك على الاستعانة بالخلق، فإنك إن كنت على نور وحق، فسوف يظهرك الله، وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً، وإن كنت على ظلمة وباطل، فلا تتسبب في إظهار شأنك، وإشاعة صلاحك، فإنك لا تتمتع بذلك – إن تمتعت به – إلا قليلاً، ثم الله أشد بأساً، وأشد تنكيلاً)).

٢٤- ومن شأنه أن يكون دائم الإيثار لأصحابه، في سائر الشهوات على نفسه، وقد أجمع الأكابر على أن المريد إذا كان شأنه الإيثار واحتمال الأذى، فلابد من

رفعته على جميع أقرانه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وإما فيهما معاً، وكان سيدي علي وفا رضي الله يقول:

((لا يسود أحد على أقرانه، إلا أن آثرهم على نفسه، ولم يشاركهم في شئ مما استشرفت إليه نفوسهم)).

٢٥- ومن شأنه التباعد عن كل من لا يراه يعمل بعلمه، لئلا يسرق طباعه فيهلك مثله، فإن جليس السوء أضر على جليسه من إبليس، فإن إبليس إذا وسوس للمؤمن، عرف المؤمن أنه عدو مضل مبين، أما إخوان السوء فإنهم يلبسون الحق بالباطل، على وفق أغراضهم وأهوائهم، ولذلك قالوا: ستون من مردة الشياطين، لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة. وقد قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني ﷺ في (الأنوار القدسية) ص ٦٥: ((وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي، إذا خرج من زاويته مريد ليتعلم في الجامع الأزهر يقول له: إذا دخلت الجامع فاسأل عن علمائه، فكل من مدحه الناس بالورع والزهد، وقلة التردد إلى الأكابر فاقرأ عليه، وإياك أن تقرأ على من لا يتورع في مأكله أو ملبسه، فإنك تصير مثله على طول، وإذا تعلمت العلم فاطلب طريق العمل به على يد الصوفية، فإنهم يقربون عليك الطريق، وإذا قال لك فقيه بعد ذلك: ماذا استفدته بعدنا من صحبتك للصوفية؟ ..، فقل له: استفدت منهم حسن العمل بما تعلمته منكم)).

ثم عقّب الشعراني ﷺ على ذلك قائلاً:

((فلو أن الفقهاء عادة يعتنون بالعمل بعلمهم، كما يعتني به الصوفية، لكانوا هم الصوفية، ولم يحوجوا طالباً إلى غيرهم، كما كان عليه السلف الصالح من العلماء، فإن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير، وكان الشافعي رحمه الله مع جلالته يجالس الصوفية، فقيل له: ماذا استفدت من مجالسة هؤلاء؟ فقال:

استفدت منهم شيئين، قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: إن لم تشغل نفسك بالخير، شغلتك بالشر.

وكذلك كان الإمام أحمد رحمه الله يجالس أبا حمزة البغدادي الصوفي، وكان إذا أُشكل عليه شئ يقول: ما تقول في هذا يا صوفي، وكفى بذلك منقبة للقوم، فلولا أن عندهم مزيد خصوصية، ما احتاج إليهم مثل الإمام أحمد)).

٢٦- ومن شأنه أن يكون مجتهداً في طاعة ربه لا سيما أول بدايته، فإنهم قالوا: من لم يكن مجتهداً في بدايته، لا يُفلح في نهايته، وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: ((لابد للمريد من المجاهدة مع الإخلاص، فإنه إذا صدق في معاملة الله تعالى في السرائر، جعله على الأسّرة والحظائر)) وكان يقول أيضاً: ((يجب على المريد الضعيف الحال، أن يأخذ من العلم ما يجب عليه لتأدية فرضه ونفله، ولا ينبغي له أن يشتغل بشئ زائد على ذلك، من الفصاحة والبلاغة حتى ينتهي سيره، ويعرف ربه، وهناك يصير لا يشغله عن ربه شاغل، فإن قرأ في علم النحو كان مع الله، أو في علم الكلام كان مع الله، أو في علم الأحكام كان مع الله: كشفاً وشهوداً، بخلاف من لم يبلغه بسيره، فكل شئ اشتغل به في الوجود، ربما يشغله عن الله، حتى الكلام المباح)).

٢٧- ومن شأنه البعد عن كل ما فيه حظّ للنفس، وألا يكون عنده منافسة لأحد، ولا يجادل في شريعة ولا حقيقة، وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: ((من شرط المريد الصادق، أن يكون خارجاً عن حظوظ نفسه كلها، لا التفات له إلى حظ من الحظوظ، من مال أو جاه، أو نسبة إلى صلاح، يرضى بالتلف والضيق، ويفرح بالخمول وعدم الشهرة، كما هو شأن الصادقين، لأن الفلاح والنجاح لا يصح إلا لمن ترك حظوظ نفسه، وقابل الأذى بالإحسان، والشر بالاحتمال)).

٢٨- ومن شأنه أن يفتش عن الحلّ في اللقمة، وساتر العورة، لأن لسانه ما دام يذوق الحرام والشبهات فأعماله لا يفي نورها بظلمة تلك اللقمة، ومعلوم أن عمل المريد دائماً، إنما هو فيما يستنير به قلبه ليفرق بين الهدى والضلال.

٢٩- ومن شأنه أن يفر ممن يرمي أهل الطريق بزور، أو بهتان، أو رياء، أو نفاق، فإن كل من تجرأ على أهل الطريق، أبغضه الله ومقته، فلا يُفلح بعد ذلك أبداً، ولو كان على عبادة الثقلين سوى ذلك.

٣٠- ومن شأنه الحرص على شهود الأسحار، وفعل السنن والأوراد، والتباعد عن المعصية، وترك الإدعاء، فقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي ﵁ يقول: ((من علامة كذب المريد في دعواه كمال الصدق في محبة ربه، نومه في الأسحار، وفوات شربه من دنّ الدنو، وخمر الخمار)) ويقول أيضاً: ((من شرط المريد أن يكون من أبعد الناس عن الآثام، كثير السهر والقيام، كلما زاد في خدمة سيده زاده قرباً وإحساناً)).

٣١- ومن شأنه أن لا يطيع الملل من قراءة الأوراد التي أمره بها شيخه؛ لأن كل شيخ قد جعل الله مدده وسرّه، وسرّ طريقته في أوراده، التي يأمر بها المريد، فمن ترك ورده، فقد نكث عهد شيخه، وأجمعوا على أنه ما قطع مريد ورده إلا انقطعت عنه الإمداد في ذلك اليوم.

٣٢- ومن شأنه أن يوبخ نفسه، ويحثها على السير في الطريق، كلما وقفت مع حظ من حظوظها، فقد قال سيدي إبراهيم الدسوقي ﵁:

((من شرط المريد الصادق أن يكون سائراً في المقامات، ليلاً ونهاراً، غدوّاً وآصالاً، لا مقيل له ولا هدوّ، وجواده قد فرغ من اللغو ، وامتلأ من الشجاعة والعزم، قد شق بطنه السرى، وأسقمها البرى، لا يفنّد همته مفنّد، ولا يهوله مهلك، ولا تردّه ضربات الصوارم، ولا يفشله

شيطان غوي ولا مارد، حتى كل من خاصمه في محبوبه عاد مخصوماً، لا يهدأ، ولا ينام، ولا يضحى، بل الدهر كله عنده سواء، حتى يدخل خيام ليلي، ويضع خدّه على أطناب تلك الخيام، ويسمع الخطاب، فهناك ينتعش ويطيب، ويُقال له: استرح يا طول ما قطعت براري وقفاراً، وجبالاً وبحاراً، وظلاماً وناراً، يا طول ما تعبت، وتغيبت، يا طول ما رجع غيرك من الطريق، وجئت فأكرم الله مثواك، ولا خيب مسعاك، أنت اليوم عندنا ضيف مكين أمين، وضيافتنا لا ينقضي أمدها، بل هي باقية أبد الأبدين)).

٣٣- ومن شأنه أن لا يكون عنده حسد، ولا غيبة، ولا بغي، ولا مخادعة، ولا مكابرة، ولا مماراة، ولا ممالقة، ولا مكاذبة، ولا كبر، ولا عجب، ولا ترفّه، ولا افتخار، ولا شطح، ولا حظوظ نفس، ولا تصدر في مجالس، ولا رؤية نفس على أحد من المسلمين، ولا جدال، ولا امتحان ولا تنقيص لأحد من أهل الطريق.

فإن من ادعى الصدق في الإرادة وعنده خصلة واحدة مما ذكرنا، فهو غير صادق، ولا يجئ منه شئ في الطريق، لأن هذه الصفات توقف صاحبها عن السير، بل تطرده عن حضرة الله ﷻ إلى حضرة الشياطين لأنها صفاتهم، وقد جمع ذلك الإمام أبو العزائم ﷺ في نصيحته لأهل السلوك التي يقول فيها:

((أخي تباعد عن أخلاق إبليس وهي الحسد والكبر والطمع، وحب الشهرة والسمعة، وأذية الخلق، والغيبة والنميمة، والكذب والزور، وإشاعة الفاحشة في إخوانك المؤمنين، وأحب لجميع إخوانك ما تحبه لنفسك، ودع الفساد ، وتباعد عن أخلاق البهائم من الحرص والبخل والانتقام والحيل والمكر والخداع، والتملق والزنا وشرب الخمر، والتهاون بحقوق الناس، وتخلق بأخلاق الملائكة بتأدية المأمورات،

والتباعد عن المنهيات، واحفظ الرأس وما وعى: من العينين والأذنين واللسان والأنف، والجسم وما حوى: من اليدين والقلب والبطن والفرج والرجلين وأحكم يا أخي إنك من أكابر الأولياء لله تعالى، المحفوظين بعين عنايته، لأن الله لا يوفق لهذه إلا صفوته من أوليائه، وهو الموفق الهادي سبحانه، وادم الشكر على النعمة تعط المزيد))

(من كتاب شراب الأرواح ص ٥٠).

٣٤- ومن شأنه أن يرفع همته عن طلب الأجر على أعماله وعبادته فقد قال سيدي علي وفا ﷺ:

((من طلب أجراً على عمله فهو إمرأة، وإن كان له لحية، فإن الرجال للمنن القدسية، والنساء للزينة الحسية، فأيما امرأة تعلقت همتها بالمنن القدسية فهي رجل، وأيما ذكر تعلقت همته بالزينة الحسية فهو امرأة))

٣٥- ومن شأنه أن يصبر على ما يقع له في الطريق من الامتحانات، فإنه لابد لكل صادق من ذلك، شاء أم أبى، إذ لا يصطفيه الحق تعالى، وهو يميل إلى أحد سواه، فإذا قام عليه الخلق بالإنكار، والرمي بالزور والبهتان، نفرت نفسه منهم ضرورة، وتجردت إلى محبة الحق تعالى.

٣٦- ومن شأنه أن لا يقلق من تنكرات الأحوال عليه أول دخوله الطريق، فكثيراً ما تتحول الدنيا من يد المريد أول دخوله الطريق فربما قال - ولو في نفسه - ما كان لي حاجة باتباع الطريق - فينتقض عهده فلا يفلح بعد ذلك. وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول:

((إذا ضيق الله عليك أيها المريد وسدّ عليك أبواب الرزق، وقسّى عليك قلوب عبادك، فاعلم أنه يريد أن يواليك فاثبت ولا تضجر)).

٣٧- ومن شأنه أن لا ينظر إلى زلاّته السابقة قبل دخوله في الطريق، ويقول في نفسه: بعيد على مثلي أن يفتح عليه ويصير صالحاً، فإن ذلك من أكبر القواطع ومن أعون الأمور لإبليس، قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه:

((لا ينبغي للمريد أن ينظر إلى زلاته السابقة، ويقنط من حصول الفتح، فإن كثيراً من أهل الطريق تقدم لهم زلاّت، ثم تابوا وصاروا من الأولياء)).

٣٨- ومن شأنه أن لا يستبطأ الفتح عليه بل يعبد الله تعالى لوجهه الكريم، سواء أفتح قلبه ورفع عنه الحجاب أم لا؟ فإن العبادة من شروط العبودية، قال الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه في الباب الرابع والمائتين من الفتوحات:

((إياك أن تترك المجاهدة، إذا لم تر أمارات الفتح، بل دُمْ على المجاهدة، فإن الفتح بعدها أمر لازم لابد منه، تطلبه الأعمال، وتناله الأنفس، ولكن للفتح وقت لا يتعداه، فلا تتهم ربك، فإنه لابد لأعمالك من الثمرة، إذا كنت مخلصاً، وارفع من نفسك التهمة لربك جملة واحدة، وفر من أن تكون من أهل التهم)).

٣٩- ومن شأنه أن يلازم الزهد في الدنيا، فإنه أساسه الذي يبنى عليه جميع أحكام الطريق، إذ الراغب في الدنيا، لا تفتح له أعمال الآخرة، قال سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه:

((أول أساس يضعه المريد الصادق في الطريق: الزهد في الدنيا، فمن لم يزهد في الدنيا، لا يصح له بناء شئ بعده)).

٤٠- ومن شأنه استواء المدح والذم عنده من الناس، والخير والشر عنده من الله ﷻ ، فيرضى بالقضاء، وعلامة ذلك أن يستوي عنده المنع والعطاء، وذلك من علامة إخلاصه، وعبادته ربه بلا علة.

٤١- ومن شأنه أن لا يتكبر عن سماع النصيحة من شيخه أو من إخوانه فقد قال سيدي إبراهيم المتبولي ﵁:

((من شرط المريد الصادق أن يرى نفسه دائماً في مقام الطفولية، ليرضع من ثدي المربي، فإن من كبر استحق الفطام، ومنعوه الرضاعة)).

وقال سيدي علي وفا ﵁:

((إياك أن تحسد من اصطفاه الله تعالى عليك من أقرانك، وجعله من أهل الطريق دونك، وانقادت إليه الأمراء والأكابر دونك، وتقول: أنا تربيت وإياه ونحن نعرف بعضنا، كما يقع فيه كثير من أهل الرعونات، بل الواجب عليك أن تكون تلميذاً له، وتتبرك به كما يتبرك به غيرك، حيث تعيَّن ذلك عليك بطريقه الشرعي، فمن حسد من رفعه الله عليه، ربما مسخ الله صورة قلبه، كما مسخ إبليس من الصورة الملكية إلى الصورة الشيطانية، حيث حسد آدم عليه السلام وتكبر عليه وقال: أنا خير منه.

وفي ذلك تحذير عظيم لمن يحسد أحداً ممن رفعه الله عليه من أقرانه، ويتكبر عليه، ولا يخضع، ولا يأتم به وقد أجمع الأشياخ على أنه يجب على الشيخ إذا رأى مريديه قد فاقه، وعلا عن مقامه، أن يكون تلميذاً له، ويدخل تحت حكمه كما تقدم، لأن الصادق ليس قصده رياسة على العباد، وإنما قصده القرب من حضرة الله ﷻ ، فإذا رأى من هو أقرب منه إليه، فالواجب عليه أن يكون تلميذاً له، كما وقع لسيدي يوسف العجمي وغيره، فربَّوا جماعة، فبرعوا عليهم، فعادوا وأخذوا عنهم ﷺ أجمعين)).

ولا يستطيع السالك أن يتأدب في نفسه بهذه الآداب العالية، إلا إذا لاحظ بعين فكرته، أو رأى بعين بصيرته، حقيقته الأولى، وهي إنه مخلوق من تراب أو من طين، أو من ماء مهين، ورأى ما زاد عن ذلك من صفات، وكمالات، إنما هي فيض هبات، وأسرار تنزلات من الحق عليه .

وفي هذا يقول الإمام أبو العزائم رضي الله عنه:

((من رأى نفسه فوق التراب ضلّ)).

ويقول ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه في حكمه:

((ادفن نفسك في أرض الخمول تشرق عليك أنوار الوصول)).

فالسالك الصادق هو الذي ينظر دائماً إلى سيئات نفسه، وحسنات إخوانه، ولا يلتفت إلى أعماله الصالحة، ويغض طرفه عن عثرات إخوانه، وأجمل ما يتخلق به السالك مع من حوله هو ما عبّر عنه الإمام أبو العزائم رضي الله عنه في قوله:

((يجب على السالك أن يكون كالأرض في التواضع، وكالشمس في المنفعة، وكالبحر في الكرم، وكالليل في الستر)).

أدب السالك مع شيخه

إعلم يا أخي أن أحداً من السالكين....

لم يصل إلى حالة شريفة في الطريق أبداً، إلا بملاقاة الأشياخ، وموافقة الأدب معهم، والإكثار من خدمتهم، وقد كان الإمام الجنيد رضي الله عنه يقول:

((من سلك بغير شيخ ضل وأضل، ومن حُرم احترام الأشياخ ابتلاه الله

تعالى بالمقت بين العباد، وحُرم نور الإيمان)).

وكان أبو تراب النخشبي رضي الله عنه يقول:

((إذا ألف القلب الإعراض عن الله، صحبته الوقيعة في أولياء الله)).

وقال القشيري رضي الله عنه:

((لو لم يكن للمريد من الباعث على الأدب إلا قول موسى عليه السلام للخضر: ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ ﴾ الكهف، لكفاه ذلك، فإن موسى عليه السلام لما أراد صحبة الخضر، حفظ شرط الأدب فاستأذن أولاً في الصحبة، ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه في شئ، ولا يعترض عليه في حكم من الأحكام، ثم لما خالفه موسى تجاوز الخضر عنه المرة الأولى والثانية، فلما انتهى إلى الثالثة التي هي أول حد الكبيرة قال له: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ ﴾)).

وكان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول:

((من لم يعتقد في شيخه الكمال، لا يُفلح على يديه أبداً)).

وأبو علي الدقاق رضي الله عنه يقول:

((من دخل في صحبة شيخ ثم اعترض عليه بعد ذلك، فقد نقض عهد الصحبة، ووجب عليه تجديد العهد، على أن الأشياخ قد قالوا: إن عقوق الأستاذ قد يترتب عليه استحكام المقت، فلا يكاد يصح من ذلك العاق توبة، لقيام الاستهانة بالشيخ في باطن العاق التائب)).

وكان أبو جعفر الخلدي يقول:

((من لم يحفظ الأدب مع المشايخ، سلط الله عليه الكلاب التي تؤذيه)).

وكان أحمد الأبيوردي ﵁ يقول:

((إياكم والعمل على تغيير قلب شيخكم عليكم فإن من غيّر قلب شيخه عليه، لحقته العقوبة، ولو بعد موت الشيخ)).

وقال الشيخ عبد العزيز الدباغ ﵁ في (الإبريز) ص ٤١٨ :

((لا يطمع أحد في معرفة الله، وهو لا يعرف الرسول ﷺ ، ولا يطمع أحد في معرفة الرسول ﷺ ، وهو لا يعرف شيخه، ولا يطمع أحد في معرفة شيخه، وهو لم يصّل على الناس صلاته على الجنازة، فإذا خرج الناس من نظره، وصار لا يُبالي بهم في أقواله وأفعاله وشئونه كلها، جاءته الرحمة من حيث لا يحتسب.))

وقد إستنبط الأئمة الأدب الواجب مع الشيخ :

- من أدب الكليم عليه السلام، مع العبد الصالح.
- وكذلك من تأديب الله تعالى لأصحاب نبيه ﷺ في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ ﴾ الحجرات، فقد نزلت في أقوام، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا سأل الرسول ﷺ عن شئ خاضوا فيه، وتقدموا بالقول والفتوى، فنُهوا عن ذلك..

وتعليقاً على هذه الآية يقول السهروردي في (عوارف المعارف):

((هكذا دأُب المريد في مجلس الشيخ، ينبغي أن يلزم السكوت، ولا يقول شيئاً بحضرته، من كلام حسن، إلا إذا أستأمره الشيخ في ذلك، ووجد من الشيخ فُسْحة، وشأن المريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر، ينتظر رزقاً يُساق إليه، فتطلعه إلى الإستماع، وما يرزق من طريق كلام الشيخ، يحقق مقام إرادته، وطلبه وإستزادته من فضل الله تعالى، وتطلعه إلى القول، يردّه عن مقام الطلب والإستزادة، إلى مقام إثبات شئ لنفسه، وذلك جناية المريد، وينبغي أن يكون تطلعه إلى مهم من حاله، يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ، بل يبادئه الشيخ بما يريد، لأن الشيخ يكون مستنطقاً نطقه بالحق، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله تعالى، ويستمطر ويستسقي لهم، فيكون لسانه وقلبه في القول والنطق، مأخوذين إلى فهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح عليه، ثم قال: ويكون الشيخ فيما يجريه الحق سبحانه وتعالى على لسانه، مستمعاً كأحد المستمعين)).

- وكـــذا قولـــه تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الحجرات

فقد كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه صمم، وكان جهوري الصوت، فإذا تكلم جهر بصوته، وربما كان يكلم النبي ﷺ فيتأذى بصوته، فأنزل الله الآية، تأديباً له ولغيره، ولذلك كان عمر بعد ذلك، إذا تكلم عند النبي ﷺ ، لا يُسمع كلامه حتى يُستفهم، وآلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي ﷺ إلا كأخي السرار.

قال صاحب العوارف:

((فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع شيخه، فلا ينبسط برفع الصوت، وكثرة الضحك والكلام، إلا إذا باسطه الشيخ، فرفع الصوت إلقاء لجلباب الوفاء والوقار، إذا سكن القلب عقل اللسان، وقد ينال باطن المريدين من الحرقة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع أن يشبع النظر إلى الشيخ)).

وقال أبو عثمان:

((الأدب مع الأكابر، وفي مجلس السادات من الأولياء، يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير في الدنيا والعقبى، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾. وفي هذا تأديب للمريد في الدخول على الشيخ، والإقدام عليه، وترك الإستعجال، وصبره إلى أن يُخرج الله الشيخ من موضع خلوته)).

وقد أجمل الإمام أبو العزائم ﷺ الأدب الواجب مع المرشد في عبارة واحدة في كتابه (دستور السالكين) صـ ٤٤ فقال:

((تقيمه مقام الوالد الرءوف الرحيم، وتقوم له بما يقوم به الولد البار الكريم)) لكننا سنشير بإيجاز إلى جُمل من الآداب الواجبة على المريد نحو شيخه، ليتأسّى بها أهل الصدق والإخلاص.

فمن ذلك:

١- أن يعمل على تطهير نفسه ظاهراً وباطناً، مما يخالف الشرع، من كل الكبائر خُلقاً وعملاً، إذا رغب في الفتح بمتابعته، ويحافظ على ذلك، فقد أجمع أهل الطريق على أن من صفات المريد الصادق في محبة الشيخ، أن يكون تائباً من جميع الذنوب، متطهراً من سائر العيوب، فمن تلطخ بالذنوب وإدعى محبة شيخه فهو كاذب.

٢- أن يجعل ذات الشيخ هي المقصودة له، أي يطلب بمتابعته التخلق بأخلاقه، والتجمل بأحواله، ولا يجعل مقصده من الشيخ، كرامة يبتغيها، أو مكانة يرجوها، أو دنيا يصيبها.

٣- أن يكتم أحوال الشيخ، التي أباحها له، في سر إلهي، أو ديني، أو دنيوي أو أخروي – مادام سمعه منه منفرداً – لئلا يقدح ذلك في حفظه لأمانته. قال سيدي مُحَمَّد الشناوي ﷺ: ((إياك أن تُفشي أسرار شيخك في تقريره لكلام القوم، لمن لا يؤمن به، ولا ذوق له في الطريق، فربما مقتك الشيخ بسبب ذلك فلم تُفلح أبداً)).

٤- أن يكون بعيداً عن الشبهات ظاهراً وباطناً، ولا يعتمد على حفظ نفسه بحاله، ولا يقلد الشيخ في أحواله التي يظهر بها في المجتمعات، ولا في أحواله الخاصة عند جمعه على الله ﷻ .

٥- مهما أكرمه الله تعالى بخصوصية، لا يخطر على قلبه، أنه أشبه المرشد، أو ساواه، أو استغنى عنه، لأن ذلك دليل القطيعة عن الله تعالى، وإن كان الرجال لا يحظرون على فضل الله تعالى، لكن الطريق لا يسلم فيه إلا أهل الأدب.

٦- ومن الأدب أن لا يكتم عن الشيخ شئ من حاله، ومواهب موارد فضل الحق عنده، وما يظهر له من كرامة أو إجابة، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه، وما يستحي من كشفه يذكره إيماءاً وتعريضاً، فإن المريد متى انطوى ضميره على شئ لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعريضاً، يصير على باطنه عقدة في الطريق، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول.

وكان سيدي أبو العباس المرسي ﷺ يقول: ((لا ينبغي أن يكون بين المريد وأستاذه عورة من حيث الأمراض التي عنده، لأن شيخه طبيبه، وحال المريد الباطن عورة، ويجوز كشفها للطبيب لضرورة التداوي، ولا ينبغي له أن يكلف شيخه بمكاشفته بعيوبه، لأن الأشياخ منزهون في كشفهم عن الاطلاع على العورات، لأنه كشف شيطاني

يجب عليهم التوبة منه، وسؤال الحجاب، حتى لا يقع بصرهم على عورة أحد من خلق الله تعالى، ولولا أن المريد يخبرهم بأحواله الباطنة، ما عرفوها منه)).

٧- أن يكون المريد مع الشيخ مسلوب الإختيار، لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره، وإذا كان معه في أمر جامع، لا يذهب حتى يستأذن منه.

٨- أحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود، حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلاً.

٩- ومن الأدب: أن لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه، بأن الشيخ قيّم بتأديبه وتهذيبه، وأنه أقوم بالتأديب من غيره، وقد كان سيدي علي وفا ﷺ يقول: ((مرشدك إلى الحق تعالى، هو العين التي ينظر الحق بها إليك، باللطف والرحمة، وهو وجه الحق الذي يُقبل بواسطته عليك، ويرضى لرضاه، ويغضب بغضبه، فاعرف والزم، وانظر ماذا ترى.

١٠- ومن الأدب: أن يراعي خطرات الشيخ في جزئيات الأمور وكلياتها، ولا يستحقر كراهية الشيخ ليسير حركاته معتمداً على حسن خلق الشيخ، وكمال حلمه ومداراته.

١١- ومن أدب المريد مع الشيخ: أن لا يستقل بوقائعه وكشفه، دون مراجعة الشيخ، فإن الشيخ علمه أوسع، وبابه المفتوح إلى الله أعظم.

١٢- ينبغي للمريد أنه كلما أشكل عليه شئ من حال الشيخ، يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وكيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى، وإذا أخبره الخضر بسّرها، يرجع موسى عن إنكاره، فما ينكره المريد يكون لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ، فللشيخ في كل شئ عذر بلسان العلم والحكمة. وكان الشيخ برهان الدين بن أبي شريف رحمه الله يقول:

((من لم ير خطأ شيخه أحسن من صوابه هو: لم ينتفع به)).

١٣- ومن شأنه إذا تعذر عليه الفتح، أن يقيم العذر لشيخه، ويجعل اللوم على نفسه دون شيخه، ويقول: النقص منّي، فإن شأن المريد كما قال القشيري ﷺ :

((كل مريد خطر بباله، أن له في الدنيا والآخرة قدراً وقيمة، أو على وجه الأرض أحد من المسلمين دونه في الدرجة، لم يصح له في الإرادة قدم، وذلك لأن المريد إنما يجتهد في العبادة ليحصل له الذّل والمسكنة بين يدي الله ﷻ ، لا ليحصّل لنفسه المنزلة والجاه عند الناس، إما في العاجل، أو في الآجل)).

١٤- ومن شأنه أن لا يفعل مع الشيخ شيئاً يوحش قلب الشيخ منه، فإن الله تعالى قد يغضب لغضب الشيخ، ويرضى لرضاه، لأنه قد يكون أعظم حرمة من والد الجسم، وإيضاح ذلك، أن الشيخ لا يأمر المريد، إلا بما أمر الله به، فمن خالفه خالف الشارع ﷺ ، ووقع في غضب الله، بحسب تلك المعصية، من كبيرة أو صغيرة، وفي ذلك يقول القائل:

أقدم أستاذي على حق والدي وإن كان لي من والدي النسب والشرف

فذاك مربي الروح والروح جوهر وهذا مربي الجسم، وهو لها صدف

وكان أبو القاسم القشيري ﷺ يقول:

((يجب على كل من زار شيخاً أن يدخل عليه بالحشمة والحرمة، فضلاً عن شيخ الإنسان ثم إن أهّله الشيخ لشئ من الخدمة، عدّ ذلك من جزيل النعمة، وليحذر من أن يقيم ميزان عقله الجائر، على من يدخل عليه من الأشياء فربما مقته الشيخ، فلا يُفلح بعدها أبداً)).

وقال سيدي مُحَّد الشناوي ﷺ:

((مما أنعم الله تعالى به علي، أنِّ ما دخلت قط على شيخ، إلا وميزان عقلي مكسور، وأرى نفسي تحت نعاله، فلا أخرج من عنده، إلا بمدد وفائدة)).

١٥- ومن شأنه أن لا يقنع بمجرد اعتقاده في الشيخ، ويتساهل فيما يأمره فيه، أو ينهاه عنه، ويقول: نظر سيدي يكفيني، فإن ذلك جهل بالطريق.

وقد قال بعض الصحابة لرسول الله :(رواه أحمد ومسلم عن ربيعة بن كعب):

{ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، فَقَالَ: أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ)»

فلم يجبه ﷺ ، إلى اتكاله عليه دون العمل، وخرج ﷺ مرة فقال:

((يا فاطمة اعملي، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً)).

وكان سيدي علي وفا رضي الله عنه يقول: ((لا تطلب من شيخك أن يمنحك الأسرار، وأنت لم تطهر من أعمال الفجار، فإن من وضع العسل في قشور الحنظل تمرّر لمرارة وعائه، والتبس على الجاهل أن العسل مُرّ من أصله)).

١٦- ومن شأنه أن لا يرى نفسه يستغني عن علم شيخه ولو صار من مشايخ الإسلام، فإن طريق القوم أمر خاص، زائد على علوم الظاهر، ولا يقدر غالب أصحاب العلم الظاهر على إزالة شئ من أمراض الأعمال الباطنة، وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: ((ما صحب عالم مشايخ القوم، إلا إزداد علمه نوراً إلى نور، فالعاقل من اتخذ له شيخاً، ولم يكتف بما عنده من علم الظاهر، لأن الشيخ يصل به إلى محل القرب من حضرة الله تعالى، فيصير يكره المعاصي طبعاً في تلك الحضرة، حتى ولو قيل له اعص الله تعالى، لا يقدر لارتفاع حجابه)).

وقد اتخذ الإمام الغزالي له شيخاً، مع كونه حجة الإسلام، وكذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام اتخذ له شيخاً مع كونه لُقّب بسلطان العلماء، فغايتك يا أخي في العلم أن تكون كأحد هذين الشيخين.

وكان أهل العصر الأول، لقلة أمراضهم وعللهم، لا يحتاجون إلى شيخ، فلما ذهبوا، وحدثت الأمراض احتاج الفقيه إلى شيخ ضرورة ليسّهل عليه طريق العمل بما علم.

فإن حقيقة الصوفي، هو عالم عمل بعلمه، أي على وجه الإخلاص لا غير، فليس علم التصوف إلا معرفة طريق الوصول إلى العمل بالإخلاص لا غير، فلو عمل العالم بعلمه، على وجه الإخلاص كان هو الصوفي حقاً.

١٧- ومن شأنه أن لا يتساهل بهجر شيخه له، فقد قال سيدي مُحَمَّد وفا رحمه الله: ((كل مريد هجره أستاذه، فلم يتأثر من ذلك، ولم يشتق إليه، ولم يبادر لتطييب خاطره عليه، فقد مقته الله، ومكر به)) والسر في ذلك يوضحه الكتاني فيقول: ((ما ثقل مريد على قلب شيخ، إلا لعلة بالمريد، أخفاها عن الشيخ)) ويقول في ذلك الجيلي رضي الله عنه: ((كل مريد رأى نفسه معرضة عن مواددة الشيخ وإخوانه، فليعلم إنه قد شرع في الأخذ في طرده عن باب الله عز وجل)).

١٨- ومن شأنه أن لا يتعب شيخه في تربيته، بأن يكون سميعاً مطيعاً لكل ما يشير به عليه، فقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: ((ليس المريد من يفتخر بشيخه، وإنما المريد من يفتخر شيخه به)) ويوضح ذلك الشيخ أبو الحجاج الأقصري رضي الله عنه فيقول: ((مَنْ صدق في الإرادة مع الشيخ، لا يحتاج إلى الاجتماع بجسمه، بل يكفيه التوجه إليه بالقلب، لأن صورة صحة المعتقدات، إذا ظهرت لا تحتاج إلى صور الأشخاص، ولكن إن حصل للمريد الجمع بين الصورتين فهو أكمل)) وكان يقول أيضاً: ((من شرط المريد، أن لا يصحب شيخه بنفس، ولا ملك، ولا إختيار، بل يرى نفسه

ملكاً لشيخه، يتصرف فيه كيف يشاء، وكل من طلب الوصول إلى مقامات الرجال، بغير محبة شيخ، ومخالفة نفس، فقد أخطأ الطريق)).

ويقول: ((من خدم شيخه بلا أدب، جرّه ذلك إلى العطب، ومن خدمه بالأدب، فقد حاز عزّ الدارين، وحصّل الارب)) وكان يقول كثيراً: ((لا ينال المريد الصادق درجة الرجال، حتى يبذل الروح، ويُفني إرادته تحت مراد شيخه، ثم ينشد:

ولو قيل لي مُتْ مِتّ سمعاً وطاعة   وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً

وكان يقول من علامة شقاء المريد: أن يرزق صحبة الشيوخ، ولا يحترمهم)).

١٩- ومن شأنه، أن لا يرى، أنه كافأ أستاذه أبداً، ولو خدمه ألف عام، وأنفق عليه الألوف من المال، ومن خطر بباله بعد ذلك، أنه قابله بشئ، فقد خرج عن الطريق، ونقض العهد، وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: ((لا تصحبوا الأشياخ، إلا بصدق وإذعان، وصبر على جفائهم لكم، بغير سبب ظاهر، ولا تأتوهم إلا بهمّة وقّادة، فإنه أسرع في قبول الشيخ لكم، وما قال الشيخ قط لمريد جاء يطلب الطريق، أصبر يوماً أو يومين، أو ساعة، إلا لما يراه من فتور همة ذلك المريد، وسوء أدبه، ولو أنه رأى عنده أدباً، لبادر بأخذ العهد عليه، ولم يجز للشيخ أن يقول: قف ساعة، لأن ذلك يطفئ نار عزم المريد)) وقد قال القائل:

وكنت قديماً أطلب الوصل منهم   فلما أتاني الحلم وارتفع الجهل

تيقنّت أن العبد لا طلب له   فإن قربوا فضل وإن أبعدوا عدل

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم   وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وقال الآخر:

ولو طردوني كنت عبداً لعبدهم   وإن أبعدوني زدت في الحب والود

ولي عندهم هجر كما حكم الهوى وهم أهل فضل لي ومنزلة عندي

٢٠- ومن شأنه، أن لا يأتي حضرة أستاذه قط إلا بالصدق، ولو تكرر إتيانه كل يوم ألف مرة، وقد كان سيدي علي وفا ﷺ يقول: ((ما جاء مريد إلى حضرة أستاذه بالصدق، إلا كان من أهله، وجاز للشيخ كشف الأسرار له، وإن جاء بغير الصدق، كان أمره بالعكس)).

٢١- ومن شأنه، إذا قدّم أستاذه عليه أحد من إخوانه، أن يخدمه أدباً مع الأستاذ، وليحذر أن يحسده فتزلّ قدم بعد ثبوتها، وتذوق السوء، ولكن إن أراد التقدّم على الإخوان، فليطع شيخه، ويتخلق بالصفات التي يستحق بها التقدم، وهناك يقدمه شيخه كذلك على أقرانه، فإن الشيخ حاكم عادل بين المريدين.

وكان سيدي على وفا ﷺ يقول:

((لفلاح المريد ثلاث علامات: أن يحب شيخه بالإيثار، ويتلقى منه كل ما أمره به بالقبول، ويوافقه في كل أمر يرومه)) ويقول أيضاً:

((من تقرب إلى أستاذه بالخدم تقرب الحق تعالى إلى قلبه بأنواع الكرم)) ويقول أيضاً: ((من آثر أستاذه على نفسه، كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن نزّه حضرة أستاذه عن النقائص، منحه الله بالخصائص، ومن إحتجب عنه أستاذه طرفة عين، فلا يلومن إلا نفسه، إذا أوبق بوائق البين، ولا يصل المريد إلى هذا المقام، إلا أن جعل مراد شيخه مراده)).

٢٢- ومن شأنه أن يلزم الأدب مع شيخه، ولا يطلب منه قط كرامة، ولا وقوع خارقة، ولا كشفاً، ولا غير ذلك، فمن طلب من شيخه كرامة، حتى يتبعه، فهو إلى الآن لم يؤمن بكون أستاذه من أهل العلم بطريق أهل الله، وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله يقول:

((إحذر إيها المريد، أن تطلب من شيخك كرامة، حتى تتبعه في أمره لك بالمعروف، ونهيه لك عن المنكر، فإن ذلك سوء أدب، وهو دليل شكك في دين الإسلام، لأن ما دعاك إليه شيخك، ليس هو شرعه، وإنما هو شرع رسول الله ﷺ ، فهو تابع لا متبوع، ولولا أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، لكان كل من خالف أمر داعيه إلى خير، هلك من وقته)).

٢٣- ومن شأنه، أن يلزم الأدب مع شيخه، ولا يتجسّس له قط على حال، ولا حركة، ولا سكون، ولا يترك نفسه تميل إلى ذلك، ولا يقف له على نوم، ولا طعام، ولا شراب، ولا غُسل جنابة، وكل مريد تجسس على مثل ذلك، حصل له المقت، وكان سيدي علي وفا رضي الله عنه يقول: ((إياك أن تصغى لقول حاسد أو عدو في حق شيخك، فيصدّك عن سبيل الله، فقد سبقت كلمة الله التي لا تتبدّل، وسنّة الله التي لا تتحول، أن لا ينفخ الحق تعالى روح العلم الإلهي في مخصوص من أهل حضرته، إلا إنقسم الخلق فيه قسمين:

ملكي ساجد، وشيطان حاسد، كما وقع في قصة آدم عليه السلام، فإحرص أيها المريد، على أن تكون لأهل الإختصاص خادماً وخاضعاً، إما لتسلم، أو لتعلم، أو لتُرحم، وإياك أن تكون لهم مبغضاً أو حاسداً، فإنك إما تُسلب، وإما تُرجم، وإما تُحرم))
وقال الجيلي رضي الله عنه:

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا إلى شيخ حق في الحقيقة بارع
فقم في رضاه وإتّبع لمـراده ودع كلما من قبل كنت تصانع
وكن عنده كالميت عند مغسـل يقلبه ما شاء وهو مطاوع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره عليه فإن الاعتراض تنازع
وسلّم له فيما تراه وإن يـكن على غير مشروع فثم مخادع

ففي قصة الخضر الكريم كفاية بقتل غُلام والكليم يـدافع

فلما أضاء الصبح عن ليل سّره وسلّ حُساماً للمحاجج قاطع

أقام له العذر الكليم وأنـه كذلك علم القوم فيه بدائـع

٢٤- ومن شأنه، أن لا يقنع في طريق سلوكه، بالآباء والجدود، كما عليه أولاد غالب المشايخ، بل يجب عليه أن يتخذ له شيخاً يربيه، فليست المشيخة بالإرث، إنما هي بالجد والاجتهاد.

٢٥- ومن شأنه أن لا يجلس بين يدي شيخه دائماً، حتى يُفرغ قلبه من حظوظ نفسه، في جميع معلوماته، طالباً للزيادة، وذلك ليفرغ عليه الشيخ علماً آخر فوق علمه، وقد كان المشايخ إذا جاءهم من يطلب الطريق يقولون له إمسك لوحك وتعال، فإن اللوح إذا كان مكتوباً، لا يقبل كتابة أخرى، ولو قُدّر أن أحداً كتب على تلك الكتابة، فلا يصح قراءة الأولى ولا الثانية، وفي ذلك يقول القائل:

وأنزل الشيخ في أعلى منازله وإجعله قبلة توجيه وتنزيه

وإعدم وجودك لا تشهد له أثراً ودعه يهدمه طوراً ويبنيه

ولست تفعل هذا إن ظننت به نقصاً تشاهده فيما يعانيه

فالمرء إن يعتقد شيئاً وليس كما يظنّه لم يخب والله يعطيـه

٢٦- ومن شأنه أن يرى نوم شيخه، أفضل من عبادته هو، لسلامة شيخه من العلل والأمراض، فليس نومه تهاوناً بعبادة ربه، وإنما ذلك لمشاهدة يذوقها، فإن نوم العارفين يسمى ورداً، فيقال فلان في ورد النوم، والورد من لازمه الترقي، وقد أرسل ذو النون المصري شخصاً إلى أبي يزيد، يقول له: إلى متى الدّعة والرحة، وقد سارت القوافل، فأرسل أبو يزيد يقول له: ليس الرجل من يسافر مع القافلة، وإنما الرجل من ينام إلى الصباح، ويُصبح أمام القافلة، فقال ذو النون: هذه درجة، لم تبلغها أحوالنا.

٢٧- ومن شأنه أن لا يستعظم شيئاً من أحواله، أن يذكره للشيخ، كالزنا، والكبر والعجب والنفاق، ومحبة الرياء ونحو ذلك من المعاصي المستقبحة شرعاً، بل يذكرها كلّها له، ليعرفها ويداويها.

٢٨- ومن شأنه، أن يفرح إذا نقّصه شيخه بين إخوانه، وناقشه على النظرة والخطوة، والنقير والقطمير، فإن ذلك دليل على شدة إعتنائه به، ورجائه له الخير والترقي، ولولا ذلك لكان أهمله، كما أهمل من لم ير فيه خيراً.

٢٩- لا ينبغي للمريد أن يتشبه بشيخه في فعله المباح ولا غيره، لأنه يفعله بحكم الإرث لرسول الله ﷺ بخلاف المريد، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ ، يذكر الله تعالى على كل أحيانه، يعني حتى في حال مزحه مع الأطفال والعجائز وغيرهم.

ونقل الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في الخصائص، أن رسول الله ﷺ كان مكلفاً بالحضور مع الله تعالى، حال خطابه للخلق، فلا يشتغل عن الله تعالى بشئ.

ونقل الإمام القشيري عن سهل بن عبد الله التستري أنه كان يقول: ((لي منذ ثلاثين سنة أكلّم الله، والناس يظنون أنّي أكلمهم)).

٣٠- ومن شأنه، أنه لا يجلس أبداً، في مجلس شيخه، الخاص بأبناء الدنيا، فإن المريد ليس له في ذلك منفعة، بخلاف الشيخ، فإنه مأمور بالإقبال على الناس كلهم، قبول رحمة وشفقة، وتعليم وتأديب.

وليحذر المريد من إعتراضه على الشيخ في مجالسته لأبناء الدنيا، فإن ذلك إنما هو تأليف لهم، ليصرفهم عن محبة الدنيا بالمسارقة شيئاً فشيئاً، إذ المشايخ إنما شغلهم بالأعوج ليقيموه، وأما المستقيم المنقاد فهم في راحة منه.

٣١- ومن شأنه، أنه لا يكلف شيخه قط المشي إليه ليسلم عليه، من سفر، أو يعوده من مرض، أو يعزيه في موت أحد، بل يذهب هو إلى شيخه فيسلم عليه ويعزيه، ومتى تغيّر قلبه على شيخه إذا لم يأته فقد أساء الأدب معه، فيجب عليه تجديد العهد.

٣٢- ومن شأنه، دوام ربط قلبه مع الشيخ، والإنقياد له، ورؤية إعتقاده، أن الله تعالى جعل جميع أمداده لا يخرج إلا من باب شيخه، وأن شيخه هو المظهر الذي عيّنه الله تعالى للإفاضة عليه منه، ولا يحصل له مدد وفيض إلا بواسطته.

وكان الشيخ زين الدين الخوافي رحمه الله يقول: ((يجب على المريد أن يرى إستمداده من شيخه الخاص، هو بعينه إستمداده من النبي ﷺ ، وأن إستمداد رسول الله ﷺ ، من الحق تعالى ليتصل المريد بطريق أهل الله حقيقة ، قال تعالى (٢٣ الفتح):

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

قال: واعلموا أن ربط المريد قلبه بالشيخ أصل كبير في سرعة الفتح، بل أصل الأصول، وما أتى على المريدين إنقطاعهم عن الفيض والترقي، إلا من عدم ربط قلوبهم بالشيخ على وجه التسليم، والإذعان، والهمة الصادقة، ومن أعظم شئ يقطع القلب عن الربط، الإعتراض على الشيخ بالقلب)).

٣٣- ومن شأنه، أن لا يُدْبر عن محبة شيخه وخدمته، إلا لضرورة يعذره شيخه بها، فقد قالوا: من أدبر عن شيخه لحظة واحدة، بعد أن خدمه سبعين سنة مثلاً، كان ما فاته من تلك اللحظة، أكثر مما ناله في السبعين سنة وقد قال الشعراني رضي الله عنه: ((يا خسارة من أدبر عن شيخه، فإن حكمه، حكم من أدبر عن خدمة ربّه، وأكثر المريدين جاهلون بمثل ذلك، ولذلك عُدموا النفع)).

٣٤- ومن شأنه، أن لا يصر قط على وقوعه في سوء أدب: لا ظاهراً ولا باطناً، لأن المريد الصادق إذا ربط قلبه بالشيخ، وتأدب بآدابه الظاهرة، سرى المدد الباطن، من قلب الشيخ، إلى قلب المريد، كسراج يقتبس من سراج، وإذا جاء المدد من الشيخ، ووجد قلب المريد متلطخاً بسوء أدب، رجع المدد، وكما أن كلام الشيخ ينصح باطن المريد الصادق، فكذلك إمدادات الشيخ الباطنة، فمن نظّف باطنه من جميع المخالفات، وسلك الأدب مع الشيخ، إنتقلت جميع الأمداد، والأحوال، والعلوم التي في قلب الشيخ، إلى قلب ذلك المريد.

ومما يدخل في هذا الباب، أن المريد الصادق، يزيد في تعظيم شيخه كلما باسطه وحادثه، بل لا يزداد بمباسطة شيخه له، إلا إحتراماً، وإكراماً، وتبجيلاً، وإحتشاماً، وأنشدوا في ذلك:

كلما إزداد بسطة وخضوعاً زدت فيه مهابة وجلالاً

٣٥- ومن شأنه، إذا شاور شيخه في فعل أمر من الأمور، أن يردّ الأمر في ذلك إلى الشيخ، كما كان الصحابة يفعلون مع النبي ﷺ ، فإنه كان أعلم من جميع أصحابه، بأمور الدنيا والآخرة، وإنما كان يشاورهم تأليفاً لقلوبهم، وبياناً لمقامهم في الأدب معه، أو في المعرفة لذلك الأمر، الذي إستشارهم، وكذلك الحكم في الشيخ، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ ، أن مشورة الشيخ للمريد، ليس هو لإفتقار الشيخ إلى رأي المريد.

٣٦- أما عمدة الأدب مع الشيخ، فهو المحبة له، فمن لم يبالغ في محبة شيخه، بحيث يؤثره على جميع شهواته، لا يُفلح في الطريق، لأن محبة الشيخ، إنما هي المرتبة التي عليه المعوّل في طريق القوم، للترقي إلى مقامات القرب من الحق جل وعلا، وقد ذكر الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه في الباب الثامن والسبعين بعد المائة من الفتوحات المكية:

((أن جملة أوصاف المحبين، أن يكون أحدهم مقتولاً، تألفاً في محبوبه، سائراً إلى حضرته على الدوام، دائم السهر، كامن الغم، راغباً في الخروج من كل شئ يشغله عنه، من شهوات الدنيا والآخرة، فهو مُتَبرّم من صحبة كل شئ يحجبه عن محبوبه، كثير التأوّه، يستريح إلى كلام محبوبه، وذكر اسمه، دائم الموافقة لمحاب محبوبه، خائف من ترك الحرمة، في إقامة خدمته، يستقل الكثير من نفسه في حق محبوبه، ويستكثر القليل من محبوبه، يعانق طاعة محبوبه، ويجانب مخالفته، خارج له عن نفسه بالكلية، لا يطلب الدّية في قتله، يصبر على الضراء التي تنفر منها الطباع، قياماً بما كلّفه محبوبه، دائم الهيام في محبوبه، وقد وطّن نفسه على محبة كل شئ يريده محبوبه، ليس له معه نَفْس، بل كله لمحبوبه، يعاتب نفسه في حق محبوبه، ولا يعاتب قط محبوبه، غيور على محبوبه من نفسه، فيود أنه لا يراه، مع شهوته لرؤيته، لا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب، ولا النقص بجفائه له، ناسٍ حظ نفسه، ذاكر حظ محبوبه، مجهول النعوت كأنه سالِ، وليس بسالِ، لا يفيق من سكره، بين الوصول والهجر، لا يقول قط لمحبوبه، لم فعلت كذا؟ أو قلت كذا؟ سرّة علانية، مسرور محزون، مقامه الخرس، حاله يترجم عنه، لسكره من المحبة، يختار مراضي محبوبه على جميع أغراض نفسه)).

ومن ألطف ما روى في هذه المحبة، ما ذكره الإمام القشيري ، عن حاله مع شيخه أبي علي الدقاق ، حيث يقول:

((لم أدخُل على الأستاذ أبي علي – رحمه الله – في وقت بدايتي إلا صائماً، وكنت أغتسل قبله، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة، فأرجع من الباب إحتشاماً من أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت، كنت إذا بلغت وسط المدرسة، يصحبني

شبه خدر، حتى لو غُرز فيّ إبرة مثلاً، لعلّي كنت لا أحسّ بها، ثم إذا قعدت لواقعة، وقعت لي، لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكلما كنت أجلس، كان يبتدئ بشرح واقعتي، وغير مرة رأيت منه هذا عياناً، وكنت أفكر في نفسي كثيراً، أنه لو بعث الله ﷺ في وقتي رسولاً إلى الخلق، هل يمكنني أن أزيد في حشمته على قلبي، فوق ما كان منه رحمه الله تعالى؟ فكان لا يُتصور لي أن ذلك ممكن، ولا أذكر أني في طول إختلافي إلى مجلسه، ثم كوني معه بعد حصول الوصلة، أن جرى في قلبي، أو خطر ببالي عليه قط إعتراض، إلى أن أخرج – رحمه الله تعالى – من الدنيا)) [الرسالة القشيرية صـ ١٤٧].

وكذلك كان الشيخ أبو مدين المغربي ﷺ يقول:

((ما دخلت في إبتداء أمري على شيخي، حتى أغتسل، وأطهر ثوبي وعصاي، وجميع ما علي، وأطهر قلبي من جميع علومي، ومعارفي الظنّية، ثم أدخل بعد ذلك، فإن قبلني، وأقبل علي، فذلك عنوان على سعادتي، وإن أعرض عنّي وتركني، رأيت العيب منّي، والشؤم علي)).

هذا وليحذر المريد في إبتداء أمره، عندما يسمع عن وليّ بمكان ما، فيصوره في نفسه، على صورة تُطابق الكرامات التي تُنقل عنه، فإذا وجده على غير تلك الصورة التي سبقت في ذهنه، وقع له شك في كونه هو ذلك الولي وقد ذكر الشيخ عبد العزيز الدباغ – ﷺ – في ذلك، أن رجلاً من الجزائر سمع بوليّ في فاس، ونقلت إليه عنه كرامات كثيرة، فصوره في نفسه، في صورة شيخ كبير، له هيبة عظيمة، فإرتحل إليه لينال من أسراره، فلما وصل مدينة فاس، سأل عن دار ذلك الولي، فدُلّ عليها، وكان يظن أن لذلك الولي بوابين يقفون على باب داره، فدق الباب فخرج الولي، فقال القاصد: يا سيدي أريد منكم أن تشاوروا على سيدي الشيخ، وظن أن الخارج إليه بواب. ، فقال له الولي: الذي قصدته من بلادك، وسرت إليه مسيرة شهر أو أكثر هو أنا لا غير. ، فقال يا سيدي، أنا رجل غريب، وجئت إلى الشيخ بشوق عظيم، فدُلّني عليه يرحمك

الله. وذلك أنه نظر إلى الولي، فلم يجد عليه شارة، ولا صورة عظيمة. فقال له الولي: يا مسكين أنا هو الذي تريد فقال القاصد: أنا أقول لكم إني غريب، وطلبت منكم أن تدلّوني على الشيخ، وأنتم تسخرون بي. فقال له الولي: الله بيننا إن سخرت بكم فقال القاصد: حسبك الله، وانصرف، حيث وجده على غير الصورة التي صورها في فكره.

قال الشيخ عبد العزيز الدباغ ﷺ:

((وكم واحد سقط من هذا السبب، فإنه إذا طالع الكتب المؤلفة في كرامات الأولياء، صوّر الولي على نحو ما سمع في تلك الكتب، فإذا عرض تلك الصورة على أولياء زمانه، شك فيهم أجمعين، لما يشاهد فيهم من الأوصاف، التي لا تكتب في الكتب، ولو أنه شاهد الأولياء الذين دُوّنت كراماتهم قبل تدوينها، لوجد فيهم من الأوصاف ما أنكره على أهل زمانه، وقد يبلغ الجهل بأقوام، إلى إنكار الولاية عن كل موجود من أهل زمانهم، لما إستحكم في عقولهم، من حصر الولاية، وتحقيقها بالضوابط، فإذا نزّل تلك الضوابط على موجود من أهل زمانه، وجدها لا تطابقه، فينفي الولاية عنه، ويصير حاله أنه يؤمن بولي كلي لا وجود له في الخارج، ولم يدر أن الولاية هي مجرد إصطفاء من الله تعالى لعبده، ولا يقدر على ضبطها، مخلوق من المخلوقات)).

ونختم بهذه الكلمة الجامعة لشيخنا فضيلة الشيخ مُحَّد علي سلامة – ﷺ في كتابه (قطرات من بحار المعرفة) صـ ١٢٦ :

((وهكذا نجد الصوفية يرون في أئمتهم الأسوة والقدوة، التي يجب عليهم

إتباعها، ويرون فيهم الكمال الذي يجب عليهم أن يسارعوا إليه، وأن يلحقوا به، ويشهدون فيهم النور، الذي يهتدون به، ويعتقدون فيهم الخير الذي يؤملونه، وينشدون فيهم التقوى والصلاح الذي يرجونه، ويؤمنون بأنهم ورثة رسول الله ﷺ ، ويلحظون بأن أولئك الأئمة يتلقون من الله الحكمة وفصل الخطاب، ويتناولون من يمين رسول الله ﷺ رحيق الشراب، فأحبوهم حباً أكثر من حبهم للوالدين والأقربين، بل أكثر من حبهم

لأنفسهم، وأجلّوهم وإحترموهم، وأنزلوهم من أنفسهم، منزلة الوالد الشفوق العطوف الرحيم، ويبذلون لهم، مِنْ مالهم، ما يسدّ حاجتهم، يذّكرونهم إذا نسوا، ويعتقدون عدم عصمتهم من الذنوب والعيوب، ويؤمنون بأنهم أفضل منهم عند الله، وأقرب منهم إلى الله ورسوله، ويقفون منهم موقف سيدنا موسى من الخضر عليهما السلام، ويتبعونه فيما يعرفونه من أمور الدين، ويسألونه عما لا يعلمون، ويسألونه عن حكمة ما يعملون، ويسألونه عن كيفية تزكية أنفسهم، ويسألونه أن يلحظهم بعيون سره، ويسألونه أن يدعو الله لهم في سرّه وعلنه، ويسألونه أن يرضى عنهم بقلبه، ويسألونه عن رقيق المعارف، وجليل المعاني، ليرتقوا في معارج القرب، ويسعدوا في منازل الحب، حتى إذا ما أنس منهم الإمام الرشاد، وقدرتهم على تحمل أعباء دعوة الخلق إلى الحق، أذن لهم في تذكير عباد الله، وبث روح الإيمان في قلوبهم، وتبصيرهم بأمور دينهم، ثم يتخذهم لنفسه رفاقاً، يتعاونون معه على البر والتقوى، ويتناهون معه عن الفحشاء والمنكر، ويدعون الناس معه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مع الإحتفاظ له بمكانته وحرمته)).

ولله در إبن عجيبة رضي الله عنه إذ يقول:

مع الشيخ آداب إذا لم تكن له ... فإنه في وادي القطيعة راتع

خضوع، وهيبة ، وصدق محبة ... وعقل كمال فيه: إنه جامع

فلا ترفعن صوتاً إذا كان حاضراً ... ولا تضحكن فالضحك فيه فجائع

ولا تعترض أصلاً عليه فإنه ... بنور شهود للبصيرة تابع

ولا ترمين عيناً إلى ماء غيره ... فتُرْمى كسيراً في المعاطش ضائع

ولا تخرجن من عُشّ تربية غدت ... تمدّك بالأنوار منها تتابع

إلى أن ترى الترشيد قد حان وقته ... وصرت من التمكين أمرك شائع

تمد من الأنوار من كل وجهة وتسقي من الأنام مَنْ هو تابع

أدب السالك مع أخوانه

السالكون الصادقون يحققون في زمنهم وعصرهم، مجتمع المدينة الفاضلة، الذي ظهر لأول مرة في المدينة المنورة، عندما كان ساكنوها هم الذين قال الله فيهم:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الآية (٢٩) سورة الفتح]،

فهم يعيدون تلك الأحوال على قدر زمانهم، ونصب أعينهم، وصف الله ﷻ لأصحاب سيدنا رسول الله ﷺ في قوله :﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾،

ليحدثون الأخوة الإيمانية بمعناها الحقيقي، وقد جمع أوصافها الإمام أبو العزائم ﷺ في قوله:

((والإخوان هم هياكل متعددة، سرت فيهم روح واحدة، كالجسد الواحد، تعددت أعضاؤه ولكنه واحد، فإذا تألم عضو منه شعر بالألم كل الجسد)).

فكذلك الإخوان يتألمون جميعاً لألم أحدهم، غنيهم فقير لأنه يؤثر الفقير على نفسه، وفقيرهم غني لكمال ثقته بربه، صفت قلوبهم فتجملت ظواهرهم.

فإذا رأى الأخ أخاه، فكأنه أشرقت عليه أنوار، فانبسط وانشرح، وصافح وفرح، فيزداد نوراً على نوره، وحالاً على حاله، وعلماً على علمه.

يبذل كل أخ لأخيه ما يجد، من وجد أو وجود، فيغذي الأخ أخاه بعلمه، والآخر يغذيه بخبزه، فلا يقابل أخ أخاً إلا وفتحت أبواب السماء بالبركات، وهطلت الأرزاق

والفتوحات، نزع الله ما في صدورهم من غل، وما في قلوبهم من طمع، لأنه سبحانه هو المحبوب لهم في أنفسهم.

وما تقولون في اثنين تقابلا على شوق في الله، ومحبة في الله، وبذْل في ذات الله؟

هذا يبذل لأخيه ما به سعادته الأبدية، من علم وحال وخُلق حسن، والآخر يبذل له طعامه وشرابه وماله، وما تقولون فيمن تحقق فيهم قوله ﷺ في الحديث القدسي عن الله تعالى [رواه السيوطي في الجامع الصغير، عن عبادة بن الصامت]:

«حُقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى المُتَحابِّينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى المُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وحُقَّت مَحَبَّتِي عَلَى المتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى المُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَهُمْ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ. يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ بِمَكانِهِمْ».

وليس هذا الوصف العلي موجوداً إلا في الصديقين، وأبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فكل أخ يعامل أخوانه بهذا فهو من الصديقين، ومن أبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام)) [دستور آداب السلوك ص ٤٩] هذا التآخي بين المؤمنين في الله ضرورة لينهض بعضهم بأحوال بعض، ويعين بعضهم بعضاً على البر والتقوى، والمعروف والإحسان، وخاصة إذا كان من أجل الدنيا والآخرة، لا من أجل المصالح والمنافع الدنيوية فقط، ومن أجل الله ورسوله، لا من أجل أهوائهم وحظوظهم وشهواتهم، ومن أجل التراحم والتناصح والتوادد، لا من أجل التعرف على المسالب والأخطاء والمعايب، ومن أجل الستر عليهم ومداراتهم، لا من أجل التشهير بهم، والتنديد بأحوالهم. وفي ذلك يقول شيخنا العارف بالله تعالى الشيخ مُحَّد علي سلامة في كتابه: ((مصابيح على طريق الإيمان جـ ٢ صـ ٢١)):

((فقد طلب سيدنا موسى عليه السلام من الله ﷻ ، أن يجعل له وزيراً من أهله ويعني معيناً يؤازره ويساعده ويعينه، وحدد في طلبه هذا سيدنا هارون عليه السلام، فقال الله ﷻ مبيناً ذلك [الآيات (٢٩ : ٣٢) سورة طه]،:

﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾

وكانت العلة الباعثة على هذا الطلب، والضرورة القاضية به والحكمة منه:

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

وذلك لأن الذكر الكثير، والتسبيح الكثير، والعبادة المستمرة، تحتاج إلى معين، ورفيق ملازم للإنسان، ومباشر له بصفة مستمرة، من أجل استدامة الذكر والشكر والتسبيح، واستمرار الطاعة والعبادة، بخلاف الأعمال الأخرى، من دعوة فرعون وقومه إلى الله، فإنها كانت تأخذ دوراً بعد دور، ووقتاً بعد وقت، كلما سمحت الظروف بذلك، وكلما نزلت أوامر جديدة، وآيات أخرى يحتاج سيدنا موسى إلى هارون في إبلاغها إلى فرعون وقومه، فكانت أعمال الذكر والتسبيح أكبر بكثير من مهمة إبلاغ الدعوة إلى فرعون وقومه، ومن هنا كانت حاجة سيدنا موسى إلى سيدنا هارون في هذه الناحية أكثر وأعظم)).

فإذا توثقت رابطة الأخوة، كان من أوجب الواجبات على الأخ نحو أخيه، زيارته في الله ورسوله، وتوثيق الروابط بينهم، وتجديد المحبة والمودة، والتعاون على البر والتقوى، والاطمئنان على الأخ، والوقوف على أخباره وأحواله، ومدّيد العون له إن كان في حاجة

والتسرية عنه إن كان في مُلمّة، ومشاركته فرحته إن كان في مسرّة، وتزويده بما معه من علم ومعرفة، والأخذ عنه إن كان لديه مزيداً من الهدى والحكمة:

وفي الحقيقة أن آداب الفقراء لا تنحصر، لأنها مجموع ما في الكتب الإلهية، والأحاديث النبوية، والآثار الصحابية، والآداب السلفية، ولكن يجمع آداب الفقير مع إخوانه كلها، أن لا يعاملهم إلا بما يحب أن يعاملوه به، وأن يرجو لهم من الخير والمسامحة في ذنوبهم ما يرجوه لنفسه، وأن يحملهم في جميع ما يقعون فيه من مواطن التهم على أحسن المحامل، مما يحب أن يحملوه عليه، لو وقع هو في ذلك، ويرجو لهم قبول التوبة، ولو فعلوا من معاصي أهل الإسلام ما فعلوا، كما يرجو ذلك لنفسه، إذا وقع فيما وقعوا وسنشير هنا بإيجاز إلى بعض الأخلاق التي لابد منها للمريد في الخلطة والمعاشرة لإخوانه، والتي لو وفّى بها خلع الله ﷻ عليه من الأخلاق المحمدية، ما به يعطي كل ذي حق حقه على الكمال من والد وزوجة وولد وصاحب وجار ونحوهم، فمن ذلك:

١- أن ينظر إلى أخيه على أنه خير منه على أي وجه كان، فمن كان أكبر منه يعتقد أنه خير منه، لأنه سبقه في طاعة الله ﷻ ، ومن هو أصغر منه، يعتقد أنه خير منه، لأنه أقل منه معصية لله ﷻ ، وأما المساوي له فإن كان أعلم منه اعتقد أنه أفضل منه لعلمه، وإن كان أقل منه علماً، اعتقد أنه أفضل منه لخفة حسابه، حيث أن المرء يحاسب على قدر علمه، وهكذا.

٢- إذا جالس اخوانه يستحضر في نفسه المعاني التي أشار إليها الإمام أبو العزائم ؓ في كتابه(دستور آداب السلوك) صـ ٤٩ :((جلس مُحصّلاً، لا موصّلاً، ومُكتسباً، لا منْفقاً، وطالباً لا مطلوباً، ومجاهداً لأعدائه فيه، لا مغروراً مخدوعاً، ومريضاً يستشفى، لا طبيباً يُعالج)).

٣- أن يغضّ عينه عن عيوب إخوانه، وصم آذانه عن سماع مثالبهم ومعايبهم، لأن الأخ ليس رسولاً معصوماً، ولا مَلَكاً نورانياً مجرداً عن لوازم

البشرية، وعليه أن يشتغل بتطهير نفسه وتزكيتها من عيوبها، وأن ينظر لنفسه بالانتقاد، أو البحث عن دسائسها ومساويها، وينظر لكمالات إخوانه، ليتكمل بها، ومحاسنهم ليتجمل بها قال ﷺ (عن ابنِ عُمَرَ ،سنن الترمذي وجامع الأحاديث والمراسيل):

((لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيرُوهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ يَتَتَبَّعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ))

٤- أن يعفّ نفسه عن حاجات إخوانه، ومتاعهم، فلا يتطلع إليها، ولا يطمع في شئ منها. بل يعودّ نفسه على إيثار إخوانه على نفسه، فإن أكابر القوم ما وصلوا إلى ذلك إلا بالإيثار وسلامة الصدور من الحقد والحسد والضغائن.

٥- إذا جالس أخاه، يجاهد معه في تحصيل العلم النافع، والعمل الرافع، وتجديد الأحوال العلية، وتنشيط الهمم والعزائم، حتى يفيد أخاه ويستفيد منه، بأعظم الأرباح، وأعلى المكاسب.

٦- أن يستر ما يراه من عورات أخيه، ولا يبديها لغيره، وإن تحتم إخباره بها، فليكن ذلك بلطف وفي رفق ولين، ويكون سراً بينه وبين أخيه. فقد قالوا: كل كشف اطلع صاحبه على شئ من عيوب الناس فهو كشف شيطاني يجب عليه التوبة منه.

٧- ألا يكون ثقيلاً في زيارته لأخيه، وذلك بأن يحرص على ألا يؤخّر له عملاً، ولا يعطّل له شُغلاً، وأن يرعى حرمات أهله ومنزله، ولا يطيل أمد الزيارة لقوله ﷺ .(رواه البزار في مجمع الزوائد عن أبي ذر) :

«زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا».

وأن يختار الوقت المناسب للزيارة، فلا تكون وقت القيلولة مثلاً في الصيف، أو في وقت متأخر من الليل، أو عقب صلاة الفجر.

٨- أن يحرص على الوفاء بكل موعد وعد به أخاه، وكذلك إنجاز كل عمل طلبه منه، وإذا تأخر في تنفيذ أي أمر لعذر، فعليه أن يتصل بأخيه بأي كيفية، ويبلغه اعتذاره.

٩- ومن شأنه أن يكون عنده شفقة على دين إخوانه أكثر من شفقته عليهم في أمر دنياهم، فينبههم إلى أوقات المواهب الإلهية كالأسحار، وكذلك مواسم الفضل الرباني، على أن يكون ذلك بسياسة ولين، وليس بفظاظة وغلظة واحتقار، حتى لا تتحرك نفوسهم، فلا يسمعون له.

١٠- ينبغي أن لا يرى نفسه على أحد من إخوانه، بسبب طاعة يواظب عليها، أو لسان بيان وهبه له الله، أو ميزة روحانية تفضّل عليه بها الله، فقد كان سيدي عبد العزيز الدريني ﷺ يقول:

((من أراد أن يصير الوجود كله يمده بالخير، فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم في الدرجات، لأن المدد الذي مع الخلق كالماء، والماء لا يجري إلا في المواضع المنخفضة دون العالية أو المساوية، فمن رأى نفسه مساوية لجليسه، فمدده واقف لا يجري إليه، أو أعلى منه، فلا يصعد إليه ذرة من مدده)).

١١- ومن شأنه أن يتباعد عن حب الرياسة، فإذا شهد وجوده، وظهرت له خصوصيته، وجب عليه أن يلزم الأعتاب، ويتجمل بالآداب، فإن مراد السالك القبول والغيبة عن الخلق بالحضور مع الله تعالى فمن غيبّه علمه وحاله وبيانه عن الحضور مع الحق، فعاند أو جادل، أو اصطفى لنفسه إخواناً، أو ظن أنه كُمّل فقام ليكمل غيره،

خلع حلل السلوك، وحُرم السير إلى ملك الملوك، وهذا هو المرض الإبليسي ومن لم يتدارك نفسه في هذا التيّه، بتعاطي الأدوية المرة من يد المرشد، أو النصوح المخلص من إخوانه، ردّ عن الجناب إلى الأعتاب أو إلى رعي الدواب، نسأل الله السلامة.

١٢- أن يألف الإخوان، ويتحمل أذاهم، حتى يألفوه، ويتخلق معهم بالأخلاق الكريمة، فيسامحهم في كل شئ أذوه به، من قول، أو فعل، أو سوء ظن. فقد قال سيدي أحمد الزاهد ﷺ:

((ما صبر مريد على الكلام في عرضه، واشتغل بالله، ورضي بعلمه تعالى، إلا جعله الله تعالى إماماً يقتدي به عن قرب، وما تعلق مريد من كلام قيل فيه، إلا صار وراء الناس))، وكان سيدي مُحَمَّد الغمري ﷺ يقول:

((من أراد أن يكون إماماً يقتدى به، فليخلص النية في خدمة إخوانه، ويصبر على جفائهم له، وكلامهم في عرضه، وحملهم له على المحامل السيئة في خدمته لهم، وجميع أحواله)) ، ومن كلام سيدي أحمد الرفاعي ﷺ:

((من انتصر لنفسه وأجاب عنها، تلف وتعب، ومن سامح الناس وفوّض أمره لمولاه، نصره من غير أهل ولا عشيرة)).

١٣- ومن شأنه، أن لا يصدق في إخوانه نمّاماً، وإن نقل إليه أن إخوانك يكرهونك، وقال: رأيتهم كلهم البارحة متحلّقين، يجرحونك، ويذكرون نقائصك، ونفسك الخبيثة، فليقل له: يا فلان، أنا من محبة إخواني وودّهم على يقين، ومن كلامهم على ظن، ولا أترك يقيناً لأجل الظن، فبذلك يخزي النمام، ولا يعود ينقل إليك شيئاً، وإن قلت له أنا لا أصدقك حتى بينك وبينهم، وانظر هل يصدقونك فيما قلت عنهم أو يكذبونك، فإنه لا يعود يأتي إليك بالنميمة عنهم أبداً.

١٤- ومن شأنه أن يقوم بخدمة إخوانه، ويكون مقداماً لهم في الخدمة، فلا يرمي بنفسه إلى الكسل والخمول، فمن كان قائماً في مصالح الخلق، كان الوجود كله يمده ويساعده، ومن اشتغل بمصالح نفسه فقط، دون إخوانه، تخلف الوجود عن مساعدته، وربما صار يقاسي في تحصيل رزقه وجده أشد التعب قال سيدي علي الخواص ﷺ: ((إن الله ييسر الرزق لمن خدمه خالصاً مخلصاً، وخدم إخوانه كذلك)) والمريد الصادق ينظر في صفات شيخه التي هو عليها، إن طلب أن يكون مثله في سعة الرزق أو غيره.

١٥- ومن شأنه أن لا يكون مقداماً لإخوانه في التكاسل عن حضور مجالس الذكر بالكلية، أو عن الحضور في أول المجلس، أو عن حضور صلاة الجماعة، أو مجلس العلم، لأن من كان مقداماً لإخوانه في ذلك، أساء الأدب معهم، وكان عليه وزر كل من تبعه وقد قال ﷺ :

((لا يزال قوم يتأخرون - يعني عن صلاة الجماعة - حتى يؤخرهم الله في النار)). وكذلك لا يكون مقداماً لإخوانه في الخروج من مجلس الذكر، قبل الفراغ منه.

١٦- ومن أدبه أن لا ينصرف من مجلس الذكر الذي يكون مع الشيخ، ولو لحاجة ضرورية، إلا بعد استئذانه الشيخ صريحاً أو بالإشارة، لا سيما مفارقة من علت رتبته من أصحاب الشيخ، فإنه يتعين عليه المشاورة جزماً لئلا يقتدي به غيره. وذلك لأن الله تعالى جعل الأنبياء ونوابهم من الدعاة إلى الله أمناء على الأمة، في كل ما يرقي درجاتهم، فأشار إلى ذلك ﷻ فقال(الآية (٦٢) سورة النور):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾

ومجالسة الأشياخ في الذكر، وقراءة القرآن، و العلم، أمر جامع بيقين، فلا لأحد يفارقهم حتى يستأذنهم.

١٧- ومن حسن أدبه، أن يجتنب مواطن التهم ويبتعد عن ارتكاب الرذائل، ويكون أبعد الناس عن الريبة، ليسمع له أخوانه إذا نصحهم. و كذا يحذر إخوانه من ذلك.

١٨- ومن شأنه، أن يرشد إخوانه إلى ترك البغي على من بغى عليهم، ولا يأمرهم قط بمقابلة الباغي بمثل عمله، لقوله ﷺ (عن أبي أمامة .رواه الطبراني) :

{ أَدِّ أَلامَانَةَ إِلى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ }

وفي زبور داود عليه الصلاة و السلام :

(يا داود لا تبغي على من بغى عليك إن أردت أنّى أنصرك، فمن بغى على من بغى عليه تخلفت عنه نصرتي)) ،وفي الزبور أيضاّ:

((لا تستبطئ الإجابة لدعائك في حق عدوك، فإني إنما أبطئ إجابة دعائك، لأعاملك بنظير ذلك، إذا ظلمت إنساناّ ودعا عليك، فإن طلبت إجابة دعائك بسرعه، فلا تستغرب سرعة إجابة دعاء عدوّك عليك)).

١٩- ويجب عليه أن يأخذ بيد الظالم، ويكفّه عن ظلمه بالقول والفعل، وذلك بحسن سياسة، ولين قول.

٢٠- ومن شأنه أن لا يفرق بين إخوانه في الإقبال عليهم، والبشاشة لهم، بسبب الفقر أو الغنى أو الجاه أو النسب.

٢١- ويجب عليه ترك الجدال مرة واحدة، إلا ما كان لبيان حكم من الأحكام الشرعية مختلف فيه، ويكون بالتي هي أحسن.

٢٢- ومن شأنه أن يراقب قلبه من جهة إخوانه، فمهما رأى عنده تغيراً وتشويشاً من أحد من المسلمين، فليرجع على نفسه باللوم، وليسع في إزالة ذلك من قلبه، و يقيم العذر لأخيه فيما وقع فيه معه، قياماً بواجب حق الأخوة، و يرى أنه أخطأ في تشوّشه من أخيه، ولو بلغ له مرتبة الصدق ، وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: ((لا تثق بود من لا يحبك إلا معصوماً)) ، و كان الإمام أحمد بن حنبل ﷺ يقول: ((عليكم بصحبة الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير)).

٢٣- ومن شأنه أن لا ينسى إخوانه من الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والعفو كلما وجد الوقت صافياً مع ربه ﷻ ، سواء كان في ليل أونهار أو سجود أو غيره.

٢٤- ومن شأنه أن يعترف بالفضل لكل من أحسن إليه من إخوانه، و يكافئ من أحسن إليه قدر استطاعته ولا يتهاون في ذلك.

٢٥- ومن شأنه أن يقدم حوائج إخوانه الضرورية على عبادته من سائر النوافل، لأن الخير المتعدى نفعه أفضل من القاصر على فاعله، لا سيما إذا أمره شيخه بذلك.

٢٦- ومن شأنه أن لا يرى نفسه على أحد من جماعة شيخ آخر، فإنهم اخوانه في الطريق، لأن طريق أهل الله واحدة، ترجع إلى واحد، وإن تعددت، وما اتخذ الناس لهم شيخاً، إلا ليهذب أخلاقهم، ويزيل رعوناتهم، حتى يصير أحدهم، يرى أن الناس كلهم ناجحون، وما هالك إلا هو، وقد كان الشيخ أبو مدين يقول:

((الفتوة هي رؤية محاسن الأخوان، والغيبة عن مساوئهم)).

٢٧- ومن شأنه أن لا يغفل عن نصح نفسه وإخوانه، فلا يطمع في ما في يد الخلق، ولا يصحب مبتدعا، ولا امرأة، ولايرى في شيخه نقصاً، ولا يغفل عن ذكر الله، ولايتخلف عن مجالس الذكر ولا عن خدمة الصالحين واحترامهم، فإن فعل ابتلاه الله بالمقت بين العباد.

٢٨- ومن شأنه أن لا يحب العلو على أحد من إخوانه، والتواضع لكل من رفعه الله عليه في علم أو عمل أو جاه أو نحو ذلك، أدباً مع الله تعالى الذي رفعه عليه، فقد أجمع الأشياخ على أن حب العلو على الناس، من أقوى أسباب الانتكاس.

٢٩- ومن شأنه أن يحذر إخوانه من أن يطلبوا بعبادتهم مقاماً أو حالاً، فإن من طلب لنفسه حالاً أو مقاماً، فهو بعيد عن طرقات المعارف، بل ينبغي عليه أن يحثهم على عمارة أوقاتهم بالموافقات طلباً لمشاهدة الحق تعالى فقد قيل: شتان بين من همته الحور و القصور، و بين من همته رفع الستور ودوام الحضور.

٣٠- ومن شأنه أن يحذر إخوانه من كل شيء يؤذيهم، ويوقفهم عن السير، وقد قالوا: من ضيع حقوق إخوانه ابتلاه الله تعالى بتضيع حقوقه .

قال الإمام أبو العزائم رضي الله عنه

أيا رفقتى يا خلتى يا أحبتي ... على العروة الوثقى فسيروا ورافقوا
ألا فاجتماعا بالقلوب وألفة ... وعونا على عمل المكارم تلحقوا
واياكم وأخلاق أبليس أنها ... لقد أبعدته وهو طاووس رامق
دعو الكبر والحسد القبيحين سادتى ... دعو طمعا فيما يزول وسابقوا
وسترا لعورات الأحبة كلهم ... وعفوا عن الزلات فالعفو أرفق
وغضوا عن المكروه أعين عفة ... وجودوا ببشر فالسماحة رونق
وأياكم وعدوكم خبث طبعكم ... وطمعا وحب الجاه فهو يفرق
توادوا بروح الله فى الله وابذلوا ... لاخوانكم بشر اللقا و تعانقوا
لصحبتكم بالرفق و الحسن فابذلوا ... لأحبابكم عند اللزوم وخالقوا
وكفّوا عن التنفير واسعوا لجمعكم ... على الله فالدنيا متاع مفارق
ألا من يكن فى قلبه بعض ذرة ... من الكبر والأحقاد ما هو ذائق
ألاطهّر الأخلاق والنفس زكّها ... وإلافسهم البعد يرمى فيفتق
ألا يا أخى بالذّل ترقى و تُرفعن ... وبالزّهد تُعطى ماله تتشوّق
ويا صاحبى بالجد والعزم جاهدن ... لتشهد أسرارا بها الحق مُشرق

وقال الإمام أبو العزائم رضي الله عنه

نور الوراثـة لاح للأبصار — وضيا الفتوة لاح بالأسرار
شهد الرجال حقائقاً لم تَظْهـرا — إلا لأهل الكشف والأخيار
ما قد مضى قد عاد نوراً مشرقاً — من سادة الأبرار والأخيار
علم وحال حجة نبويـّة — راح طهور دار بالمدرار
قد اسكر الأرواح راح محمـد — طه الحبيب المصطفى المختار

ويقول سيدي إبراهيم التازي (دفين وهران بالجزائر) في أسرر زيارة الصالحين

زيارة أرباب التقى مرهم يَبْري — ومفتاح أبواب الهدايـة والخير
وتُحْدِث في الصـدَّر الخَليّ إرادة — وتشرح صدرا ضاق من سعةَ الوزر
وتنصر مظلـوماً وترفع خاملاً — وتكسـب معدوماً وتجبر ذاكر
فكم خلَّصت من لجُة الإثم فاتكا — فألقته في بحر الإنابـة والبر
وكم من مريد أظفرته بمرشـد — خبير بصير بالبـلاء وما يبري
فألقي عليه حـلُة يمنيـة — مطرّزة بالفتح واليُمن والنصـر
عليك بها فالقوم باحوا بسـرّها — ووصّوا بها يا صاح في السّر والجهر

فزر وتأدب بعد تصحيح نيَّة تأدب مملوك مع المالك الحر
ولا فرق في أحكامها بين سالك مُربّي ومجذوب ، وحي وذي قبر
وذي الزهد والعباد فالكل منعم عليه ولكن ليست الشمس كالبدر

ويقول ابن عجيبة رضي الله عنه وأرضاه في الأدب مع الشيخ المربِّي

مع الشيخ آداب إذا لم تكن له فإنه في وادي القطيعة راتع
خضوع، وهيبة ، وصدق محبة وعقل كمال فيه: إنه جامع
فلا ترفعن صوتاً إذا كان حاضراً ولا تضحكن فالضحك فيه فجائع
ولا تعترض أصلاً عليه فإنه بنور شهود للبصيرة تابع
ولا ترمين عيناً إلى ماء غيره فتُرْمى كسيراً في المعاطش ضائع
ولا تخرجن من عُشّ تربية غدت تمدّك بالأنوار منها تتابع
إلى أن ترى الترشيد قد حان وقته وصرت من التمكين أمرك شائع
تمد من الأنوار من كل وجهة وتسقي من الأنام مَنْ هو تابع

قصيدة أنوار السرائر وسرائر الأنوار

للشيخ أبو العباس الشريشي رضي الله عنه

وللشيخ آيـات إن لم تكن له — فما هو إلا في ليالي الهوى يسـري

فإذا لم يكن عِلْـم لديه بظاهر — ولا باطن فاضرب به لجج البحر

وإن كان الا أنه غير جـامع — لوصفيهما جمعاً علي أكمل الأمر

فأقرب أحوال العليل إلى الردّي — إذا لم يكن منه الطبيب على خُبْر

ومن لم يكن إلا الوجود أقامه — وأظهره منشـور ألوية النصر

فأقبل أربـاب الإرادة نحوه — بصدق يحل العسر في جلمد الصخر

وآيته أن لا يميل إلى هـوى — فدنياه في طيّ وأخراه في نَشْـر

وإن كان ذا جمع لأكـل طعامه — مريـد فلا تصحبه يوماً من الدهر

ولا تسـألن عنه سوي ذي بصيرة — خلي من الأهـواء ليس بمغترّ

فمن صدئت مـرآه ناظر فهمه — أرته بوجه الشمس من كلف البدر

ومن لم يكن بدر العروض فربما — يرى القبض في التطويل من أقبح الكسر

ولا تقدمن قبل اعتقادك أنه — مُربي ولا أولى بها منه في العصـر

فإن رقيب الإلتفـات لغيره — يقول لمحبوب السِـراية لا تسر

ومن بعده الشيخ الذي هو قدوة | يلقي مراد الحق في السرّ والجهر
فقم واجتنب ما ذمّه العلم واجتلب | لما خصّه بالمدح فهو جنى الدُّر
وإن تَسم نحو الفقر نفسك فاطرحِ | هواها وجانبه مُجَانبة الشّـر
وضعها بحجر الشيخ طفلاً فمالها | خروج بلا فطم عن الحجر والحجر
ومن لم يكن سَلْب الإرادة وصفه | فلا يطمعن في شمِّ رائحة الفقر
هذا وإن كان العزيز وجوده | ولكنه في العزم خال من العسر
ولا تعترض يومـاً عليه فإنه | كفيل بتشتيت المريد علي هجر
ومن يعترض والعلم عنه بمعزل | يرى النقص في عين الكمال و لا يدري
ومن لم يوافق شيخه في اعتقاده | يظل من الإنكار في لهب الجمر
فذو العقل لا يرى سواه وإن نأى | عن الحق نأي الليل عن واضح الفجر
ولا تعرفن في حضرة الشيخ غيره | ولا تملأن عيناً من النظر الشَّزَر
ولا تَنْطقن يوماً لديه فإن دعا | إليه فلا تعدل عن الكلِم النَّزْر
ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته | ولا تجهروا جهر الذي هو في قّفْر
ولا ترفَعَن بالضحك صوتك عنده | فلا قبح إلاّ دُون ذلك فاستَبْر
ولا تقعدن قُـدّامه متربعاً | ولا بادياً رجلاً فبادر إلى الستر
ولا باسطاً سجادة بحضوره | فلا قصد إلا السعي للخادم البَّر

وسجادة الصوفي بيت سكونه ولا وكر إلا أن يطير عن الوكر

وما دمت لم تفطم فلا فرجية عليك ولا تلغى عليها بمستحر

ولا تَرَين في الأرض دونك مؤمناً ولا كافراً حتى تُغيّب في القبر

فإن ختام الأمر عنك مُغَيّب ومن ليس ذا حسر يخاف من المكر

ولا تنظرن يوماً إلى الخلق أنه يخُلّى طليق الصفو في كدر الأمر

وإن نظم الحق الكرامات أسطراً فلا تبدين حرفاً لغيرك من سطر

سوى الشيخ لا تكتمه سّراً فإنه بساحة كشف السر يجري على بحر

وفي الكشف إن كوشفت راجعه إنه لتوضيح ما كُوشفت مبتسم الثغر

ولا تنفرد عنه بواقعة جرت ففي غا عيناك و السمع في وقر

وفر إليه في المهمات كلها فإنك تلقى النصر في ذلك الفر

ولا تك ممن يحسّن الفعل عنده فيسفد إلا أن يفر إلى الكسر

ومن حَلّ من صدق الإنابة منزلاً يرى العيب في أفعاله وهو مُسْتبرى

تم بتوفيق الله وحسن رعايته

نبذة عن المؤلف فضيلة.الأستاذ

فوزي محمد أبوزيد

۞تاريخ ومحل الميلاد: ١٨/١٠/١٩٤٨م ، الجميزة مركز السنطة – محافظة الغربية – جمهورية مصر العربية

۞المؤهل: ليسانس كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ١٩٧٠م .

۞العمل: مدير عام بمديرية طنطا التعليمية.

۞النشاط : ١- يعمل رئيسا للجمعية العامة للدعوة إلى الله بجمهورية مصر العربية، والمشهرة برقم ٢٢٤ ومقرها الرئيسى ١١٤ شارع ١٠٥ حدائق المعادى بالقاهرة ، ولها فروع فى جميع أنحاء الجمهورية.

٢- يتجول فى جميع الجمهورية لنشر الدعوة الإسلامية وإحياء المُثل والأخلاق الإيمانية بالحكمة والموعظة الحسنة .

٣- بالإضافة إلى الكتابات الهادفة إلى إعادة مجد الإسلام .

٤- والتسجيلات الصوتية و الوسائط المتعددة للمحاضرات والدروس واللقاءات على الشرائط و الأقراص المدمجة.

٥- وأيضا من خلال موقعه بالإنترنت: WWW.Fawzyabuzeid.com

۞ دعـوته :

١- يدعو إلى نبذ التعصب والخلافات بين المسلمين والعمل على جمع الصف الإسلامى وإحياء روح الإخوة الإسلامية ، والتخلص من الأحقاد والأحساد والأثرة والأنانية وغيرها من أمراض النفس.

٢- يحرص على تربية أحبابه على التربية الروحية الصافية بعد تهذيب نفوسهم وتصفية قلوبهم .

٣- يعمل على تنقية التصوف مما شابه من مظاهر بعيدة عن روح الدين ، وإحياء التصوف السلوكى المبنى على القرآن وعمل الرسول وأصحابه الكرام .

۞ هدفه :

إعادة المجد الإسلامى ببعث الروح الإيمانية ، ونشر الأخلاق الإسلامية وترسيخ المبادئ القرآنية .

ثبت المراجع

١- القرآن الكريم
٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – فؤاد عبدالباقي دار الشعب القاهرة
٣- كتب السنة
٤- د.إبراهيم بسيوني نشأة التصوف
٥- د.أحمد أمين فيض الخاطر
٦- أحمد عبدالجواد الدومي الدين والحياة
٧- أمين النقشبندي ما هو التصوف؟ الدار العربية – بغداد ١٩٨٨م.
٨- السراج الطوسى اللمع دار الكتب الحديثة – مصر ١٩٦٠م.
٩- السهروردي عوارف المعارف دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٨٣م.
١٠- الغزالي المنقذ من الضلال مكتبة الجندي – القاهرة
١١- الكلاباذي التعرف على مذهب أهل التصوف الحلبي – القاهرة ١٩٦٠م.
١٢- ابن الصباغ درة الأسرار طبعة السعادة – القاهرة
١٣- ابن عطاء الله لطائف المنن مكتبة القاهرة ١٩٧٠م.
١٤- أرنولد الدعوة إلى الإسلام النهضة المصرية ١٩٧٠م.
١٥- د.حسن الأشموني التعبئة الروحية في بناء المجتمع
١٦- د. حسن الشرقاوي المسلمون علماء وحكماء مؤسسة مختار – القاهرة ١٩٨٧م.
١٧- د.حسن الشرقاوي نحو علم نفس إسلامي شباب الجامعة ١٩٨٤م – الإسكندرية
١٨- د.حسين سيد عبدالله مراد المتصوفة في المغرب الأقصى -الإسلامية الحديثة ١٩٩٤م القاهرة.
١٩- د.رمضان مُحَمَّد القذافي علم النفس الإسلامي الدعوة الإسلامية ١٩٩٠م ليبيا.
٢٠- د.سعد الدين السيد صالح مشكلات التصوف المعاصر دار المعارف ١٩٩٣م القاهرة.
٢١- سعيد حوّي تربيتنا الروحية دار عمار – بيروت ١٩٨٩م.
٢٢- طنطاوي جوهري تفسير الجواهر أعلام مصطفى الحلبي- مكتبة القاهرة
٢٣- طه عبدالباقي سرور التصوف الإسلامي الخانجي – القاهرة
٢٤- طه عبدالباقي سرور الشعراني والتصوف الإسلامي مكتبة الخانجي – القاهرة
٢٥- عبدالحفيظ فرغلي علي القرني التصوف والحياة المعاصرة مجمع البحوث الإسلامية ١٩٨٤م – القاهرة
٢٦- د.عبدالحليم محمود أبو الحسن الشاذلي دار الكتاب العربي ١٩٦٧م – القاهرة.
٢٧- د.عبدالحليم محمود الإسلام والعقل دار المعارف ١٩٨٨م – القاهرة
٢٨- عبدالوهاب الشعراني الكوكب الشاهق دار المعارف ١٩٩١م – الإسكندرية.
٢٩- علاء الدين النقشبندي رسالة طب القلوب الشئون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٩م
٣٠- فوزي مُحَمَّد أبو زيد الإمام أبو العزائم دار الإيمان والحياة – القاهرة ١٩٩٢م
٣١- مُحَمَّد أبو زهرة الدعوة إلى الإسلام دار الفكر العربي ١٩٩٢م
٣٢- د.مُحَمَّد عبدالفتاح المهدي العلاج النفسي في ضوء الإسلام دار الوفاء – المنصورة ١٩٩٠م
٣٣- مُحَمَّد فتح الله الزيادي انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه دار قتيبة – بيروت ١٩٩٠م
٣٤- محمود أبو الفيض المنوفي المدخل إلى التصوف.

فهرست

	مقدمة
	الجزء الأول : ملامح المنهج الصوفى
	البَابُ الأوْل : الْبدَايَةُ الصُّوفِيَّة
	تعريف التَّصُوف.
	نشأة علم التَّصُوف.
	أهمية التَّصُوف.
	الصُّحبة الصَّالحة .
	أهميتها وفائدتها وآثارها.
	الدليل على أهمية الصحبة من كتاب الله.
	الدليل على أهمية الصحبة من الأحاديث الشريفة.
	أقوال الفقهاء والمحدثين فى أهمية الصحبة وآدابها.
	أقوال العارفين بالله من المتصوفة في الصحبة وآدابها
	السالك وقراءة كتب التَّصُوف.
	مؤلفات الصُّوفية..
	الباب الثانى : معالم المنهج الصوفى
	الصوفية الحقة
	الصوفية والصفاء
	الصوفية والشريعة الإسلامية
	إقتداء الصوفية بأحوال الصحابة الكرام
	المعرفة الذوقية عند الصوفية
	طريق البصيرة
	الباب الثالث : شبهات مثارة
	الشريعة والحقيقة
	الظاهِرُ و الْباطِن
	علوم الشَّريعة وعلوم القُلوب
	الصوفية والعمل

الصوفية والسياسة	
دعوى وحدة الوجود	
إتهام الصوفية بالحلول والإتحاد .	
أبن تيمية ومقام الفناء	
الصوفية والذكر	
فائدة الذكر الصحية و النفسية	
المناعة الإيمانية	
أثر المناعة الإيمانية	
الغرب والعلاج بالقرآن	
أثر القرآن الكريم على النفس البشرية	
أثر الصلاة النفسي	
الإيمان والحياة	
أذواق الصوفية فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية	
الباب الرابع : الصوفية والحياة العصرية	
أ – الصوفية وإصلاح المجتمعات	
أولاً: إصلاح النفوس	
ثانياً: نشر القيم والفضائل	
ثالثاً: مقاومة التيارات المادية	
رابعاً: طهارة القلوب	
خامساً: التكافل الاجتماعي	
سادساً: حل المنازعات	
سابعاً: نصرة المظلوم	
ثامناً: إصلاح المنحرفين	
تاسعاً: عمارة المساجد	
عاشراً: العلاج النفسي	
ب – الدعوة إلى الإسلام	
ج – الصوفية والعلوم العصرية	

د – الصوفية وريادة العلوم	
الجزء الثاني : الشيخ المربى	
تمهيد	
البَابُ الأول : الشَيْخُ الْمُرَبِّي	
أوصافه وعلاماته	
أخلاقه	
علومه ومعارفه	
الشيخ الكامل	
الحاجة إلى الشيخ	
أوصاف الأدعياء	
نصيحة صادقة	
البَابُ الثَّاني : أدب المُرادِين والمُريدين	
أدب الشيخ	
أدب السالك في نفسه	
أدب السالك مع شيخه	
أدب السالك مع أخوانه	
من عيون المواجيد والقصائد في باب الآداب	
أيا رفقتي يا خلتي يا أحبتي	
نور الوراثة لاح للأبصار	
زيارة أرباب التقى مرهم يَبْري	
مع الشيخ آداب إذا لم تكن له	
وللشيخ آيات إن لم تكن له	
نبذة عن المؤلف	
ثبت المراجع	
فهرست	
قائمة مؤلفات الأستاذ فوزى أبوزيد	
تحت الطبع	

قائمة مؤلفات الأستاذ

أولا : من أعلام الصوفية :

١- الإمام أبو العزائم المجدد الصوفى ٢- الشيخ مُحَّد على سلامة سيرة وسريرة.

ثانيا : الدين والحياة :

٣- زاد الحاج و المعتمر (٢ط) ٤- نفحات من نور القرآن ج ١

٥- نفحات من نور القرآن ج ٢ ٦- مائدة المسلم بين الدين و العلم

٧- نور الجواب على أسئلة الشباب ٨- فتاوى جامعة للشباب

٩- مفاتح الفرج (٥ ط) (ترجم للأندونسية) ١٠- مختصر مفاتح الفرج .(حجم صغير).

١١- تربية القرآن لجيل الإيمان، (ترجم إلى الإنجليزية والأندونسية)

١٢- إصلاح الأفراد و المجتمعات فى الإسلام

١٣- كيف يحبُّك الله .

الخطب الإلهامية : المجلد الأول : المناسبات

١٤- ج١: المولد النبوى ١٥- ج٢ : الإسراء و المعراج

١٦- ج٣ : شهر شعبان و ليلة الغفران . ١٧- ج٤ : شهر رمضان و عيد الفطر

١٨- ج٥ : الحج و عيد الأضحى ١٩- ج٦ : الهجرة و يوم عاشوراء.

ثالثا : الحقيقة المحمدية :

٢٠- حديث الحقائق عن قدر سيد الخلائق (٣طبعات).

٢١- إشراقات الإسراء- ج١(٢ط) ٢٢- إشراقات الإسراء- (ج٢)

٢٣- الرحمة المهداة ٢٤- الكمالات المحمدية

٢٥- واجب المسلمين المعاصرين نحو الرسول ﷺ.

رابعا : الطريق إلى الله :

٢٦- طريق الصديقين إلى رضوان رب العالمين (ترجم للأندونسية)

٢٧- أذكار الأبرار ٢٨- أذكار الأبرار (حجم صغير)

٢٩- المجاهدة للصفاء و المشاهدة ٣٠- علامات التوفيق لأهل التحقيق
٣١- رسالة الصالحين ٣٢- مراقى الصالحين
٣٣- طريق المحبوبين و أذواقهم .
٣٤- أوراد الأخيار (حجم صغير) .. (تخريج وشرح).

خامسا : دراسات صوفية معاصرة :

٣٥- الصوفية و الحياة المعاصرة ٣٦- الصفاء و الأصفياء
٣٧- أبواب القرب و منازل التقريب ٣٨- الصوفية فى القرآن و السنة
٩٣- المنهج الصوفى والحياة العصرية

تحت الطبع للمؤلف

١- المربّى الربّانى : السيد أحمد البدوى

٢- المؤمنات القانتات

٣- الصلوات الإلهاميّة

٤- الحكم الإلهاميّـة

٥- الموت و الحياة البرزخية

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تطلب المطبوعات من الناشر :

دار الإيمان والحياة، ١١٤ ش ١٠٥ ،حدائق المعادى ،القاهرة، تليفون : ٥٢٥٢١٤٠

والمكتبات الكبرى بالقاهرة والأقاليم .